

عبقرية اللغة العربية

محمد عبد الشَّافي القُوصِي

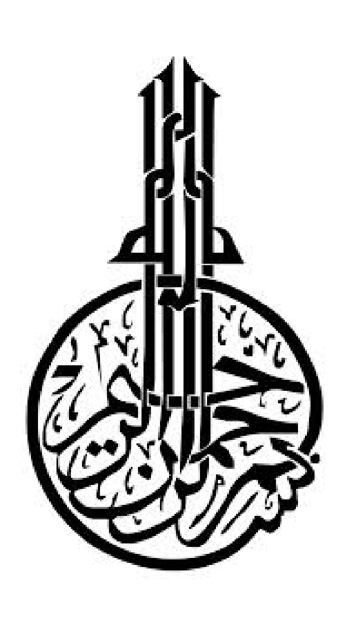
منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ 1437 هـ / 2016م

(أيها الناس؛ إنَّ الربَّ واحد، والأب واحد،
وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم،
وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي).

حديث شريف

رقم الإيداع القانوني : 2016MO0963
ردمك : 978-9981-26-612-4

التصفيف والتوضيب والسحب في الإيسيسكو
الرباط-المملكة المغربية


بسم الله الرحمن الرحيم

إهـداء

إلى "سـيِّد الأنـام، النبيّ المظلَّل بالغمام"

القائل : (أنا أفصح العرب .. وأُعطيتُ فواتح الكلِمِ وخواتمه وجوامعه).

المحتويات

إهـداء 4
تقديـم 7
مقدِّمة 9
لماذا العربيـة؟ 13
أيّ اللغات أولى بالحماية؟ 16
تاريخ العربية وتطورها 22
«الفصحـى» لغة العرب أمْ لغة قريـش؟ 29
لغة الضاد أمْ لغة الظاء؟ 32
اللهجات العربية 39
الأسواق الشِّـعرية 42
الخط العربي 45
خريطة العربية 53
مزايا لغة الضـاد 59
خصائص العربية 73
ثورات النحـو العربي 79
على مائدة سـيبويه 86
عجائـب الفصحى وغرائبها 93
معارك العربيـة 106
تحديات في طريق الفصحـى 116
فضـل القرآن على العربية 121

النبأ العظيم 127
دلائل الإعجـاز 132
علاقة العربية بالإسلام 135
تأثير العربيـة في اللغات الشرقية 139
أثر العربية في اللغات الأجنبيـة 146
وشهد شـاهد من أهلها 153
اللغة: توقيف أمْ اصطـلاح؟ 161
وظائف اللغـة 167
المجامع اللغوية 170
قضية التعريب 175
من أخبار العربيـة 181
علماء العربية ومؤلفاتهـم 186
رسـالة إلى الأمـة 223
فـي عالَم الجمال 226

تقديم

اللغــة هــي روحُ الأمــة، وعنــوان هويتهــا، ووعــاء ثقافتهــا، ورمــز وجودهــا، ومصـدر إشـعاعها. إذا تعهدهـا أهلهـا بالحفـاظ عليهـا وبصونهـا وبالنهوض بهـا، أوفوا بحقهـا عليهـم، وقامـوا بواجبهـم نحوهـا، فظفـروا بشـرف الـذود عنهـا ونالـوا فضـل حمايتهـا، واسـتحقوا أن يكونـوا مـن البُنـاة لنهضتهـا والرافعيـن لأعلامهـا بيـن لغـات الأمـم والشـعوب، فيعلـو شـأنها وتسـمو منزلتهـا وينتشـر إشـعاعها، فتكـون لغـة حيـة نابضـة بالحيـاة، ومزدهـرة بازدهـار الحضـارة التـي تنتمـي إليهـا، لمـا تمتلكـه مـن مقوّمـات النمـوّ، وشـروط التطـور، وموجبـات إثبـات الحضـور النافـذ والمشـع، وبمـا لهـا مـن القـدرات الذاتيـة للإبـداع فـي شـتى حقـول المعرفـة الإنسـانية، بحيـث تسـاير العصـر فتكـون لغـة الحاضـر الـذي يؤسّـس للمسـتقبل.

فالنهـوض باللغـة مـن نهضـة الأمـة الناطقـة بهـا. وقابليـةُ اللغـة للتطـور ولمواكبـة التقـدم الـذي تعرفـه الإنسـانية فـي جميـع حقـول العلـوم والمعـارف والفنـون والآداب، مـن خصائصهـا التـي تنطـوي عليهـا، ومـن مقوّماتهـا التـي تسـتند إليهـا. فليسـت كل لغـة بقـادرة علـى النمـوّ المواكـب للتقـدم الإنسـاني، وإنمـا اللغـات مقامـات، لـكل منهـا مقـام خـاص بهـا، وطبيعـة تنفـرد بهـا وتميزها عـن غيرهـا مـن اللغـات، إنْ صعـوداً أو هبوطـاً، قـوةً أو ضعفـاً، قـدرةً أو عجـزاً. وهـذا التفـاوت فـي الدرجـات بيـن اللغـات، هـو المعيـار الـذي يحكـم بالتفـوّق وبالتميّـز وبالسـبق، أو بالنقيـض مـن ذلـك كلـه.

لقـد شـرَّف اللـه، تبـارك وتعالـى، اللغـة العربيـة تشـريفاً لـم تنلـه لغـة أخرى، حيـن أنـزل، جـلَّ وعـلا، كتابـه العزيـز علـى قلـب رسـوله ونبيّـه محمـد بـن عبـد اللـه، صلـى اللـه عليـه وسـلم، فـكان هـذا التشـريف الإلهـيّ مصـدر الحفـظ والمناعـة والمتانـة والقـوة للغـة العربيـة الـذي رفـع قدرهـا وأكسـبها مـن عناصـر القـدرة علـى النمـو الـذي لا يتوقـف، مـا جعلهـا متميّـزة، لأنهـا لغـة الوحـي الربانـي والرسـول الخاتـم، بهـا تقـام الصـلاة ركـن الديـن المتيـن التـي يؤدّيهـا المسـلمون مـن شـتى الأجنـاس فـي جميـع أقطـار الأرض علـى مـدار الليـل والنهـار، فأصبحـت لغـة إنسـانية ولسـاناً عالميـاً منـذ ظهـور الإسـلام، أبدعـت حضـارة راقيـة أشـعلت الأنـوار التـي بـددت ظلمـات العصـور الوسـطى فـي العالـم

حتى انبثق فجر النهضة وعصر التنوير في أوروبا الذي قام على أساس من التراث العربي الإسلامي المدونٍ باللغة العربية، سواء بطريقة مباشرة نقلاً عن المؤلفات العربية، أو اعتماداً على الترجمة العبرية لكتب ابن رشد شارح أرسطوطاليس التي أبدعها باللغة العربية وضاعت أصولها.

هذه الخصائص المتميزة والفريدة التي تجعل من اللغة العربية لغة الحياة في كل العصور، وترتقي بها إلى الذروة من القدرة على الإبداع في التعبير عن الإنتاج العقلي الراقي، هي التي قصد إليها الباحث المدقق الأستاذ محمد عبد الشافي القوصي، بهذا العنوان الدَّال الجامع الذي اختاره لكتابه (**عبقرية اللغة العربية**)، والذي تنشره المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ليكون من ضمن مصادر المعرفة اللغوية الجديدة التي تنفتح على التراث الأدبي الغني للغة العربية، وتقرب القارئ من ينابيع الغنى التي تمتاز به هذه اللغة، حيث يأخذه في جولة منعشة للعقل ممتعة للنفس، عبر حدائق اللغة والميادين التي يُبدع فيها الأقطاب ذوو القامات الشامخة المؤسّسون لعلوم اللغة، الذين هم رموزها من مختلف العصور، ويقدم له باقاتٍ من جيّد الشعر أحسن اختيارها من بين بدائع ديوان العرب.

يتناول هذا الكتاب، بأسلوب مبتكر وبلغة مشرقة، موضوعات لغوية ذات قيمة علمية عالية تؤكد جميعُها مظاهر النبوغ وتجليات العبقرية للغة العربية، على النحو الذي يظهر جمال اللغة وبهاءها، ويجلي حسنها ورواءها، مما يحمد للمؤلف الفاضل، ويكتب له في سجل الخدمات التي قدمها لهذه اللغة العبقرية التي هي أمانة في أعناقنا، والنهوضُ بها مسؤوليتنا المشتركة والمهمة الحضارية التي يتوجّب علينا الاضطلاع بها. فهو كتاب ذو ميزة مزدوجة؛ يجد فيه القارئ المتخصص ما ينشده من التوسع في ثقافته اللغوية، ويستفيد منه القارئ العام الذي يلقى فيه ما يحببه في لغته ويشده إليها. وبذلك يحقق المؤلف غاية سامية من غايات التأليف بهذا النمط الجامع بين الحسنيين. وتلك فضيلة من فضائل البحث الرصين الذي يجلي الحقائق ويبسطها أمام القارئ، لتكون مصدراً للمعرفة الموثقة ومرجعاً للعلم النافع.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري
المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

المقدمة

قد أفلح المؤمنون بالقرآن المجيد، الذي أعجز الفصحاء والبلغاء، وظلَّ معجزةً تتأبَّى على الإتيان بمثلها، ومفخرةً تتضاءل أمامها مفاخر الأُمَم والحضارات.

قد أفلح العالِمون بلغة التنزيل الحكيم؛ الذي بلغ غاية الفصاحة ونهاية البلاغة، وتحدَّى الأولين والآخرين أنْ يأتوا بمثل أقصر سورة منه، وأباح لهم أنْ يستعينوا بمن شاءوا، ثمَّ رماهم والعالَم كله بالعجز، فقال: ﴿ ...**لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعضُهُمْ لِبَعضٍ ظَهِيراً** ﴾. وأجهزَ عليهم بالحُكم القاطع المؤبد، فقال: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا**...﴾.

قد أفلح العاشقون للغــة الضــاد، المتدلّهون بمناقبها، المغرمون بعجائبها، المولعون بغرائبها، المرابطون على ثغورها، الذائدون عن حياضها، المقاتلون في سبيلها.

هــذا الكتــاب محاولة لاسترداد الذات، وحمايتها من الذوبان، ونفخ الروح فيها، واستعادة ملامحها الحضارية، وإعادة بناء مرجعيتها الإيمانية، بعدما أصابتها معاول الهدم إصابات بالغة، وتبصيرها بمقومات الشهود الحضاري، وتذكيرها بشرف الانتساب لأمَّة «سيد العالمين»، وتنبيهها للقيام بدورها نحو أم اللغات، والتفاخر بعبقريتها، ومحاسنها، وعالميتها التي تتطلب اليوم، الصحوة الصادقة، والتأليف المثمر، في المجال العلمي، والمعرفي، والإنساني، وتبسيط وسائل تعلّمها، حتى يصبح المرء قادراً على شحذ فاعليته، واستثمار طاقاته، فيستأنف دوره في حمل الأمانة، استجابة لتكليف الله سبحانه: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ..﴾. فلا شهادة، ولا شهود، بعيداً عن التنزيل، ولغة التنزيل.

هــذا الكتــاب؛ مساهمة في تحقيق الوعي الحضاري، والتحصين الثقافي، واسترداد الروح المسلوبة، وتشكيل مركز الرؤية، في ضوء هداية الوحي، ومكتسبات العقل، وتخليصه من الارتهان الحضاري، والضلال الثقافي، والأزمات الفكرية، التي يعاني منها، بسبب اضطراب المفاهيم، والتباس المصطلحات؛ من جرَّاء المفاهيم المغلوطة التي تُفرض علينا، وتُقذف بها ساحتنا العلمية والثقافية، وتُصبح لها السيادة في حياتنا الفكرية، حتى صارت من المسلَّمات، التي نفهم من خلالها ثقافتنا، ونقيس بها حضارتنا، ونُقوّم بها واقعنا، وننظر من خلالها إلى مستقبلنا، والتي تنتهي بإضعاف

الأمة، وتوهين أفكارها، وهزّ قيمها، وتغييب قسماتها الحضارية، وصبّ قيمها الفكرية في أوعية غريبة عنها، ناسين، أوْ متناسين أنَّ حفظ البيان -الذي لا يتحقق إلاَّ بوضوح مصطلحاته، ودلالات ألفاظه، وإدراك معهود اللغة التي نزل بها الخطاب- هو قسيم حفظ القرآن ذاته، وأنَّ أيّ تفريط في المدلولات أوْ في المفاهيم، يعني العبث والضلال الثقافي، الذي يؤدي إلى الانتحال الباطل، والتأويل الفاسد، لأنَّ حفظ البيان، لا يقل من حيث المردود، عن حفظ القرآن.

هـذا الكتـاب؛ صيحة تحذير من خطورة التلاعب بالمصطلحات، لاسيما فيما يتعلق بالمعاني القرآنية، لأنَّ ذلك لون من الضلال الثقافي، والانتقاص لعملية البلاغ الرباني.

فخاتمية الرسالة؛ تقتضي حفظ النص الإلهي، سليماً من أيّ تحريف، أوْ انتقاص، حتى يكون التكليف صحيحاً، يترتب عليه الثواب والعقاب، وفقاً لمقتضيات العدل الإلهي المطلق، فلا يمكن أنْ يُخاطَب النَّاس، بنصوص محرفة، أوْ منحولة، فحفظ المصطلحات والدلالات القرآنية؛ يعدّ أيضاً من لوازم الخاتمية، إذْ لا قيمة لحفظ النص، وغياب بيانه، والانحراف بمدلولاته.

هـذا الكتـاب؛ رحلة ممتعة، وزيارة جديدة؛ إلى ما قبل التاريخ، وأقاصي الجغرافيا، وفي بطون المراجع والمخطوطات، بصحبة اللغويين والنحاة والبلاغيين والأدباء.

هـذا الكتـاب؛ جولة في أرجاء جزيرة العرب؛ حيث منطلق دعوة أنبياء العرب المكرمين(هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، وسيد ولد عدنان).

هـذا الكتـاب؛ أشبه بعملية حفر وتنقيب؛ لاستخراج الخرائط والوثائق والآثار، وبقايا أطلال قوم عاد الأولى، ومدائن صالح، وأصحاب الأيكة، وقوم تُبَّع، والذين جاءوا من بعدهم.

هـذا الكتـاب؛ عصارة قرون، وخلاصة عقول، وشهادة شهود، وقضية وجود، ومرآة حضارة، ولسان دين يأبى الله إلاَّ أنْ يتم نوره، ولوْ كره الكارهون.

هـذا الكتـاب؛ دفاع عن أُم اللُّغات، وسيدة اللغات، وأعرقها وأشرفها، وأقدسها، وأطولها عمراً، وأخلدها ذِكراً، وأوفرها حظاً، وأقومها قيلاً.

هـذا الكتـاب؛ حكايات عن قريش، وأمسيات عكاظ، ومجالس بكر وربيعة، وفصاحة تغلِب، وموسيقى الفراهيدي، ومعارك الكوفيين والبصريين، ومناورات البحتري وأبي تمام.

هـذا الكتــاب؛ موسوعة شاملة لأسماء الأعلام، والمعاجم، واللهجات، والأرقام، والخطوط، والأمكنة والأزمنة، والمعارك التي خاضتها لغة الضــاد.

هـذا الكتــاب؛ ردود ومناقشات، وأسئلة وأجوبة، وحوارات ومجادلات بين أحبار اللغة وعباقرة البيان وسدنة البلاغة؛ الذين زيَّنهم الله بالفصاحة، واصطفاهم على العالمين.

هـذا الكتــاب؛ أشبه بخيمة ثقافية جمعت: الأخفش، والأصمعي، والجاحظ، والزمخشري، والرازي، والباقلاني، والجرجاني، والأصفهاني، والبغدادي، والألوسي، والزَّجَّاج، والفَرَّاء، والمُبرِّد، وابن العميد، وابن الأعرابي، وابن مسكويه، وغيرهم ممن نضَّر الله وجوههم.

هـذا الكتــاب؛ أعياد وأفراح وأعراس؛ لتوزيع الأوسمة والنياشين على صناديد اللغة وسدنتها؛ كالخليل، والكسائي، وسيبويه، وابن فارس، وابن جِنِّي، والثعالبي، والجوهري، وابن منظور، والفيروز أبادي، وغيرهم ممن رضيَ الله عنهم، ورضوا عنه.

هـذا الكتــاب؛ شهادة تاريخية، ورؤية تحليلية، وقصيدة وجدانية؛ إنْ كان ينقصها الوزن والقافية، فلا ينقصها الإحساس والشعور. وأبصِــر فســوف يبصــرون.

محمّد عبد الشَّافِي القُوصِـي

لماذا العربية؟

سبحان الذي أبدع كتابه وفصَّله، وجعله آيةً دونها كل آية، ومعجزةً دونها كل معجزة، واصطفى (اللسان العربي) وكرمه بنزول الوحي به، وكرَّرَ الإشارة والتنبيه والتذكير بمنزلة ذلك اللسان المبين في تسعِ سورٍ محكمات من سور القرآن المجيد.

وقد امتنَّ على العرب بهذا الشرف الخالد، فقال: ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ** ﴾ [الزخرف : 44].

وأخبر الدنيا كلها بمزايا هذا اللسان، وأنَّ "العربية" من خصائص منهاج الله، فقال: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [يوسف : 2].

وظلَّ يذكِّر بهذه النعمة مرات عديدة، فقال تعالى: ﴿**وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [النحل: 103]. وقال سبحانه : ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ [الشعراء :195]. وقال جلَّ جلاله: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً** ﴾ [الشورى : 7]. وقال جلَّ شأنه: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً** ﴾ [الزخرف : 3]. وقال عزَّ من قائل: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِياً** ﴾ [الأحقاف : 12].

ومع كل تأكيد، يتجلَّى ظلٌّ جديد؛ ففي سورة الرعد؛ يأتي ظلٌّ ممتد مع التشريع والحكم الذي تتسع له العربية: ﴿**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِياً ولئن اتبعتَ أهواءهم بعدما جاءكَ من العلم ما لك من الله من وليٍّ ولا واق** ﴾ [الرعد : 37]. ويرتبط التفصيل في سورة فُصّلت، باللغة العربية التي تتسع لهذا التفصيل وبيانه : ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لقوم يعلمون** ﴾ [فصلت : 3]. ويرتبط معنى الوضوح واستقامة المعنى والبيان والتشريع والعلم باللغة العربية التي توفّر هذا كله في سورة الزمر: ﴿**قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لعلَّهم يتقون** ﴾ [الزمر : 28].

ولوْ تابعنا جميع الآيات؛ لوجدنا ظلاً ممتداً إلى ظل، وسِراً موصولاً بسر، مؤكداً أهمية اللسان العربي في فهم الخطاب القرآني، والنور المنبعث عن شمس العِلم الإلهي.

إنَّ في اختيار اللسان العربي[1] ليكون أداة التوصيل، ووسيلة الإبانة، ووعاء التفكير للرسالة الخاتمة الخالدة ـ التي تنتظم جميع شؤون الحياة، وتستجيب لمشكلاتها ـ

(1) **في شرف العربية، (كتاب الأمة)**، العدد الثاني والأربعون ـ الدوحة.

قضية ذات أبعاد لغوية، وثقافية، وعلمية، وحضارية؛ حيث لم يعد ينكر اليوم، علاقة التعبير بالتفكير، ودور التعبير في التفكير والإبداع الأدبي والعلمي، والمحاكمات العقلية. لذلك فمجرد اختيار (العربية) لتكون لغة الله ـ سبحانه ـ في مخاطبة البشر في النبوة الخاتمة، التي انتهت إليها أصول الرسالات السماوية كافة، والتي تحددت مهمة الرسول الكريمﷺ فيها، بالبلاغ المبين، يعني امتلاكها هذه الأبعاد جميعاً. قال تعالى: ﴿**فإنما عليك البلاغ المبين**﴾ [آل عمران: 20]. ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِين**﴾ [النور : 54].

أجـل. فاختيار (العربيـة) لتكون لغة التنزيل للخطاب السماوي، أوْ لتكون لغة خطاب الله الأخير إلى البشر، له دلالات كثيرة، فإذا سلَّمنا أنَّ من مقتضى (الخاتمية) أوْ من لوازمها (الخلود) ـ والخلود يعني التجرد عن قيود الزمان والمكان، والقدرة على العطاء والإنتاج العلمي والمعرفي، في كل زمان ومكان ـ أدركنا خلود اللغة العربية، وسعتها، ومرونتها، وغِنى مفرداتها، وكثرة مترادفاتها، التي تمتلك التعبير عن كل حالة شعورية، ولا يضيق لفظها عن استيعاب أيّ معنى، ولا يضيق سلُّمها الصوتي عن النطق بأيّ حرف، مهما كان معقداً في اللغات الأخرى. فضلاً عن قدرتها على تقديم الأوعية التعبيرية، والاستجابة لكل الظروف والأحوال، التي يكون عليها الناس، والاستجابة للإنتاج الحضاري، في سائر العلوم والفنون، حتى يرث الله الأرض، ومن عليها.

وحسبنا أن نقول: إنَّ التنزيل الخالد، الممتد إلى نهاية الزمان، والذي وصف الله أبعاده ومداه، بقوله: ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً**﴾ [الكهف : 109]. وقوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾ [لقمان :27]. والذي كانت (العربية) وعاءه الخالد، هو الذي يجعلنا ندرك الطاقة التي تمتلكها العربية، والشرف الكبير، بجعلها لغة التنزيل.

ويجعلنا ندرك ـ أيضاً ـ التخاذل اللغوي والثقافي، الذي يعاني منه العرب والمسلمون اليوم، وكيف أنَّ المشكلة ليست في قدرة اللغة، وإنما في تخلف أهلها وعجزهم.

جديـر بالذِّكر؛ أنَّ الإسلام لم يُقِم وزناً لقضية الأجناس، والألوان، والأقوام، ولمْ يعتبرها وسيلة تفاخر وتفاضل، فهي مجرد فوارق قسرية، ليس من المقبول عقلاً أن تكون ميزان تمييز وتفاضل، ولو كان ذلك كذلك لكان الظلم عينه، وصارت وسيلة للصراع والاقتتال.

وعلى الرغم من أن الإسلام لم يُقم وزناً لهذه الفوارق القسرية كلها، إلاَّ أنه لم يتنازل عن قضية (العربية)، لأنَّ اللغات مكتسبة، وتعليمية، ولابدَّ منها لصيانة الأمة الواحدة، وتشكيل أوعية متجانسة للعقيدة الواحدة، التي تحفظ روح الأمة، وتعبِّر عن إرادتها.

وقد بدا التطبيق العملي لهذا في حياة المسلمين (من غير العرب) فلم يعتبر أحدهم أن بإمكانه الاستغناء عن العربية، والاقتصار على ما يفهم من الإسلام بلغته الإقليمية، بلْ كانت (العربية) غاية مناه، ووسيلة فهمه لإسلامه وعقيدته؛ فظهر منهم مؤلِّفون، وعلماء، ومفسِّرون، ونحويون، ومؤرخون، أدركوا من مدلولات الخطاب ما أدركه العرب أنفسهم، بلْ وصلوا إلى مرتبة الإمامة في اللغة، والفقه، والتفسير، والحديث، وما إلى ذلك من العلوم، التي لا تتوفر إلاَّ لمن أتقن العربية وعلومها. وهذا ما سنعرفه عند الحديث عن "علمـاء اللغة ومؤلفاتهم".

نعـم. لمْ يتنازل الإسلام عن أمر (اللغة) لأنها الميثاق الجامع، والصعيد المشترك، والقاعدة الثقافية والفكرية، والحصن العقلي للأمة، ووسيلتها إلى الترقِّي والنهوض .. فالله - سبحانه ـ خلق أول ما خلق (القلم). وجاء في الإنجيل: (في البدء كان الكلمة). وكانت أولى التعاليم السماوية، بعد الخلق الأول: تعليم الأسماء (وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلها). وبدأت الرسالة الخاتمة بكلمة (اقـرأ). والعربية اللسان، وليست الجنس ولا الجغرافيا.

من هنـا نعلـم؛ أنَّ (اللغة العربية) أحد مقومات الأمة، بلْ هي المقوم الأساس، لأنها سبيل توصيل العقيدة، والانفعال بها، وصياغة الأمة، وتنظيم نمط تفكيرها، وإعادة بناء نسيجها، وحماية ذاكرتها، وبناء سياجها الثقافي، والحيلولة دون اختراقه.

بلْ إنَّ حماية (العربية) والدفاع عنها؛ حماية للعالَم كله، ودفاع عن إحدى أدوات تفكيره - أوْ على حد قول عبـاس العقَّـاد: «من واجب القارئ العربي إلى جانب غيرته على لغته، أنْ يذكر أنه لا يُطالِب بحماية لسانه فحسب، ولكنه يطالِب بحماية العالم من خسارة فادحة تصيبه، بما يصيب هذه الأداة العالمية من أدوات المنطق الإنساني، بعد أن بلغت مبلغها الرفيع من التطور والكمال. وإنَّ بيت القصيد هنا أعظم من القصيد كله، لأنَّ السهم في هذه الرمية يسدَّد إلى القلب ولا يقف عند الفم واللسان، وما ينطق به في كلام منظوم أو منثور».

أيّ اللُّغات أولى بالحماية؟

يرى علماء الاجتماع، أنَّ دراسةَ لغةٍ مَا وممارستها، تعني دراسة ثقافة أهلها وأفكارهم؛ لأنَّ (اللغة) ليست مجرد ألفاظٍ للتفاهم بين الأفراد، وإنما هي وعاء يحوي مكونات وجدانية، ومعتقدات. فتعلُّم أيِّ لغة لا ينفك عن تعلُّم ثقافة أهلها وأفكارهم ومعتقداتهم، وكذا الإلمام بأيّ ثقافة يستلزم الإلمام باللغة التي تمثّل تلك الثقافة.

بلْ إنَّ دراسة أيّ لغة يمكن أن تسيطر على فكر دارسها وروحه، وتؤثر على لغته الأم.

وفي ذلك يقول د. زغلول النجار: إنَّ "المتخصصين الذين ينهمكون في التدريس والبحث والتأليف والنشر بلغات أجنبيَّة، ينعزلون تدريجيًّا عن مجتمعاتهم، حتى يصبحوا غرباء بين أهليهم وعشائرهم ـ على غير قصد أوْ تخطيط منهم ـ مما يؤدي إلى تفكيك روابط المجتمعات وحجبها عن أصحاب الفكر والرأي حتى يتمّ تحلّلها".

وقد تنبَّه المسلمون ـ منذ وقت مبكر ـ إلى هذه الحقيقة؛ حقيقة تأثير اللغة بألفاظها. لذا؛ حرصوا على تسمية المواليد بالأسماء الحسنة، بلْ دعوا إلى تغيير الاسم غير الحسن إلى اسم حسن، حتى ولوْ كان صاحبه قد عُرِفَ به ونشأ عليه فيما ذهب من حياته. والسبب؛ أنَّ الأسماء ليست مجرد كلمات جوفاء، فاللغة عموماً وعاء القيم الثقافية التي تعيشها الأمة.

وفي هذا الصدد؛ يقول شاعر صَقَلية «أجنازيا بوتينا» في قصيدة له بعنوان «لغة وحوار» :

ضع شعباً في السلاسِل .. سُدَّ أفواهَهم
جرِّدهم من مَلابِسهم .. وجَوازات سفرِهم
لكنَّهم ما زالوا أحراراً
والمِوائد التي يأكُلون عليها
والأسِرَّة التي يَنامُون عليها
لكنَّهم ما زالوا أغنياء
إنَّ الشعب يفتقر ويُستعبَد

عندما يُسلَب اللسان الذي ترَكَه له الأجداد
وعندئذٍ يضيع للأبد.

يبدو أنَّ هذه «القصيدة» أيقظت الأوربيين، وألهبت حماستهم؛ فاتفقوا على أن يجعلوا يوم «السادس والعشرين من سبتمبر» من كل عام؛ يوماً قومياً أوربياً خاصاً بحماية اللغات الأوربية، من المهاجرين الوافدين من دول العالم الثالث. [1]

وقالت «المفوضية الأوربية» التي أطلقت على هذا اليوم اسم European day of language إنه من الواجب الوطني على الأوربيين حماية لغاتهم من الجيل الأول والثاني من المهاجرين الذين لا ينطقونها بشكل سليم؛ ما يشوّه اللغات الأوربية، حيث لعب الهنود والباكستانيون والبنغاليون والصينيون والفلبينيون والإيرانيون وغيرهم دوراً في تشويه اللغات الأوربية، لأنهم لا ينطقون حروفها بدقة، ما يؤثر على سلامة اللغات الأوربية مع مرور الزمن.

وتقول مجلة The Monitor إنَّ هناك اتجاهاً لدى الأوربيين أن لا يسمحوا لأيّ أجنبي أن يأخذ (تأشيرة) لبلادهم إلاَّ بعد أن يجتاز امتحان اللغة من المعاهد البريطانية والألمانية والفرنسية المنتشرة في معظم أنحاء العالم.

هذا؛ ويقول المشرفون على المركز الأوربي لحماية اللغات الأوربية : إنَّ الشعوب الأوربية بدأت تتخوف على لغاتها من المهاجرين إليها، حيث ينقل هؤلاء المهاجرون إلى أوربا ثقافتهم ولغاتهم، ومع مرور الوقت يؤثر ذلك سلباً على الأجيال المقبلة، خصوصاً أنَّ 92 % من اللواتي يعملن في مجال حضانة الأطفال وخادمات ومربيات من الهند وباكستان والفلبين وغيرها من دول جنوب شرقي آسيا. ولأنَّ هذه الشريحة من المجتمع لا تنطق اللغات الأوربية بطريقة جيدة، فإن الأطفال الأوربيين سيتأثرون سلباً بالعاملات في هذا المجال، ما سيخلق جيلاً من الأطفال الأوربيين الذين يخلطون بين لغتهم وثقافتهم الأوربية ولغة وثقافة المربيَّة القادمة من جنوب شرقي آسيا.

ويقولون ـ أيضاً ـ : إنَّ الهدف من تخصيص يوم لحماية اللغات الأوربية؛ هو تذكير الأوربيين بأنَّ لغاتهم مهددة بالخطر، وعليهم الحذر من المربيات القادمات من آسيا.

ويؤكدون أنَّ لديهم الكثير من الأفكار والطرق التي سيحمون بها لغاتهم، وإنهم من عام 2015م لنْ يسمحوا باستخدام خادمة أوْ مربية أطفال أوْ حتى حرفيين من

(1) مجلة **التبيان**، القاهرة. العدد 128 ربيع أول 1436هـ.

الدول الأجنبية، إلاَّ بعد خضوعهم لامتحان لغة، فالذي يريد أن يعمل في بريطانيا عليه إتقان اللغة الإنجليزية كما ينطقها الإنجليز، وليس كما ينطقونها هم. وكذلك من يريد أن يعمل في فرنسا أوْ إسبانيا أوْ ألمانيا، أوْ غيرها من الدول.

من جانبها؛ ذكرت (الأمم المتحدة) أنَّ من حق أيّ شعب الحفاظ على لغته دون المساس بها من الآخرين، وأنَّ الأوربيين لديهم الحق في البحث عن وسائل يحمون بها لغاتهم من الوافدين إلى بلادهم، وأن هذا لا يشكِّل نظرة عنصرية، بلْ حق مشروع لأيّ دولة.

وقال بيان الأمم المتحدة: إنَّ العالم اليوم به أكثر من (6000) ستة آلاف لغة، وأنَّ 95 % من هذه اللغات لا ينطقها ولا يستخدمها سوى 6 % من الناس. ولأنَّ العالم أصبح يتقارب الآن بشكل كبير، وزالت الحواجز بين القارات، فإنَّ اللغات الضعيفة، سوف تندثر، ولنْ يبقى حتى نهاية القرن الحادي والعشرين سوى اللغات القومية، والتي لن يتجاوز عددها 6-8 لغات.

من هنا؛ بدأت الدول الأوربية تبحث عن طرق حديثة للحفاظ على لغاتها، ولهذا حددت يوم "السادس والعشرين" من شهر سبتمبر من كل عام؛ يوماً خاصاً بحماية اللغات الأوربية.

على جانبٍ آخر؛ هناك تجارِب لدول معاصِرة، أدركت أهميَّة «اللغة» في المحافظة على شخصيَّتها، فاتَّخذت خطوات إيجابيَّة في سبيل المحافَظة على لغتها، أوْ إحيائها وتوظيفها في الحياة العلمية والعملية؛ ممَّا ترتَّب عليه إحياء شخصيَّة الأمَّة والمحافظة على قوَّتها.

بحسب أنْ نُشِير إلى تجربتَيْن مرتبطتَيْن بإحياء اللغة المرتَبِطة بإحياء الهويَّة أوْ المحافظة على القوَّة؛ وهما: التجربة العِبريَّـة، والتجربة الفرانكفونيَّـة.

التجربة العِبرية

بدأَتْ (التجربة العبرية) في أواسط القرن التاسع عشر، حين كان اليهود مُوَزَّعين على أكثر من مائة دولة في العالم، وتتحدَّث كلُّ جماعةٍ منهم لغة البلد الذي تَعِيش فيه، ولا تُوجَد اللغة العِبريَّة إلاَّ في بيوت العِبادة، وفي بعض عِبارات التخاطُب والمجامَلة، وكانت تُعتَبَر لغة دينية ميتة، وعندما بدأَتْ فكرة إقامة وطنٍ لليهود رفَع أحد مُفَكِّرِيهم؛ وهو «إليعازر بن يهوذا» شِعارًا هو: «لا حياة لأمَّة بدونَ لغة». وقرَّر

أن يسعى لكيْ يجعل من العِبريَّة لغة حيَّة على مستوى الكتابة وتدوين المعرفة والتخاطُب في الحياة اليوميَّة، وبدا هذا الهدف عند اليهود أنفسهم صعباً إنْ لم يكن مُستَحيلاً، لكنَّه تمسَّك بفكرته رغم سخرِيَة أصدقائه منه، وقرَّر الهجرة إلى فلسطين سنة 1881م مع أسرته، وأنشأ أول بيت يهودي تُفرض فيه «العِبرية» لغةً للتخاطب والحديث في كلِّ شؤون الحياة، وظلَّ متمسِّكًا برأيه عامِلاً على إنجاحه أربعين سنة متصلة؛ فقد أسَّس رابطة للمتكلِّمين بالعِبرية في فلسطين، وصارت داره منتدى يتم الحديث فيه بالعِبرية، وأصدر صحيفة بالعِبرية، وجعل جزءًا منها مُخصصًا للأطفال، وحرص على أن يُسمِّي أبطال قصصهم بأسماء عِبرية، وعكف على تأليف قاموس كبير للغة العِبرية، بالاستعانة بالتراث اليهودي واللغات السامية، وابتكار مصطلحات جديدة في كل مجالات المعرفة، فاستطاع أن ينجز منه تسعة أجزاء، وأكمله تلاميذه إلى ستة عشر مجلدًا، وأثمرت دعوته؛ فانتشرت المدارس العبرية في فلسطين، وامتدَّ التعلُّم والتأليف بالعِبرية إلى كل المناهج، ثم امتدَّ إلى الجامعات التي تُدرِّس كل موادها بما في ذلك الطب والهندسة والعلوم بمختلف ألوانها بالعِبرية، وتُعقد فيها المؤتمرات على أعلى مستوى بهذه اللغة، مع الاستفادة من تعلُّم اللغات الأخرى؛ لأنهم يُدركون جيدًا الفرق بين تعلُّم اللغات الأجنبية ـ وهو أمر مطلوب وضروري لكلِّ حضارة وتقدُّم- وبين التعلُّم باللغات الأجنبية ـ وهو أمر يقَضِي على الشخصية واللغة القومية على المدى البعيد- ولا يُساعد كما يقول الباحثون على توطِين المعرفة لدى الأمة.

وقد امتدَّت تجربة اللغة العِبرية إلى كل مناحي الحياة؛ الاقتصادية والاجتماعية، والفنية والسياسية، فأصبحت المؤتمرات تُعقَد بها، وتكتب لافِتات المَتاجِر والأماكن العامة والمنتديات بها، والمسئولون يُلقُون كلماتهم في أيِّ دولة أجنبية بها، وبهذا الجهد الخارق استَطاع اليهود أن يحيوا لغتهم من العدم، وأن يحيوا هم بهذه اللغة، ويتشكل لهم كِيان وإن كان مزيفاً وهوية مصطنعة.

تجرِبة إنعاش الفرنسية

لقد تمَّ التخطيط لها بعد التغييرات السياسية التي حدثت بعد الحربيْن العالميتيْن، والتي تراجعت بمُقتضاها مكانة الإمبراطورية الفرنسية لصالح القوة الأمريكية المتعاظمة، وأصبح نفوذ اللغة الفرنسية الذي كان سائدًا في كثيرٍ من أرجاء العالم، مُهددًا بالانحِسار، فتشكلت في النصف الثاني من القرن العشرين، «رابطة الفرانكفونية» من الدوَل التي تتحدث الفرنسية، وشكلت مؤسسات علمية ترعى الفرنسية في العالم، وتتابِع المتكلِّمين بها، وتبحث عما يعترضهم من مشاكل في سبيل المحافظة على لغتهم الأصلية أو

المكتسَبة، وتعقد المؤتمرات التعليمية والثقافية والعلمية بالفرنسية في مختلف البلدان، وترصد استخدام وسائل الإعلام لها، لتقدِّم التوصيات بعدم شيوع الأخطاء في اللغة.

وتضمّ مؤسسة الفرانكفونية في عضويتها كثيرًا من الرؤساء وكبار المسئولين والوزراء في الدول الناطقة بالفرنسية، ومن خِلالها يتِمّ تنسيق جهودهم جميعًا لحماية الفرنسية، والعمل على المزيد من الانتشار والصحة والحيوية لها.

فـي المقابـل؛ هل فكرت (الدول العربية) في الحفاظ على كيانها من سطوة اللغات الأجنبية الوافدة؟ هل اتخذتْ أيّ إجراءات لوقف زحف اللهجات الأجنبية على أراضيها؟.

كلاَّ؛ بلْ إنَّنا نشهد غزواً سافراً من اللغات الأجنبية، دون أيّ رد فعل إيجابي.

بلْ إنَّ كثيراً من وسائل الإعلام؛ تتهاون في استعمال العربية، حتى إنَّ كبار الإعلاميين -من أسف- يُبرِّرون أخطاءهم؛ بحجَّة أنهم ليسوا من رجال اللغة.

ناهيك عن كثير من البنوك والمصارف المالية، وكثير من الأنشطة التجارية والعلمية والثقافية، لا تتعامل إلاَّ باللغات الأجنبية، وتتخذ العربية وراءها ظِهرياً.

ليس هذا فحسب؛ بلْ شهدتْ الحقبة الأخيرة موجة عاتية من التغريب، تحمل في طياتها «مؤامرة» تستهدف محو الأسماء والرموز والعلامات العربية، واستبدال مسميات أجنبية بها، خاصة أسماء الشوارع والميادين والمؤسسات والمدارس والمحلات، ومختلف المنتجات، وسائر الأنشطة المعيشية.

ولا عجب أن يسير المرء في بعض الأحياء والمدن والعواصم العربية، فيخيَّل إليه أنه يمشي في لندن أوْ باريس أوْ نيويورك، نظراً لشيوع اللغات الأجنبية، وهيمنة الرطانات الوافدة.

ومن لا يعرف لغات أجنبية؛ قد يجد حرجاً شديداً حين تسوقه الأقدار إلى تلك الأماكن.

ليس هذا فحسب؛ بلْ إنَّ الكثير من الطلاب ـ لاسيما في المدارس الخاصةـ لا يتعلمون العربية، وفي مدارس أخرى يطلقون عليها (Option lang أيْ لغة اختيارية)، فمن يريد أن يتعلمها له ذلك، ومن لا يريد له ذلك أيضاً، كما أنَّ الرسوب فيها أوْ النجاح؛ لا يؤثر على النتيجة النهائية؛ لأنَّ درجاتها لا تضاف إلى المجموع العام أصلاً، لذا فهي لغة مهملة في معظم المدارس الخاصة.

ليس هذا فحسب؛ بلْ إذا أضفنا 4000000 (أربعمائة ألف) عاملة ومربية فلبينية وإثيوبية وإندونيسية وسيرلانكية في بلد عربي ما، ونصف مليون في لبنان، وما يزيد على مليون من تلك الجنسيات في مصر، وملايين أخرى في منطقة الخليج العربي، إضافة إلى ملايين الهنود والباكستانيين والصينيين وجنسيات أخرى، يجوبون البلاد العربية ليل نهار؛ سنعرف مدى الخطر الذي يهدد لغة الضاد.

ليس هذا فحسب؛ بلْ صدر ـ أخيراً ـ تقرير "منظمة العمل الدولية" التابعة للأمم المتحدة؛ وذكر أنَّ الدول العربية فيها نحو 24 مليون عامل ومربية وموظف في سوق العمل من الهنود والباكستانيين والفلبينيين والصينيين والإثيوبيين، وطالب التقرير بفتح مدارس لهذه الجاليات في البلاد العربية التي تستضيفهم؛ كيْ تحافظ على لغاتها ولهجاتها، وثقافاتها.

هكذا يبكون، ويتباكون على لغاتهم، والعربيــة لا بواكِــيَ لهــا.

تاريخ العربية وتطورها

انشغل العلماء والفلاسفة والمؤرخون والباحثون في استقصاء جذور اللغات وتاريخها؛ وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، فريق منهم ذهب إلى أنَّ **(العربية)** هي أصل اللغات، وبقية اللغات انبثقت منها في صور لهجات؛ تحولت بعد ذلك إلى لغات مستقلة، تقترب من بعضها في الكتابة أوْ في النطق.

وقد لاقت هذه الرؤية قبولاً في بعض الأوساط المتديِّنة؛ استناداً للآية الكريمة: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ....** ﴾ [البقرة :31]. باعتبار أنَّ الأسماء في هذه الآية تعبير عن المقدرة اللغوية عبر العصور، غير أن العلماء الذين يعتمدون البحث العلمي مازالوا ينقِّبون عن الحقيقة بين أطلال الحضارات ومجاهيلها حتى عثروا على أبجدية "أوغاريت" على الساحل السوري، وشهدوا بأقدميتها على ما سبقها من كشوفات.

ثمَّ وقفوا على كتابات أثرية في مملكة **(ايبلا)** شمال سورية، مكتوبة بحروف عربية، ثبت أنها أقدم من الكشوفات الهيروغليفية والفينيقية.

ومن النقوش العربية القديمة: نقْش **«عجل بن هفعم»** الذي عُثِر عليه في الفاو (قرب السليل) في المملكة العربية السعودية، وقد كُتِبَ بالخط المسند، ويعود إلى القرن الأول قبل الميلاد.

وكذلك نقْش «عين عبدات» في صحراء النقب، ويعود تاريخه إلى القرن الأول الميلادي، وقد كُتِبَ بالحرف النبطي القريب من الخط العربي الحالي.

ومن النقوش العربية، نقش «النمارة» الذي اكتشف في الصحراء السورية، وهو نص مؤرخ بتاريخ 328م، ومكتوب بنوع من الخط النبطي، وهو عبارة عن رسم لضريح ملِك الحيرة «امرئ القيس بن عمرو» وصِفَ فيه بأنه **«ملِك العرب»**.

ومن النصوص الأثرية التي ورد فيه اسم العرب **(اللوح المسماري)** المنسوب للملك الآشوري **«شلمنصَّر الثالث»** في القرن التاسع قبل الميلاد، ذكر فيه انتصاره على تحالف ملوك آرام ضده بزعامة ملك دمشق، وأنه غَنِمَ ألف جمل من جنديبو من بلاد العرب.

وأكدَّ علماء اللغات: أنَّ كلمة (عرب) موجودة في القصص والأوصاف اليونانية والفارسية، وكان يقصد بها أعراب الجزيرة العربية، ولم يكن هناك لغة عربية معينة، لكن مجموع اللهجات التي تكلمت بها القبائل سمِّيت لغات عربية، نسبة إلى الجزيرة العربية.

وقد وجد في أحد متاحف باريس لوحة منقوشة بالعربية، اكتشفت في قرية (جلوزل) الفرنسية، تعود إلى عشرة آلاف سنة؛ أيْ قبل العصر الذي يسمونه بالعصر الحجري الحديث.

وليس رجماً بالغيب إذا قلنا : إنَّ المستقبل سيكشف عن أبجديات أكثر إغراقاً في القِدم بعد أن تأكد وجود آثار حضارية في أعماق المحيط الأطلسي؛ مما يثبت أن تلك الأعماق كانت في سالف العصور، قارة آهلة بالناس والحضارة، قبل أن تصير تلك المعالم قاعاً للمحيط.

على جانب آخر؛ يرى المتخصصون في اللسانيات؛ أن تعدد اللغات وضعٌ طارئ عرضي، إذْ إنَّ التطور البشري اقتضى تطور اللسان، وتداخل اللغات أدى إلى هذه الكثرة؛ إذْ تتلاقح لغتان أوْ أكثر فتنتج من هذا التلاقح لغة ثالثة، ومنها ومن غيرها لغة رابعة، وهكذا.

أمَّا «المعجميُّون» فقد أكدُّوا أقدمية العربية على غيرها، مستدلِّين بالحديث الشريف، الذي رواه أبو ذر عن رسول الله ﷺ [1] (**خمسة أنبياء من العرب: محمَّد وإسماعيل وشعيْب وصالح وهود**). وهذا الحديث النبوي؛ أفاد بأنَّ العربية أقدم من النصوص الوثائقية المعروفة بالأدب الجاهلي.

لذا؛ قال ابن دحية [2] : العرب ثلاثة أقسام :

الأول : عاربة وعرباء وهم الخلَّص، وهم تسع قبائل من ولد إرم بن سام بن نوح، وهي: عاد وثمود وأميم وعبيل وطسم وجديس وعمليق وجرهم ووبار، ومنهم تعلم إسماعيل العربية.

الثانـي : المتعربة، وهم الذين ليسوا بخلَّص، وهم بنو قحطان.

الثالـث : المستعربة وهم الذين ليسوا بخلَّص أيضاً، وهم بنو إسماعيل، وهم ولد معد.

---

(1) رواه ابن حبَّان في صحيحه.

(2) **روح المعاني** للألوسي، جزء 12، صفحة 172.

ومما يدلُّ على أقدميتها المطلقة قول النبيّ ﷺ : (**أحبُّوا العرب لثلاث: لأنّني عربي، والقرآن عربي، ولغة أهل الجنّـة عربية**) [1].

وعلى رأي جمهور العلماء العرب والمسلمين؛ إنَّ العربية هي (**اللغة الأم**) وهي لسان أهل السماء، وبها كان يتنزَّل الوحي على أصحاب الرسالات، فيترجم كل رسول ما أوحيَ إليه إلى لغة قومه، مستدلِّين بالآية الكريمة : ﴿ **وما أرسلنا من رسولٍ إلاَّ بلسان قومه ليبيِّن لهم** ﴾.

وفي رسائل إخوان الصفا: أنَّ الله ألهم العباد الاهتداء إلى اللغة، فهي توقيف مباشر، وربطوا قضيتها بالبرهان على وجود الله بوصفه معلم كل شيء، والإنسان عند هؤلاء كائن متميز بالنطق، وعلاقته بالكلام علاقة طبع واقتضاء؛ بمعنى أن الكلام ملازم لوجوده منذ كان في عالم الأرواح لمَّا أشهد الله الذرية على أنفسهم ﴿ **ألستُ بربكم؟ قالوا بلى...**﴾.

هذا؛ وقد أثبتت دراسات علمية حديثة أنَّ «العربية» هي (**أم اللغـات**) التي تعرف باللغات الأعرابية (أيْ التي نشأت في شبه جزيرة العرب: حميْرية وبابلية وآرامية وعبرية وحبشية)، اختارها الله لتكون لسان دينه ورسالاته، وقد تميزت بنموها السريع وتطورها العجيب، وحملت معها بركة النبع الأول للإنسان، برعاية ربانية حتى بلغت ذروة كمالها بنزول الوحي بها على النبيّ العربي الخاتم، وكأنَّ الوحي الكريم يشير إلى بركة التاريخ وبركة المصدر، وبركة النبع الأول، ليرتبط ذلك كله ارتباطاً يقف دليلاً وشاهداً على عظمة هذه اللغة وقداستها.

وبذلك تسقط مزاعم المستشرقين؛ بأنَّ تعدد اللغات يرجع إلى أبناء نوح الثلاثة (سام وحام ويافث) الذين استوطنوا أماكن مختلفة من الأرض -كما يقول عالِم اللغات/ «ماريو بِلْ» في كتابه (**تاريخ اللغات The Story of Language**)، إذْ لا يعقل أنْ ينشأ ثلاثة أخوة في بيت واحد، ويتكلمون ثلاث لغات. ولماذا اختاروا العيش متفرقين في قارات مختلفة، في ذلك الوقت المبكر من التاريخ؟. بلْ من أين أتى العنصريون بتلك المزاعم التي لا تستند إلى أيّ دليل علمي، أوْ برهان عقلي»؟.[2]

(1) أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي وآخرون عن ابن عباس.

(2) **تاريخ اللغات**، ماريو بِلْ، ترجمة سامي خليل، دار المعرفة، دمشق، 1996م.

وقد كان المستشرق «شلوتسر» هو أول من تزعم ذاك الرأي، مستنداً إلى جدول تقسيم الشعوب الموجودة في «التوراة». لكنه نسيَ أنَّ أسفار «العهد القديم» لمْ تتحدث عن الحضارات التي نشأت بأرض العرب بعد «الطوفان»؛ كعاد، وثمود، ومديَن.

لذلك أنكر اليهود أنبياء العرب؛ كـ(هود، وصالح، وشعيب) بحجة أنَّ «التوراة» لم تتحدث عنهم.

هذا؛ وقد أثبتت دراسات أخرى؛ أنَّ (العربية) فرع من **«لغة المسند»**، انتشرت في شمال الجزيرة العربية وجنوبها، فـ **«لغة ثمود»** فرع من العربية، وكذلك **«لغة عاد»**، و**«لغة مديَن»**. وقد امتدت هذه اللغة إلى بلاد الشام مع القبائل العربية المهاجرة، وإلى العراق.

وفي دراسة علمية، بعنوان «اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام» للباحث أحمد حسين شرف الدين، يقول[1] : إنَّ أبجدية **«اللهجة الثمودية»**، وأبجدية **«اللهجة الفينيقية»** متشابهتان، مما يشير إلى أنهما من موطنٍ واحد، هو موطن شعوب الجزيرة العربية، وأن اللغة الفينيقية هي أم اللغات اللاتينية، ومن ثمَّ يعود أصل جميع اللغات إلى جذور اللغة العربية.

وهذا يؤكد ما أثبتته بعثة فرنسية عام 1951م في شمال الجزيرة العربية، وهي المنطقة التي تعرف بـ(مدائن صالح ﷺ)؛ حيث اكتشفت نقوشاً حجرية وبقايا مساكن صخرية مهدومة مكتوبة بالحروف العربية؛ مما يدل على أن لغة قوم ثمود هي العربية.

وفي عام 1962م عثرت بعثة ألمانية على نقوش عربية بجبال(الأحقاف) باليمن، منطلق دعوة سيدنا (هـود ﷺ)، وهم قوم عاد الأولى، الذين ذكرهم القرآن في مواضع كثيرة. [2]

ومعروف أن قوم (عـاد) هم أول من سكنوا الأرض بعد الطوفان، فآباؤهم وأجدادهم ممن كانوا مع نوح في السفينة. وسيدنا (نـوح ﷺ) قريب العهد بأبي البشر(آدم) سلام الله عليه.

لعلَّ هذا الأمر؛ يعضِّد مذهب القائلين: بأنَّ اللغات كلها نشأت من أصل واحد، تلك اللغة التي كان (أبو البشر) يُحدِّث بها زوجه وأولاده، ثمَّ توارثت في ذريته.

---

(1) **اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام**، أحمد حسين شرف الدين.

(2) جريدة **الزمان**، ميشال أمين، لندن، 2008/3/1 م.

وقد اتجه البعض ليثبت أنَّ أصل اللغة «الإنجليزية» هو العربية؛ لوجود مفردات كثيرة لها أصول عربية ... فالدكتورة تحيّة عبد العزيز إسماعيل- في كتابها : **«العربيّة الفصحى أمّ اللغات الهندية والأوروبية وأصل الكلام»** الذي نشرته باللغة الإنجليزية، قالت : إن بحثها هذا هو خلاصة جهد استغرق عشر سنوات. وأكدتْ أنَّ 80 % من أفعال اللغة السكسونية عربية الأصل، وأنَّ 75 % من أفعال اللغة اللاتينية عربيّة الأصل أيضاً.[1]

لا جرم أنَّ البحث والتنقيب عن تاريخ «اللغة العربية» لم يبدأ إلاَّ منذ عهد قريب نسبياً، ربما مع بداية موجة الاستشراق. فقد زار جنوب الجزيرة العربيّة المستشرق الدنماركي «كارستن نيبور» سنة 1761م، وجاء المستشرق الفرنسي «جوزيف توماس آرنود» سنة 1843م، وبعده المستشرق الفرنسي «جوزيف هاليفي» سنة 1869م، ثمَّ المستشرق النمساوي «إدوارد جلازر» سنة 1882م. كما زار شمال الجزيرة العربية المستشرق البريطاني «تشارلز دوتي» سنة 1877م، وتلاه المستشرق الفرنسي «تشارلز هوبر» سنة 1884م، ثمَّ الفرنسيان «جوسن» و«سافيناك» سنة 1907م، وبعدهما الإنجليزي «أويس موسل» سنة 1910م.

وكان القنصل الألماني في سورية «ج. ويتزتن» أول من اكتشف نقوش اللغة **الصفائية** (النسبة إلى الصفائيين العرب) سنة 1858م جنوب شرقي دمشق، ثمَّ درسها وكتب عنها العالم البلجيكي «ريني دوزود» في كتابه: **«العرب في سوريا قبل الإسلام»**.

هكذا توالت وفود المستشرقين نحو جزيرة العرب، تحت أهداف مختلفة، ونشطت الجامعات الغربية في القرن العشرين، مثل: جامعة «هوبكنز» الأمريكية، ومعهد «سميشونيان» بواشنطن، وجامعة تورنتو، وجامعة لندن، ومتحف «آرهاس» الدنماركي، وغير ذلك.

ثمَّ أخذت الأبحاث الاستشراقية تتوالى، والدراسات تمتدّ، والحفريات عن التاريخ تزداد في أرض العرب، فصدر للمستشرق الإيطالي «إغناطيوس غويدي» كتابٌ سنة 1934م، بعنوان: **«المختصر في لغة حميَر»**.

وقد أصدرت جامعة القاهرة عدداً من النشرات عن النقوش المعينيَّة والسبئيَّة.

---

(1) **العربية بين مكر الأعداء، وجفاء الأبناء**، عدنان النحوي، الرياض، 2008م.

وصدر لأحمد حسين شرف الدين كتاب عن «لغة المسند» سنة 1968م، ثمَّ صدرت له كتب أخرى حول هذه الموضوعات مثل كتاب: **«اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام»**.

يقول أحمد شرف الدين: تعد جذور اللغة العربية هي جذور (اللغات السامية) ـ السامية هي اللغة الأصلية في الجزيرة العربية ـ وهي كذلك جذور (لغة المسند) وهي إحدى اللغات السامية. علماً بأنَّ اللغات السامية، هي: «الكنعانية والآرامية والأثيوبية والكوشية والأكادية». فالفصحى فرع من لغة المسند. وقد ازدهر هذا الفرع، وترعرع خلال القرون الثلاثة قبل البعثة النبوية الشريفة.

جدير بالذكر؛ أنَّ (لغة المسند) في الجزيرة العربية، لها عدة لهجات، كالآتي:

1. لهجات جنوب الجزيرة العربية :

أ. لهجة المعينية: لهجة منطقة الجوف باليمن قبل القرن الخامس عشر ق. م.

ب. اللهجة السبئية: لهجة شرق اليمن ما بين (القرن 15) ق. م حتى (5 بعد الميلاد).

ج. اللهجة الحضرميَّة: لهجة جنوب شرقي الجزيرة العربية، وما زال السكان هناك ينطقونها.

د. اللهجة القتبانيَّة: لهجة قبيلة القتباني التي كانت تسكن منطقة شرق اليمن، التي تعرف اليوم بـ «بيحان».

2. لهجات شمال الجزيرة العربية:

أ. المعينيّة الشمالية : لهجة القبائل التي نزحت من جنوب اليمن في عصور مبكرة، واستوطنت واحة الدادان التي تسمَّى حالياً «العلاء».

ب. الدادانيّة : لهجة مملكة عربية قديمة قامت بالعلاء، شمال غربي الجزيرة العربية، وقد نشأت قبل القرن السادس.

ج. اللحيانيّة : لهجة شعب اللحياني الذي كان يسيطر على الأرض الممتدة غربي النفود، من شمال يثرب إلى ما يحاذي خليج العقبة، من القرن الرابع ق. م حتى القرن الثاني بعد الميلاد.

د. الثمودية : لهجة قبيلة ثمود التي عاشت شمال الجزيرة العربية، من الجوف شمالاً إلى الطائف جنوباً، ومن الإحساء شرقاً إلى يثرب

وأرض مديَن غرباً، وفي المسالك المؤدية إلى العقبة والأردن وسورية، وحتى أرض حضرموت من جنوب الجزيرة العربية. ومن المحتمل أن يكون (الثموديون) يمثلون السكان الأصليين لشمال الجزيرة العربية. ولعلَّ القرآن الكريم خصَّهم بالذكر لهذا السبب، دون ذكر اللحيايين والدادانيين والأنباط وغيرهم.

٥. الصفائية : نسبة إلى «الصفائيين» العرب الذين أقاموا بجبل الصفا جنوب شرق دمشق، منذ القرن الثاني والثالث ق. م. وكان القنصل الألماني أول من اكتشف نقوشها سنة 1858 م.

ومن الطبيعي أن يطرأ على لغة «المسند» من التطور ما يمكن أن يطرأ على سائر اللغات، لاسيما بعد انتشارها في شعوب مختلفة كالأنباط العرب والآراميين.

وكان نتيجة نموّ نفوذ الأنباط وامتداده إلى مسالك التجارة في الشمال، أن قويت لغة «المسند»، وامتدت إلى سورية ولبنان وفلسطين والأردن والعراق، وازداد نموها وتطورها مع امتدادها ما بين القرن الثالث ق. م إلى القرن السادس بعد الميلاد، حتى بلغت العربية الفصحى أعلى مراحل نضجها .. فاختارها الله –سبحانه- لآخر رسالاته، ووحيه للعالمين.

أجل. لقد بلغت (العربيـــة) ذروة نضجها وتطورها في عصر نزول الوحي، بعد أن استقرَّت بياناً وقواعد، نثراً وشِعراً، حتى تظلَّ -لغة التنزيل- ثابتة القواعد والبيان، غنيَّة كل الغِنَى، ليظلَّ القرآن الكريم مُيسَّراً للذِّكر، مفصَّلاً بيِّنا للعالمين.

ولذلك توالت الآيات الكريمة التي تُلحُّ بأنَّ القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين.

ولولا استقرار «العربيــة» بقواعدها؛ لما كان تيسَّر القرآن على هذا النحو البديع.

وبالفعل؛ فمازالت قواعد البيان القرآني، ثابتة مألوفة في شتى أنحاء الأرض، على مدى العصور. بلْ تميّزت (العربية) بخصائص الاستقرار والصفاء، حتى يظلّ «القرآن» يحمل خصائص إعجازه، وخصائص بلاغته، وقوّة حجّته.

كما عرفت قواعدها صافية منذ بكور نشأتها، وعرفت نحوها وصرفها -كذلك- في أجوائها النقية، فعرفت المفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، وضمائر الغائب والمتكلم والمخاطب، واسم الإشارة والاسم الموصول، والاسم المعرَّف بالألف واللام، والضمير المتصل والضمير المنفصل وأنواعهما، واسم الزمان واسم المكان، والنعت، والأعداد، والمجرّد من الأفعال والمزيد، إلى غير ذلك، وأبصرهـم فسوف يبصـرون.

"الفصحى" لغة العرب أمْ لغة قريش؟

يعتقد علماء الأنثربولوجيا أنَّ اللغات القديمة كانت متشابهة إلى حد إمكانية التفاهم بها، فالإسرائيليون الذين عاشوا في التيه أربعين عاماً، تفاهموا مع جيرانهم إلى حد ما.

وزيارة الملكة بلقيس إلى النبيّ سليمان بن داود (ع)، والمكاتبات بينهما تمت دون ترجمة. ومثل هذا، يمكن أن يقال عن رحلات إبراهيم الخليل (ع) المتعددة إلى عدد من البلاد كالشام والعراق ومصر ومكّـة، مما يؤكد أنَّ إمكانية التفاهم في العالم القديم لم تكن مستحيلة. بالإضافة إلى رحلات العرب التجارية إلى جيرانهم، وإلى الهجرة الأولى لبعض المسلمين إلى الحبشة. فاللغات كلها ترجع إلى أصل واحد -كما ذكرنا آنفاً- فـ"العربية" كالأم التي أنجبت كثيراً من الأبناء، ثمَّ توزعوا في الأرض، واختلفت لهجاتهم تباعاً. والرأي السائد أنه كانت هناك جاهلية أولى وجاهلية ثانية، فالأولى تبدأ بابتداء البشرية حتى القرن الخامس الميلادي، والثانية تمتد من القرن الخامس الميلادي إلى ظهور الإسلام، وهي الفترة التي أوصلت لنا الشِّعر القديم، والتي يصل بها الجاحظ إلى مائة وخمسين عاماً، أوْ مائتين عام قبل الإسلام. وإنْ كان الذي وصل لنا قليل، عبَّر عنه أبو عمرو بن العلاء بقوله: "ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلاَّ أقله، ولوْ جاءكم وافراً لجاءكم عِلم وشِعر كثير".

وقد تعرض القرآن الكريم لهم في الفترتيْن الأولى والثانية، فالعرب لم يكونوا في عزلة عمن حولهم سياسياً واقتصادياً بالقياس إلى الأمم الأخرى، مما يترتب عليه التفاهم بنقاط الاتصال التي كانت بين اللغات القديمة، وفيما بينهم بلغة رئيسَة هي "لغة قريش"، وعدد من اللهجات. وإذا كانت العربية تعرف بلغة قريش، فذلك يرجع إلى مكانة القبيلة بين العرب، ولمكانة الرسول ﷺ منها. لكن يمكن القول: بأنها لم تدوَّن تدويناً واضحاً إلاَّ بعد مجيء الإسلام، فقد حضَّ الرسول ﷺ على القراءة والكتابة بالعديد من الأحاديث، وبمختلف الأساليب. وكان أن اتسعت دائرة (كُتَّاب الوحي) إلى دائرة تعرف باسم (القُرّاء)، وفداء الأسير في مقابل تعليمه لعشرة من الصبيان، بالإضافة إلى كُتّاب الرسائل والمعاهدات.

ولعلَّ المراد بـ"قرشية اللغة"، ليس إلغاءً لدور القبائل العربية الأخرى، فالمصطلح إسلامي وعاطفي -كما ذهب ابن فارس في كتابه **(الصاحبي في فقه اللغة)**، فقال : "كانت قريش مع فصاحتها، وحسن لغتها، ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم، فاجتمع مما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم، التي طُبِعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب، ألاَ ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس، مثل: تِعلمون بكسر التاء".[1]

ثمَّ إنَّ عملية التنقية والاختيار من لغات العرب، لم تكن فقط في موسم الحج، وفي أسواق العرب؛ التي كان العرب يتوافدون عليها للتسوق ولسماع الشِّعر والنثر، والحكم عليهما، فما تزال هذه الأسواق باللغة نخلاً واصطفاءً، حتى يتبقى الأنسب الأرشق، ويطرح المجفوّ الثقيل.

ومن المعروف؛ أنَّ قريشاً مع علوّ شأنها في الفصاحة، إلاَّ أنها لم يكن لها دور كبير في "الإبداع"، فالنصوص الأدبية الرفيعة لغير قريش، وقد علَّلَ "ابن سلَّام" هذا، بأنه لم يكن بينهم ثائرة ولمْ يحاربوا، كان هذا في الوقت الذي تعالت فيه أصوات المبدعين في أكثر من مكان، وبخاصة في إمارتيْ: المنذرة والغساسنة، بلْ إنَّ النحاة جعلوا للفصاحة حدوداً وأقواماً، ولم يقصروا الأمر على قريش، فالتركيز كان على (قيس، وتميم، وأسد، وطي، ثم هذيل) فهؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب.

أمَّا عن سِرّ فصاحة الرسول ﷺ وبلاغته؛ فقد أرجعها العلماء إلى أنه ولِد في بني هاشم، ونشأ في قريش، واستُرضِعَ في بني سعد، وتزوج من بني أسد، وهاجر إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج.

وقد حدَّد أبو حاتم السجستاني القبائل التي نزل القرآن بلغتها، وهي: (قريش، وتميم الرباب، والأزد، وربيعة، وهوازن، وسعد بن بكر).

وقد رُويَ عن الإمام عليّ بن أبي طالب أنه قال: **"نزل القرآن بلسان قريش، وليس بأصحاب نبر، ولولا أنَّ جبريل نزل بالهمز على النبيّ ما أهمزنا"**.

---

(1) **أهمية تعلّم اللغة العربية**، د.عبده بدوي، حوليات كلية الآداب، الكويت، الحولية السادسة عشرة، 1416 هـ.

لكن "ابن عربـي" يفرِّق بين القرآن المنزل على الألسنة والقرآن المنزل على الأفئدة، فيقول: "إنَّ الذي ينزل القرآن على قلبه، ينزل بالفهم، فيعرف ما يقرأ، وإنْ كان بغير لسانه، ويعرف معاني ما يقرأ، وإنْ كانت تلك الألفاظ لا يعرف معانيها في غير القرآن، لأنها ليست بلغته، ويعرفها في تلاوته، إذا كان ممن ينزل القرآن على قلبه عند التلاوة".

لغة الضاد أمْ لغة الظاء؟

(لغــة الضــاد) هو الاسم الدارج، والموصوفة به اللغة العربية. وقد اتفق طائفةٌ من المتقدِّمين؛ بخصوصية حرف (**الضـاد**) بالعرب، دون سائر الأمم. وقد أطلقوه على لغتهم، فيما نَفَتْ طائفة أخرى ذلك، بحجَّة أنَّ هناك لغات أخرى بها حرف (الضاد). والصواب أنَّ العربية لغة (**الظـاء**). وقد ذهبت طائفة ثالثة إلى التوفيق بين الرأيَيْن، واعتبرت أنَّ وجود (الضاد) في لغات متعددة، لا ينفي تميز (العربية) به، لأسباب كثيرة وموضوعية.

وهنا نبسط القضية للنقاش، ونعرض مختلف الآراء، لنقف على الحقيقة :

الفريـق الأول :

الفريق القائل بأنَّ (الضاد) من خصوصية العربية وحدها، أوْ كما قال صاحب «القاموس المحيط»: «الضاد حرف هجاء للعرب خاصة، ولا توجد في كلام العجم إلاَّ في القليل».

ويستشهدون بما جاء في قول أَبي الطيب المتنبِّي؛ بأنها للعرب خاصة:

لا بقومـي شرفتُ بلْ شرفـوا بي وبنفسي فخرتُ لا بجـدودي

وبهم فخر كل من نطق الضــادَ وعوذ الجاني وغـوث الطريـد

وذهبوا إلى أنها - الضاد - من خصائص اللهجة القُرَشِيَّة. وهذا الرَّأي تبنَّاه البعض من مُنطَلَق أنَّ لغة قريش تميَّزت عن سائر اللهجات العربية بالوضوح والرِّقَّة، وسَلِمت من الْتباس مخارج الحروف، واختلاط بعضها ببعض؛ فليس فيها شيءٌ من تلك الحروف التي ذكر اللُّغويُّون أنها مُستقبَحةٌ، ولا الحروف التي مخرجها بين حرفيْن من الحروف الفصيحة. أمَّا اللّهجات الأخرى، فتتميَّز بالخشونة ومَزج الحروف ببعضها، ولعلَّ سبب ذلك طبيعة الحياة الحضرية المكية، فالتأنُّق والتَّروِّي من سِمات الحضارة، والعَفَويَّة والسُّرعة من خَلائق البادية.

ويقولون : إنَّ من بين الأصوات التي كانت عرضةً للتَّغيُّر في عدد من السَّاميات: صوت الضاد؛ فهي تقابِلُ: «العين في الآرامية»، و«تُقابل: الصاد في اللغات الأكادية والأوجاريتية

والعبرية؛ فكلمة: «أرض» في العربية تُقابل: كلمةَ «ersetu» في الأكادية، وكلمة: «ars» في الأوجاريتية، وكلمة «eres» في العبرية، كما تُقابل الضادُ غَينًا في السُّريانية، مثل: «ara» بمعنى «أرض» كذلك، ولمْ تبقَ ضادًا إلاَّ في العربية الشمالية والعربية الجنوبية «السَّبئِية والمَعِينية» والحَبَشية، مثل كلمة: «rd» في العربية الجنوبية بمعنى «أرض» كذلك، وكلمة «dahny» بمعنى: «الشمس، الضحى» في الحبشية»، وهكذا تحوّلت الضَّاد في غير العربية؛ إمَّا إلى صاد، وإمَّا إلى غين، وإمَّا إلى عين.

ويُعدُّ هذا التَّغيُّر الأخير في صوت الضاد من أصعب التحولات الصَّوتية تفسيرًا. تلك التغيُّرات التي لحقت صَوتَ الضاد ترجعُ أساسًا إلى خصائص تميزه، جعلت نُطقَه عسيرًا على عامة الألَسنِ السامية، فضلاً عن غيرها. لذا؛ بدت الأفواهُ المقتدِرَة على صناعته مُميَّزةً، ولكون اللِّسان العربي من الألسُن القليلة التي تنطِقُه؛ صار وصفُ (لغة الضاد) عَلَمًا على العربيَّةِ، فإذا أُطلق لم يَنصرِف إلاَّ إليها، وبه غدَا يُنعَتُ أهلُها.

وقالوا أيضاً: إنَّ العرب لا يجدون صعوبة في نطق صوت الضاد، مقارنة بغيرهم من الشعوب، وإلى هذا التَّعليل ذهب أكثر الدَّارسين من القدامى والمحدَثين؛ يقول (برجشتراسر Bergsträsser): "الضاد العتيقة حرفٌ غريب جدًّا، غيرُ موجود -حسبما أعرف- في لُغةٍ من اللغات إلاَّ العربية؛ ولذلك كانوا يكنون عن العرب بالناطقين الضاد".

ويؤيِّده في ذلك إبراهيم أنيس، بقوله: "يظهر أن الضاد القديمة كانت عصيَّةَ النُّطق على أهالي الأقطار التي فتحها العرب، أو حتى على بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة، مما يفسِّر تلك التسمية القديمة لغة الضاد". والمُراد بالضاد القديمة هنا: تلك الموصوفة في كتب القدامى، في مُقابل الحديثة المُتداوَلَة اليوم، والَّتي تُنطق بكيفيات تختلف باختلاف البيئات.

وقد انتهى حسن عباس ـ بعد بحث استقرائي طويل في نِسَب مصادر الكلمات الضادية ودلالاتها ـ إلى أنَّ: "صوت الضاد بفخامته ونضارته وغُنَّته، إنما هو أوحى أصوات الحروف قاطبةً بمشاعر الشَّهامة والمروءة والشَّمم، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ الأصوات الغنائية التي تعتمد في غُنَّتها التَّجويف الأنفي، إنما هي أشَدُّ أصوات الطَّرَب إثارةً لمشاعر النَّخوَة والرُّجولة والعواطف القَوميَّة .. ومِثلُ هذه المشاعر النَّبيلة تستحِقُّ في نظر العربي أن يُحمَّلُ لِسانُه مَشقَّة النُّطق بصوتٍ يحمِلُها" .[1]

(1) **علوم اللسانيات،** مجلة **عالم الفكر،** الكويت، 1994م.

وترى طائفة من أنصار هذا الفريق؛ أنَّ تفرُّدَ العرب بصوت الضاد، إنما هو بكثرة الاستعمال لا بمطلَق الاستعمال. يقول مكيُّ بن أبي طالب: "ستَّة أحرف انفردت بكثرة استعمالِها العربُ، وهي قليلة في لغات العجم، ولا توجد ألبتة في لغات كثير منهم، وهي: (العين، والصاد، والضاد والقاف، والظاء، والثَّاء) فهذه الأصوات الستَّة يكثُر دورانُها في اللسان العربي مُقارنةً بغيره من الألسُن البشريَّة، لا أنها مفقودةٌ منها بالكلِّيَّة.

الفريـق الثانـي :

يرى هذا الفريق بأنَّ (الضاد) ليست حِكراً على العربية، بلْ تشاركها فيه لغات عديدة، وأنَّ مما اختصت به لغة العرب من الحروف وليس هو في غيرها؛ حرف (**الظـاء**).

من هذا الفريق "ابن دُرَيد" الذي يقول: "ستة أحرف للعرب، ولقليل من العجم؛ وهي: (العين، والصاد، والضاد، والقاف، والطاء، والثاء).

فابن دُرَيد يقرِّر أنَّ الضاد قليلة في لسان العجم لا معدومةٌ، وقد تبنَّى رأيَه هذا جمعٌ، منهم: (ابن جِنِّي، وابن فارس، وابن سِيدَه، وابن منظور). ولهذا الرَّأي الأخير انتصر طائفةٌ من المُحَقِّقين؛ من أمثال: أبي حيَّان النَّحوي، وعزِّ الدين ابن جماعة، وعليِّ بن محمد الصفاقسي. وهذا المذهب يتوافق مع ما توصَّل إليه المُشتغِلون بعلم اللغات المقارن؛ فإنهم يكادون يُجمِعُون على أنَّ مقولة: "العربيةِ لغة الضاد" ليست دقيقة تمامًا. وقد مال بعضُهم إلى تأكيد وُجودِ صوت الضاد أوْ أثَرٍ منه في اللُّغات السَّامية الأخرى، ومن البحوث الرَّائدة في هذا المجال: الدراسة التي تقدَّمت بها "سلوى ناظم" إلى مؤتمر مَجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الخامسة والستِّين، بعنوان: "**العربية لغة الضاد أمْ الظاء؟**."، وفيها تُقرِّر: "أن الضاد التي وصفها القدامى لها وجودٌ في اللغات الحبشية"، وهي من جُملة السَّاميات.

على جانب آخر؛ يقول الدكتور عبد الرحمن السليمان، الباحث في اللغات السامية: إنَّ "حرف الضاد كان موجوداً في كل اللغات السامية، إلاَّ أنها كلها أهملته، بلْ دمجته بالدال تارة، والظاء تارة أخرى، إلاَّ العربية الشمالية والعربية الجنوبية (الحميرية والحضرمية والقتبانية والسبئية) والعربية الوسطى (اللحيانية والثمودية)، بالإضافة إلى الأوغاريتية والحبشية.

وأمَّا في العبرية فاندمج هو والظاء مع حرف الصاد. وأصوات العربية هي الأصل في الدراسات السامية، وهنالك إجماع تام بشأن ذلك بين المشتغلين باللغات السامية.[1]

---

(1) **الثبات اللغوي ومعضلة المصطلحات**، محمد مختار، دار المعرفة، 2003م.

وقد أشار الفقيه التونسي ابن عزوز، في مقطوعة له يصف لفظ الضاد :

الضاد مخرجه بحافـــة مِقول يُمنى أو اليسرى بغير عنـــاء

الضاد مضبوط متين ما رأت فيه التفشّي دقـــة البصـــراء

ثم امتياز الضاد سـهل عند مـن عانـاه بالتلقن والإلقـــاء

ومن الخطأ في الضاد يُلفظ حرفه دالاً مفخـمةً مع استعلاء

وذهب هذا الفريق؛ إلى أنَّ المتقدِّمين لاحظوا هذه الخصوصيَّةَ الصوتيَّة للغة العربيَّة، وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي من الأوائل الذين صرَّحوا بأنَّ صوت (الظاء) مُختَصٌّ بالعربية مُقتصِرٌ عليها؛ فقد صَرَّح في مقدمة "العين" قائلاً: "وليس في شيءٍ من الألسن ظاءٌ غير العربية"، وكرَّر هذا المعنى في موضع آخر من الكتاب عينِه بقوله: "والظاء عربية لم تُعطَ أحدًا من العجم، وسائر الحروف اشترِكوا فيها". وبمثل قول الخليل يصرِّحُ مكي بن أبي طالب، وأبو حيَّان النحوي، وشيخُه ابنُ أبي الأحوَص، وغيرُ واحد، بلْ قد نقل أبو عمرو الداني الإجماعَ في هذه المسألة؛ فقال: "أجمع علماء اللُّغة على أَنَّ العرب خُصَّت بحرفٍ الظاء دون سائر الأمم، لم يتكلَّم بها غيرهم". فعلى هذا تكون العربية لغةَ الظَّاء لا الضَّاد.

ويُضيف ابن دُرَيد الحاءَ إلى الظاء؛ فيقول: "حرفان مُختَصٌّ بهما العرب دون الخَلْق، وهما الحاء والظاء"، ويُقرُّه ابن فارس، والقَلقَشندي، دون أن يُشيرا إلى نزاع مَن نازع في خصوصيَّة الحاء، كما فعل ابن دُريد نفسُه الذي أعقَب مقالته السابقة بقوله: "وزعم آخرون أنَّ الحاء في السُّريانية والعِبرانية والحَبشية كثيرةٌ، وأنَّ الظَّاء وحدَها مَقصورةٌ على العرب".

وهذا هو الصَّوابُ؛ فالحاء موجودةٌ في الأبجدية الأوغاريتية، وفي السُّريانية، وفي العبرية والآراميَّة والآشورية، ولغات جنوب الجزيرة، والحبشة.

فمن مجموع ما تقدَّم، يُمكن القولُ: إنَّ نعتَ اللغة العربية بأنها لغة الظاءُ أَولى من نعتِها بكونها لغةَ الضاد. يقول كمال بشر: "هناك إشارات متناثرة في أعمال السابقين والخالفين، تشير بلْ تُؤكِّد أنَّ صوت الظاء "لا الضاد" هو الخاص بالعربية".

الفريـق الثالـث:

هذا الفريق يحاول التوفيق بين الرأييْن السابقيْن؛ ويقولون: بأنَّ (الضاد) المقصودة؛ التي تفاخرت بها العرب، واعتبروها حِكراً عليهم، والتي افتخر بها المتنبِّـي في شِعره؛ ليست الضاد التي تستخدم اليوم في الفصحى التي هي عبارة عن دال مفخمة.

فالضاد العربية القديمة؛ كانت صوتاً آخر مزيجاً بين الظاء واللام، واندمج هذا الصوت مع الظاء في الجزيرة العربية. ولأنَّ الظاء هي ذال مفخمة، أيْ أنها حرف ما بين الأسنان، فقد تحولت بدورها في الحواضر إلى دال مفخمة كتحول الثاء إلى تاء، والذال إلى دال، وصارت هذه الدال المفخمة هي الضاد الفصيحة الحديثة.

إذن؛ فالدال المفخمة ليست خاصة بالعربية، بلْ هي موجودة في لغات كثيرة. وهي ليست الضاد الأصلية التي كان يعنيها المتنبِّي، وابن منظور صاحب لسان العرب، وغيرهم.

ونحن اليوم ننطق الضاد (دالاً مفخمة) وتشاركنا في هذا الصوت لغات أخرى. وهناك طريقتان للفظ الضاد: قديمة ومعاصرة. وقد وصف سيبويهِ اللفظ القديم، فقال: «أول حافــَة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد».

وهذا الحرف كما نفهم أوْ نتخيل، كان احتكاكيـًا رخوًا، بينما هو اليوم في لفظنا انفجاري شديد ومخرجه اللسان واللثة.

ويعلِّل تمام حسان في كتابه **«اللغة العربية ـ معناها ومبناها»**، فيقول: «الضاد الفصيحة كانت تُنطق بواسطة احتكاك هواء الزفير المجهور بجانب اللسان والأضراس المقابلة لهذا الجانب، ومن ثمَّ يكون صوت الضاد الفصيحة من بين أصوات الرخاوة مثله في ذلك مثل الثاء».

وهناك من المعلومات التي تشير إلى الطريقة في ذلك اللفظ، فكان ثمة خلط بين الضاد والظاء (شأن كثير من العراقيين والمغاربة في لهجاتهم اليوم) ومن ذلك ما أورده الجاحظ في (**البيان والتبيين**).

ومما قيل في ذلك من باب الطرائف: "كان رجل بالبصرة له جارية تسمى "ظمـياء"، فكان إذا دعاها قال: يا ضميـاء، فقال له ابن المقفَّع: "قل يا ظمياء"، فناداها: "يا ضميـاء" فلما غيَّر عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثاً، قال له: "هي جاريتي أمْ جاريتك"؟.

في كتابه "**الأصوات اللغوية**" يؤكد الدكتور إبراهيم أنيس- إنَّ الضاد القديمة هي التي ميّزت لغتنا، فيقول: "ويظهر أن الضاد القديمة مقصورة على اللغة العربية". فهو يُقدّر أنه قد طرأ على لفظ الضاد أوْ صوتها تطور. ولكن الدكتور رمضان عبد التواب، في كتابه (**المدخل إلى علم اللغة**) يؤكد هذا التباين بما لا يدعو إلى الشك.

ويقولون أيضاً: إنَّ تعريف العربية بأنها (لغة الضاد) فقد ورد بعد عصر الاحتجاج والرواية، ومع ذلك فلم يذكر "الثعالبي" هذا التركيب "لغة الضاد" في كتابه "**ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**"، مع أنه أدرك المتنبي. أيْ: لم يكن التعبير شائعًا وذائعًا في اللغة.

ثمَّ ورد بعد ذلك على لسان «الفيروز أبادي» في صورة النسبة، وذلك في قوله :

يا باعث النبيّ الهادي مُفـحمـًا باللسان الضادي.

وفي شِعرنا المعاصر، يقول «شوقـي» مفاخرًا :

إنَّ الذي ملأ اللغات محاسنًا جعل الجمال وسره في الضَّـاد.

وخليل «مطران» يسمِّي العرب «بني الضـاد»:

وفود بني الضـاد جاءت إليـك وأثنـت عليـك بمـا وجــبْ

ويقول «إسماعيل صبري»:

أيها الناطقون بالضـاد هذا منهل صفـا لأهل الضـاد

ويقول الشَّاعر اللبناني حليم دموس:

لغة إذا وقعت على أكبـادنا كانت لنا بردًا على الأكباد
وتظل رابطــة تؤلِّـف بيننـا الرجـاء لناطـق بالضــاد

ويتحدث عنها الشَّاعر «علي الجارم» بالكناية، قائلاً:

وارث الأصمعي في لغة الضـاد وفي الشِّعر وارث البحتري

ويرى هذا الفريق؛ أننا إذا درسنا «العربية» كنظام اتصال لغوي وصوتي؛ فإنَّ قدرة الكلمة (كقناة اتصال) في نقل المعنى في اتجاهين متضادين في ذات القناة، هو دليل قاطع على تفوق ذلك النظام اللغوي وقدرته (الاتصالية) العالية، ولذلك فإنَّ العقل اللغوي العربي الذي يستطيع التمييز بين اتجاه المعاني المضادة، هو أيضاً يمتاز بقدرة اتصالية عالية لا يجاريها أيّ نظام لغوي بشري آخر، وهذا يجعل معاني مفردات اللغة تتدفق بشكل لا نهائي في كل اتجاه.

ويعلِّلون رأيهم؛ بأنَّ صوت الضاد يخرج من التقاء إحدى حافتي اللسان مع ما يقابلها من الأضراس العليا، بمعنى أنَّ لصوت حرف الضاد مخرجيْن متضاديْن؛ فهو يخرج تارة من الحافة اليمنى، ويخرج تارة أخرى من الحافة التي تقابلها وتضادها في الاتجاه، وكأنَّ هذا الحرف قد أخذ اسمه من هذه الظاهرة التي هي ظاهرة التضاد.

فبذلك -حسب قولهم- تكون تسمية «العربية» بلغة الضـاد، من ظاهرة (التضـاد). بمعنى قدرتها على أداء معان متضادة كثيرة في نظامها الصوتي، وهي ظاهرة لمْ يتميز بها سوى اللسان العربي المبين. وإلى هذا الرأي نذهب، وإليه نستريح.

اللهجات العربيـة

(العربية) لغة الدِّين الطاهر، والأدب الباهر، وديوان الفضائل والمفاخر، ووعاء الفكر الإسلامي، والشريان الذي يربط بين أواصر الأمة، وأحد أسس الوحدة العربية ودعامتها، والأداة الحية للأدب والثقافة العربية، وعامل من أكبر العوامل على تجميع المسلمين، وقيام الروابط القوية بينهم، حسبها أنها شَرُفَتْ بحمل آخِر رِسالات السماء بلسان عربي مُبِين.

وقد نجحَت في ماضيها في القيام بدورها الحضاري المنوط بها، وارتَقَتْ بأمَّة من مجتمع الصحراء المتوارِي؛ لتكون هي ولغتها قائدة الحضارة على مستوى العالم قرونًا عديدة.

وقد اشتملت «العربية» على 28 حرفاً ثابتاً، يعبِّر كل منها عن لفظة مختلفة، إضافة إلى الهمزة التي تتخذ ستة أشكال في الكتابة، هي: (ء أ إ ئ ؤ ئـ).

علماء اللغة لا يعدُّون الألف مع الحروف؛ لأنه لا يعبِّر عن لفظة معينة، إنما حركة طويلة (حرف علة). أمَّا الواو والياء، فيمكن أنْ يشكلا لفظة أوْ حركة طويلة.

بهذه الحروف؛ كُتِبتْ اللغة العربية، ومرت بأطوارٍ كثيرة عبر مئات السنين. فقد كانت ـ قبيْل الإسلام ـ تسمى (**لغة مضر**)، وكانت تستخدمٍ في شمال الجزيرة، وقد قضت على اللهجة العربية الشمالية القديمة وحلَّت محلها، بينما كانت تسمى اللهجة العربية الجنوبية القديمة (**لغة حِمْير**) نسبة إلى أعظم ممالك اليمن آنذاك، وما كاد النصف الأول للألفية الأولى للميلاد ينقضي حتى كانت هناك: لغة لقريش، ولغة لهذيل، ولغة لربيعة، ولغة لقضاعة. وهذه تسمى (لغات)، مع أنها لهجات متقاربة، بدليل أن كل قبيلة كانت تفهم غيرها بسهولة.

هذا بدوره يؤكد أنَّ تعدد اللهجات؛ كان موجوداً عند العرب من عصر الجاهلية، حيث كانت هناك لهجة لكل قبيلة من القبائل. وقد استمر الوضع هكذا بعد مجيء الإسلام.

بالإضافة إلى هذه اللهجات؛ فقد كانت هناك لغة واحدة مشتركة تكوّنت من مزيج من لهجات وسط وشرق شبه الجزيرة العربية بتأثير التجارة والحج، وغيرها.

وقد كان التواصل بين أفراد القبيلة الواحدة يَتم بواسطة لهجتها الخاصة، أمَّا عندما يَخطب شخص ما، أوْ يَتحدث مع قبائل أخرى، فقد كان يستعمل حينها اللغة المشتركة.

ويُرجح أنَّ العامية الحديثة بدأت منذ الفتوحات الإسلامية، إذْ إن المسلمين الجدد في بلاد الأعاجم (والتي أصبح العديد منها اليوم من البلدان العربية) بدءوا بتعلم العربية، لكنهم -وبشكل طبيعي- لم يَستطيعوا التحدث بها كما يتحدثها العرب بالضبط، وبالتالي فقد حرِّفت قليلاً.

وفي ذلك الوقت لم يَكن الفرق واضحاً كثيراً، لكن بالتدريج حُرِّفت العربية، وتغيرت مخارجها الصوتية، وتركيب الجمل فيها، حتى تحوّلت إلى اللهجات العامية الحديثة.

إشكالية الثنائية اللغوية

لابدَّ من التفريق بين **«الازدواجية اللغوية»**، و**«الثنائية اللغوية»**. ما الفارق بينهما؟.

(الازدواجية اللغوية) هي أن يتحدث شعبٌ ما أكثر من لغة، كما هو الحال في دول المغرب العربي. وهي من مخلَّفات الاستعمار الذي ظلَّ جاثماً هناك لأكثر من قرن من الزمان.

أمّا (الثنائية اللغوية) فهو مصطلح يُطلَق على تحدث جماعة من الناس، أوْ شعب من الشعوب، أكثر من لهجة (كالعامية والفصحى) في آنٍ واحد، وهو حال أغلب الشعوب.

وقد اختلف الباحثون بشأن تصنيف وضع العامية والفصحى في البلدان العربية: ازدواجية لغوية أمْ ثنائية لغوية؟.

بعضهم يرى أنهما مختلفتان كثيراً، ويجب أنْ يُقال عن وضعهما «ازدواجية لغوية».

لكن رأيْ الجمهور؛ أن الفرق ليس جذرياً، ويَجب ألاَّ يُصنَّفا كلغتيْن منفصلتيْن.

حتى ذهب بعض الباحثين إلى أنَّ «الثنائية اللغوية» أمر جيد. في حين رأى آخرون؛ أنها كارثة يَجب أن تزول؛ لأنه من المُتعب للطفل أن يتعلم في المدرسة لغة غير التي يتحدثها في حياته اليومية، وأيضاً فإنَّ وقت تعلمها سوف يؤخِّر تعلمه كله.

يرى علماء اللغة أنه ليس هناك ما يثير العجب في هذه الثنائية اللغوية بالنسبة للعرب؛ حيث إنَّ غالبية لغات العالم تتعامل مع هذه الثنائية الطبيعية بين الأسلوب اللغوي في المحادثة والأسلوب اللغوي الكتابي، حتى وإنْ كان هناك تباين ظاهر، إلاَّ أنه مندرج تحت لغة واحدة. فلغة المحادثة في شمال كل بلد تختلف بشكل ظاهر عنه في جنوبه. فعلى سبيل المثال: سكان «مدريد» يتحدثون بلهجة مختلفة تماماً عن سكان «قرطبة»، وكلاهما يعتمد اللغة الإسبانية في التدوين والطباعة.

لكن؛ دول "الإتحاد الأوروبي" منذ فتح الحدود فيما بينها، أخذت في الإمعان في قضية اختلاف اللهجات، وإشكالية التعددية اللغوية بين الجاليات التي تقطن في قطر واحد. وقد مثلت مدينة "بولزانو" التي أُقيم فيها مؤتمر "تعددية لغات أوروبا"، نموذجاً لعدد من المدن الأوروبية، التي تفرض فيها رسمياً (الثنائية اللغوية) حيث يتحدث سكان تلك المدينة اللغتيْن: "الإيطالية"، و"الألمانية" بدرجة متساوية. كما تكتب جميع اللوحات وأسماء الشوارع والمعاملات باللغتيْن كلتيهما. كذلك؛ التوظيف الحكومي يأخذ بمناصفة شغل الوظائف بين متحدِّثي اللغتيْن.

أمَّا (العربية) فقد حافظت إلى يومنا هذا على شكلها "الفصيح" بين حدود الدول العربية الإثنتين والعشرين، حيث تصدر الصحف والمطبوعات، وتطبع الكتب من المحيط غرباً إلى الخليج شرقاً، بالعربية "الفصحى". ويستطيع المغربي أن يُحاور الكويتي ويفهم حديثه بسهولة، وكذلك الحال بين السوداني والعراقي.

على جانبٍ آخر؛ اختلف الباحثون حول مستقبل «الثنائية اللغوية» في الوطن العربي؛ فبعضهم يرى أن اللغة الفصحى سوف تغلب العامية، وسوف تُستخدم بشكل عام حتى خارج المعاملات الرسمية، وذلك بزيادة المادة الصوتية الفصيحة التي يتم الاستماع إليها يومياً. بالإضافة إلى الرسوم المتحركة التي سوف تساعد الأطفال علىٍ تعلم الفصحى قبل دخول المدرسة. وهناك اقتراحات بتبسيط قواعد الفصحى قليلاً لتسهيل تعلمها.

بينما يرى آخرون أن اللهجات العامية؛ سوف تتطور، أوْ ستندمج في لهجة عربية واحدة، وبهذا تُشكل معاً لغة عربية واحدة كالفصحى.

وقد دعا البعض إلى دمج العامية والفصحى معاً بحيث تتكوّن لغة جديدة بين الاثنتين، لكن هذا الاقتراح لا يحظى بالكثير من التأييد؛ نظراً لأنَّ الفصحى هي لغة القرآن، والأدب، والتراث بأكمله.

إذن؛ فلا جدوى من الإلحاح على استعمال اللهجات المتنافرة؛ فهي منحطَّة لانحطاط الناطقين بها. أوْ على حد قول الدكتور طه حسين: «لا أدب إلاَّ أدب اللغة الفصحى، والذين يستخدمون العامية ليسوا واقعيين، وإنما هم عاجزون».

الأسواق الشِّعرية

في العصر الجاهلي، تبوّأت "الأسواق الشِّعرية" مكانة عظيمة في نفوس العرب، حتى نظروا إلى الشَّاعر نظرتهم للمَلك والأمير، وكانت القبيلة تُفاخِر كل الفخر بميلاد شاعرها، وتزهو به على الملأ. بلْ احتلَّ الشاعر منزلة أرفع من منزلة المُقاتِل، وذلك للدفاعِ عنها ضد أعدائها بشعره. وكانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر احتفلت به احتفالاً عظيماً؛ فأخذوا يُهنئون بعضهم بعضاً، ويقيمون الحفلات الغنائية، ويعدُّون الولائم؛ لأنَّ في نبوغ ذلك الشَّاعر حماية لأعراضهم، وذبًّا عن أحسابهم، وتخليداً لمآثرهم، وإشادة بذِكرهم. وكانت تُعقد المجالس لسماع الشِّعر وإنشاده، وتُقام الأسواق من أجل المفاخرة والمباراة بين القبائل عن طريق سلاح الشِّعر .. بلْ إنَّ القبائل التي لا ينبغ فيها الشعراء، كانت تشعر بالنقص والضّعة، وخمول الذِّكر والهوان، كما يقول ابن رشيق في كتابه "**العمدة**".

هذا؛ ويقول الدكتور حسين نصار في كتابه (**في الشِّعر العربي**): إنَّ الأسواق الشِّعرية كانت كثيرة؛ فمنها سوق (عكاظ) التي كانت تعقد في وادٍ بين مكة والطائف، في شهر ذي القعدة. ثمَّ توارت أهمية عكاظ في الإسلام، وبرز سوق (المربد) في البصرة، وسوق (الكناسة) في الكوفة، يُضاف إليهما المساجد التي كانت فيها المجالس الشِّعرية أيضاً، فقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع حسّان بن ثابت، واقتدى به المسلمون بعد ذلك، كما تذكر أخبار جرير والفرزدق.

وكان للاحتفالات الشِّعرية، التي أقيمت في الأسواق العربية، آثارها الخطيرة في الشِّعر العربي، بلْ في اللغة العربية كلها؛ فقد كان سوق عكاظ البقعة التي تتلاقى فيها القبائل من شتى الأرجاء، ومع اختلاف اللهجات، وكانت القبائل تحاول أن توجِد لها لغة أدبية رسمية؛ فاختارت لغة الحجاز (قريش)، فكانت عكاظ الموطن الذي وحّد اللهجات العربية، ومهَّد لتوحيد العرب أنفسهم في أمة واحدة.

كان لتلك الأسواق الشِّعرية رسومها وطقوسها وآدابها، فقد روى الرواة أن "عمرو بن كلثوم" عندما نظم معلَّقته الشهيرة، وأراد إشاعتها بين العرب، ذهب إلى سوق عكاظ، وأنشدها هناك، فنالت إعجاب السامعين واعترافهم بجودتها؛ فطار صيتها بين الناس.

ورويَ أنَّ "الأعشى" عندما مدح المُحلَّق الكلابي، وأثنى على بناته؛ ليجد لهنّ الأزواج الأكْفاء، فعل ذلك في عكاظ، وكان يُنشد الناس تحت سَرحة (شجرة عظيمة ذات ظل) وقد حقَّقت قصيدته غرضها سريعاً، فتهافت الأشراف على بنات الرجل طلباً للزواج.

كما ذكرت كتب الأدب، أن بعض الشعراء الذين اعترف لهم أهل عكاظ بميزة أو فضل، كانوا يهتمون بهذا الاعتراف، ويُبرزونه إبرازاً واضحاً؛ فيُعلِّمون أنفسهم بعلامات خاصة، لا يحلُّ لغيرهم استخدامها، فكان "النابغـة الذبياني" الذي اتخذ منه أهل عكاظ حَكَماً يفصل بين الشعراء، ويبين منزلتهم، يضرب لنفسه قُبَّة حمراء من الجِلد.

ولمَّا أصيبت "الخنساء" بأبيها عمرو بن الشريد، وأخوَيْها: صخر ومعاوية؛ رثتهم بالقصائد التي شاعت في الأرجاء العربية، واعترف لها الناس بعِظَم مصيبتها، وكانت تشهد عكاظ، وقد أعلمت هودجها براية. قال أبو الفرج في "الأغاني" عنها: "لمَّا كانت وقعة بدر، قُتِل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، فأقبلت "هند بنت عتبة" ترثيهم، وبلغها تسويم (اتخاذ علامة) الخنساء هودجها في الموسم، ومعاظمتها العرب بمصيبتها، وأنَّ العرب قد عرفت لها ذلك. فلمَّا أصيبت هند بما أُصيبت به، قالت: إني أعظم من الخنساء مصيبةً، وأمرت بهودجها فسُوِّم براية، وشهدت الموسم بعكاظ؛ فقالت: اقرنوا جَمَلي بجمل الخنساء، ففعلوا، فلمَّا أن دنت منها، قالت لها الخنساء: من أنتِ يا أُخَيَّة؟. قالت: أنا هند بنت عتبة، أعظم العرب مصيبةً، وقد بلغني أنكِ تُعاظمين العرب بمصيبتك، فبمَ تعاظمينهم؟. قالت الخنساء: بعمرو بن الشريد، وصخر، ومعاوية ابنَي عمرو. وبمَ تعاظمينهم أنتِ؟. قالت هند: بأبي عتبة بن ربيعة، وعمِّي شيبة بن ربيعة، وأخي الوليد. قالت الخنساء : أو سواءٌ عندكِ؟. ثم أنشدت تقول:

أُبَكِّي أبـي عمراً بعـينٍ غـزيرةٍ	**قليلٍ إذا نام الخليُّ هُجـودُهـــا**
وصِنوَيَ لا أنسـى معـاويةَ الـذي	**له من سراة الحَرَّتَينِ وُفودُهـــا**
وصخراً، ومن ذا مثل صخرٍ إذا غدا	**بساهمـةِ الآطال قُبَّاً يقودهـــا**
فـذلك يا هنـدُ الـرزيةُ، فاعلمـي	**ونيرانُ حربٍ حين شبَّ وَقودهـــا**

فقالت هنـد تجيبها:

أُبَكِّي عمـيد الأبطَحَين كليـهمـــا	**وحاميـها من كـل باغٍ يـريدهـــا**
أبي عتبةُ الخيراتِ، ويحكِ فاعلمـــي	**وشيبة والحامـي الذمارَ وليـدهـــا**
أولئـك آل المـجد مـن آل غالبٍ	**وفي العِزِّ منها حين ينمى عديدهـــا**

قيل: إنَّ أول ما كان يلجأ إليه الشَّاعر؛ ليعدَّ نفسه للشِّعر، هو التَّزَيُّن. وكان التزين أمراً جوهرياً وضرورياً، يفعله كل شاعر، ولا سيما الفحول؛ فقيل: إن "الفرزدق" حين أراد أن ينشد في المدينة قصيدته :

عزفتَ بأعشاشٍ، وما كنتَ تعزفُ وأنكرتَ من حوراءَ ما كنتَ تعرفُ

طلع الفرزدق على القوم في حُلَّة يمانيةٍ موشّاة، وقد أرخى غديرته. كما كان خصمه الذي تحداه يلبس ثوبين مصبوغيْن بصُفرة.

وحينما أراد "جرير" أن ينشد قصيدته، التي هجا فيها الراعي النُّميْري وقومه، وقال فيها :

فغُضَّ الطرف إنك من نُميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

يُقال: إنه ادَّهن بدهن، وجمع شَعره - وكان حَسَن الشّعر - وضمّ أطرافه.

وكان من تمام الاحتفال، أن يُزَيِّن الشَّاعر جَمَله الذي يركبه؛ فيضع عليه أجمل الأردية. وقد وصف واصف، ما لجأ إليه "جميل بثينة" من تجمُّل، حين هاجى جوّاسٍ بن قطبة، فقال : "قدمتُ من عند عبد الملك بن مروان، وقد أَجازني، وكساني بُرداً، وكان ذلك البُرد أفضل جائزتي؛ فنزلتُ وادي القِرى، فلقيني جميل، وكان صديقاً لي، فسلَّم بعضنا على بعض .. فلمَّا أمسيتُ إذا هو قد أتاني في رحلي، فقال : البُرد الذي رأيته عليك تُعيرنيه حتى أتجمَّل به، فإنَّ بيني وبين جوّاس مراجِزة، قلتُ : لا، بلْ هو لك كسوةً؛ فكسوته إياه، فلما أصبحنا جعل الأعاريب يأتون أرسالاً، حتى اجتمع منهم بشرٌ كثير. وحضرتُ وأصحابي؛ فإذا بجميلٍ قد جاء وعليه حُلّتان، ما رأيتُ مثلهما قط، وإذا بُردي الذي كسوته إياه قد جعله جُلاً لجمله، فتراجزا..". وكانت النتيجة أن كسب جميل المُراجَزة، وارتفعت مكانته بين الناس.

وأغرب من ذلك وأعجب، ما كان يفعله "حسان بن ثابت" وهو يستعد لإنشاد قصائده الحماسية؛ فقد كان يُخَضِّب شاربه والشعرات التي بين الشفة السفلى والذقن بالحِنّاء، ولا يُخَضِب سائر اللحية؛ ليكون كالأسد الوالغ في الدماء، كما فسَّر هو نفسه هيئته. ثمَّ ينشدَ حماسيته، ويتغنّى بشجاعته وغنائه في الحروب.

فهلْ رأت الدنيا شعراء كشعراء عكاظ؟. وهلْ سمع الناسُ مباريات شعرية بعد عكاظ؟. وهلْ شهدت الدنيا أسواقاً كأسواق عكاظ، وذي المجنَّة؟. وهل علَّقتْ أُمَّة القصائد على معابدها ومقدساتها غير أُمَّة العرب. فما لكم كيف تحكمون؟.

الخط العربي

"الخط العربي" هو فن وتصميم الكتابة بالحروف العربية، إذْ تتميز الكتابة العربية بكونها متصلة، مما يجعلها قابلة لاكتساب أشكال هندسية مختلفة من خلال المد والرجع والاستدارة والتزوية والتشابك والتداخل والتركيب. كما يقترن فن الخط بالزخرفة العربية "أرابيسك" حيث يستعمل لتزيين المساجد والقصور، كما أنه يستعمل في تجميل المخطوطات والكتب، خاصة عند نسخ القرآن الكريم. وقد شهد هذا المجال إقبالاً من الفنانين المسلمين؛ بسبب نهي الشريعة عن رسم البشر والحيوان، خاصة فيما يتصل بالأماكن المقدسة والمصاحف.

ويعتمد الخط العربي جمالياً على قواعد خاصة تنطلق من التناسب بين الخط والنقطة والدائرة، وتستخدم في أدائه فنياً العناصر ذاتها التي تعتمدها الفنون التشكيلية الأخرى، كالخط والكتلة، ليس بمعناها المتحرك مادياً فحسب، بلْ بمعناها الجمالي الذي ينتج حركة ذاتية تجعل الخط يتهادى في رونق جمالي مستقل عن مضامينه، ومرتبط معها في آن واحد.

يقول القلقشندي : "الخط العربي هو ما يسمى الآن بالكوفي، ومنه تطورت باقي الخطوط".

إلاَّ أن موريتز في "**موسوعة الإسلام**" يوضح أن "الخط العربي" الذي عرف لاحقاً بالخط الكوفي، ترجع أصوله إلى ما قبل بناء الكوفة بقرن من الزمان. إذْ إنَّ العربية قبل الإسلام كانت تكتب بأربعة خطوط: الحيري (نسبة إلى الحيرة) والذي منه اشتق الخط الكوفي، الأنباري (نسبة إلى الأنبار)، المكي (نسبة إلى مكة المكرمة)، المدني (نسبة إلى المدينة المنورة). وأول تسمية لهذا الخط بالكوفي؛ كان في كتاب (**الفهرست**) لابن النديم عام 999م.

وقال ابن عباس: "أول من كتب بالعربية رجال من بولان، وهي قبيلة سكنت الأنبار. ووضعوا حروفاً مقطعة وموصولة. وهم مرار بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة. فأمَّا "مرامر" فوضع الصور، وأمَّا "أسلم" ففصل ووصل، وأمَّا "عامر" فوضع الإعجام. وفي ذلك يقول الشَّاعر :

كتبت أبا جاد وحُطِّي مرامر   وسوّدت سربالي ولستُ بكاتب

تطور نظام الكتابة العربية

كانت العربية القديمة، تكتب بالخطيْن المسند، والثمودي، ثم دخل الخط النبطي على العربية الحديثة. وقيل: إنه نسبة لنابت بن إسماعيل- فأخذ ذلك الخط مكان الخط الثمودي في شمال الجزيرة، وأصبح الخط المعتمد في "لغة مضر العربية الحديثة" (نسبة إلى قبيلة مضر).

أمَّا لغة حمير "العربية الجنوبية" فحافظت على الخط المسند.

وقد تطور الخط النبطي -الذي هو أبو الخط العربي الحديث- وكان أقدم نص عربي مكتشف مكتوبًا بالنبطي، هو نقش (النمارة) المكتشف في سورية، والذي يرجع لعام 328م.

وفي الفترة السابقة للإسلام، كانت هناك خطوط أخرى حديثة للغة مضر، مثل: "الخط الحيري" نسبة إلى الحيرة، و"الخط الأنباري" نسبة إلى الأنبار.

وعندما جاء الإسلام؛ كان الخط المستعمل في قريش هو الخط النبطي المطور، وهو الخط الذي استخدمه كتّاب النبيّ الكريم ﷺ في كتابة رسائله للملوك والحكام آنذاك. ويلحظ في صور بعض تلك الخطابات الاختلاف عن الخط العربي الحديث الذي تطور من ذلك الخط.

لكن بعض المختصين، يعتبرون ذلك الخط النبطي المطور عربيًا قديمًا، وأقدم المكتشفات المكتوبة به "نقش زبد" (568م)، و"نقش أم الجمال" (513م). أمَّا النقوش السبئية، فهي أقدم النقوش العربية، والتي يرجع بعضها إلى 1000 ق. م.

وقد كان "الحجازيون" أول من حرر العربية من الخط النبطي، وبدأ يتغير بشكل متقارب حتى عهد الأمويين، حين بدأ "أبو الأسود الدؤلي" بتنقيط الحروف. ثمَّ أمر عبد الملك بن مروان، كلاً من (عاصم الليثي، ويحيى بن يعمر) بتشكيل الحروف، فبدءوا بعمل نقطة فوق الحرف للدلالة على فتحه، ونقطة تحته للدلالة على كسره، ونقطة عن شماله للدلالة على ضمه. ثمَّ تطور إلى وضع ألف صغيرة مائلة فوق الحرف للفتح، وياء صغيرة للكسر، وواو صغيرة للضم. ثمَّ تطور مجدداً للشكل الحالي في الفتح والكسر والضم .. وهو نظام "الخليل بن أحمد الفراهيدي" المستعمل إلى اليوم.

أنواع الخط العربي

أخذت الخطوط العربية مناهج عدة في التسمية، فسمِّيت بعضها نسبة إلى أسماء المدن: كالنبطي والكوفي والحجازي والفارسي. أوْ بأسماء مبدعيها: كالياقوتي (المستعصمي)، والريحاني، والرياسي، والغزلاني. كما سميت -أيضاً- نسبة مقادير الخط: كخط الثلث ثلث والنصف والثلثين. فضلاً عن تسميته نسبة إلى الأداة التي تسطره: كخط الغبار. وكذلك نسبة إلى هيئة الخط: كخط المسلسل. ومن أشهر أنواع الخطوط العربية المتداولة : [1]

الخط الكوفي

أقدم الخطوط العربية وأعرقها على الإطلاق، نشأ واعتُمِد في عصر النبوة لحاجة المسلمين لتدوين القرآن الكريم. ولازال يعرف حتى يومنا هذا بالكوفي المصحف، وهو خط يابس هندسي زخرفي يحتاج إلى دقة ودراية. ومن حظ هذا الخط؛ أنه يحمل صبغة تاريخية حيث ينسب إلى دول وبلدان وممالك وحقب تاريخية مهمة في الأمة مثل: (الكوفي المملوكي) و(الكوفي الأيوبي) و(الكوفي الفاطمي) و(الكوفي الأندلسي). كما ينسب إلى إقليم مثل (الكوفي النيسابوري) و(الكوفي القيرواني) وغيرها من الكوفي المتعارف عليه، مثل: (الكوفي المورق) و(الكوفي الشطرنجي) و(الكوفي المضفور).

ومن أعلام ومؤرخي هذا الخط الجليل: عالم المشهور يوسف أحمد؛ حيث اهتم به اهتماماً خاصاً، وفرَّغ نفسه لخدمته والتعريف به بعد أن كان على وشك الاضمحلال. وقد اهتم نخبة من تلاميذه بهذا الخط، كان آخرهم الخطاط محمد عبد القادر.

خط النسخ

أوضح الخطوط العربية على الإطلاق، يتميز بوضوح صور حروفه واكتمال تشكيله، مما يسهِّل عملية القراءة، ويضمن سلامة النطق، وقد درجت كتابة المصاحف بهذا الخط في عهد الخطاطين العثمانيين. يكتب خط النسخ شأنه شأن الخطوط المشرقية الأخرى، تقليدياً بقلم مصنوع من القصب والحبر، ولصور حروفه قواعد خطية وأشكال محددة ومنسوبة (أيْ تقاس هندسياً بالنقطة كما هو متبع في دراسة الخط). وعادة ما يكتب

---

(1) حوار أجريناه مع الخطاط الأديب محمد عبده أبو قمر- منشور بمجلة (**الوعي الإسلامي**)، الكويت.

بمقاس صغير (لا يتعدى عرض القلم 2 ملم) مما يتناسب مع كتابة النصوص الطويلة في اللوحات الخطية والكتب (كالمصاحف، وكتب الأذكار والأوراد، والمراجع الدينية) إلخ.

وقد استحدث "خط النسخ" على الأغلب في حدود عام 800 م في العراق، وأخذ يتطور شأنه شأن الأقلام الستة على يد ابن مقلة (886-940م) وياقوت المستعصمي (1298م)، ثمَّ الشيخ حمد الله الأماسي (1429-1520م) والذي خصَّ خط النسخ بكتابة المصاحف، أيضاً تطور خط النسخ في حدود عام 1678م على يد الخطاط الحافظ عثمان (1642-1698م) والذي استحدث أسلوباً جديداً خاصاً به في خط النسخ يختلف عن طريقة الشيخ حمد الله، وقد وصل خط النسخ إلى قمته بظهور مدرستيْن مستقلتيْن: مدرسة القاضي عسكر مصطفى عزت (1801-1876م) والخطاط محمد شوقي أفندي (1829-1887 م) حيث قام الأخير بتطوير طريقة في خط النسخ تميز بها عن سابقيه من الخطاطين.

وقد انتشر "خط النسخ" بقواعده للعالم الإسلامي والعربي، واشتهر العديد من الخطاطين العثمانيين بإجادتهم له، أمثال: حسن رضا (1849-1920) والحاج عارف البقال (1836-1909) والشيخ عبد العزيز الرفاعي (1871-1934) ومن المعاصرين: محمد أوزجاي.

خـط الثلـث

من أروع الخطوط العربية منظراً وجمالاً، وأصعبها كتابة وإتقاناً، سواء من حيث الحرف أوْ من حيث التركيب، كما أنه أصل الخطوط العربية، والميزان الذي يوزن به إبداع الخطاط. ولا يعتبر الخطاط فناناً ما لمْ يتقن خط الثلث، فمن أتقنه أتقن غيره بسهولة ويسر، ومن لم يتقنه لا يعد بغيره خطاطاً، مهما أجاد. ويمتاز عن غيره بكثرة المرونة؛ إذْ تتعدد أشكال معظم الحروف فيه. لذلك يمكن كتابة جملة واحدة عدة مرات بأشكال مختلفة، ويطمس أحياناً شكل الميم للتجميل، ويقل استعمال هذا النوع في كتابة المصاحف، ويقتصر على العناوين وبعض الآيات والجمل لصعوبة كتابته، ولأنه يأخذ وقتاً طويلاً في الكتابة.

يعتبر "ابن مقلة" المتوفى 328 هـ، واضع قواعد هذا الخط من نقط ومقاييس وأبعاد، وله فضل السبق عن غيره، ومن جاءوا بعده أصبحوا عيالاً عليه؛ فقد جاء "ابن البواب علي بن هلال البغدادي" المتوفى سنة 413هـ، فأرسى قواعد هذا الخط وهذَّبه، وأجاد في تراكيبه، لكنه لم يتدخل في القواعد التي ذكرها ابن مقلة، فبقيت ثابتة إلى اليوم.

ومن أشهر الخطاطين المعاصرين الذين أبدعوا في خط الثلث: هاشم محمد البغدادي، مصطفى راقم، حمد الله الأماسي، سامي أفندي، حامد الأمدي، الشيخ محمد عبد العزيز الرفاعي، محمد حسني، وسيد إبراهيم، ومحمد إبراهيم، سعد حداد، ومسعد خضير البورسعيدى، وحسن جلبي، محمد أوزجاي، داود بكتاش، وعثمان أوزجاي. ومحمد شوقي أفندي.

عائلة خط الثلث: (خط التوقيع، خط الإجازة، خط الرقاع، خط المسلسل، خط المحقق، خط الريحان،خط التاج. شجرة خط القلقشندي، خط الرقعة والسياقة، خط التعليق، خط نسخ تعليق، خط ديواني، خط ديواني جلي، خط الشكستة، الخطوط التفننية: الخط المثنى، خط المعمى).

خـط الرقعـة

سمِّيَ بذلك؛ نسبة إلى "الرقاع" وهو جلد الغزال، وضع قواعده الخطاط العثماني: ممتاز بك، وأنشئ في دواوين الخلافة العثمانية لتوحيد خط الكتابة بين موظفي الدولة، ويعتبر "الرقعة" خط الكتابة اليومية، كما أن له أساليب متعارف عليها، منها: أسلوب تركي ومصري أو تجارى. كما أنه يعتبر عند معلمي الخط، هو الخط الأول للمتعلم.

الخط الديواني (السلطاني) (الغزلاني)

أجمل الخطوط العربية، يتميز بالحيوية والطواعية، كأنَّ حروفه تتراقص على الورق. يقال: إنَّ أول من وضع قواعده، وحدد موازينه، الخطاط إبراهيم منيف، وقد عرف هذا الخط بصفة رسمية بعد فتح السلطان محمد الفاتح للقسطنطينية عام 857 هـ (1453م) فكان يستعمل في كتابة الأوسمة والنياشين والتعيينات، ولهذا سمي بالديواني نسبة إلى الدواوين الحكومية، وكان في أول أمره سراً من أسرار القصور في الدولة العثمانية، وكانت له صورة معقدة تزدحم فيها الكلمات، وتزدحم أسطره ازدحاماً لا يترك بينهما فراغ يسمح بإضافة أيّ حرف أو كلمة إليها، وهذا التعقيد كان مقصوداً لذاته منعاً من تغيير النص في تلك الأوراق الرسمية. ومن أشهر خطاطي هذا النوع: "مصطفى غزلان بك" حتى سميَ بالخط الغزلاني نسبة له، حيث خرج به من مرحلة التعقيد والازدحام، إلى مرحلة السهولة في الكتابة. ومقاييس نقطه بسمك القلم الذي يكتب به بالطول والاتساع والميل والانحناء والارتفاع. وهذا الخط له نوعان :

1. **الخط الديواني المرسل** : وله عدة مدارس، هي: (البغدادية ـ المصرية ـ التركية)، وكل من هذه المدارس لها قواعدها الخاصة بها. ويمتاز بإمكانية كتابة الحرف الواحد على عدة أشكال مختلفة، لكن على قواعد محددة.

2. **الخط الديواني الجلي** : يمتاز بالليونة وسهولة المد والشد، ويكثر فيه الزخارف، لذا يستخدم حين يريد الخطاط عمل لوحة على شكلٍ معينٍ، فلِيُونَة الخط تساعد على ملء الشكل المحدد، والزخارف تعملٍ على ملء الفراغات الصغيرة لتحديد الشكل بطريقة أدق.

الخـط المغربـي

هو نوع من خطوط الأبجدية العربية، ينتشر استخدامه في بلدان شمال إفريقيا وغيرها، وموطنه عموم بلاد المغرب العربي والسودان الغربي (غرب إفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى)، كما استخدم سابقاً في الأندلس.

الخـط الفارسـي

ظهر هذا الخط في بلاد فارس في القرن السابع الهجري، ويسمى (خط التعليق) وهو خط جميل تمتاز حروفه بالدقة والامتداد. كما يمتاز بسهولته ووضوحه وانعدام التعقيد فيه. ولا يتحمل التشكيل، رغم اختلافه مع خط الرقعة.

كما يعد من أجمل الخطوط التي لها طابع خاص، إذْ يتميز بالرشاقة في حروفه، فتبدو وكأنها تنحدر في اتجاه واحد، وتزيد من جماله الخطوط اللينة والمدورة فيه، لأنها أطوع فيِ الرسم وأكثر مرونة، لاسيما إذا رسمت بدقة وأناقة وحسن توزيع، وقد يعمد الخطّاط في استعماله إلى الزخرفة للوصول إلى القوة في التعبير بالإفادة من التقويسات والدوائر، فضلاً عن رشاقة الرسم، فقد يربط الفنان بين حروف الكلمة الواحدة والكلمتين ليصل إلى تأليف إطار أو خطوط منحنية وملتفة يظهر فيها عبقريته في الخيال والإبداع.

كان الإيرانيون قبل الإسلام يكتبون بالخط (البهلوي) فلما اعتنقوا الإسلام، أهملوه، وكتبوا بالخط العربي، وقد طور الإيرانيون هذا الخط، فاقتبسوا له من جماليات خط النسخ ما جعله سلس القياد، جميل المنظر، لم يسبقهم إلى رسم حروفه أحد، وقد وضع أصوله وأبعاده الخطاط البارع مير علي الهراوي التبريزي المتوفى سنة 919 هـ.

ونتيجة لانهماك الإيرانيين في فن الخط الفارسي الذي احتضنوه واختصوا به، فقد مرَّ بأطوار مختلفة، ازداد تجذراً وأصالة، واخترعوا منه خطوطاً أخرى مأخوذة عنه، مثل :

1. خط الشكستة: اخترعوه من خطي التعليق والديواني. وفي هذا الخط شيء من صعوبة القراءة، لذلك بقي محصوراً في إيران، ولم يكتب به أحد من خطاطي العرب أو ينتشر بينهم.
2. الخط الفارسي المتناظر: كتبوا به الآيات والأشعار والحِكم، بحيث ينطبق آخر حرف في الكلمة الأولى مع آخر حرف في الكلمة الأخيرة، وكأنهم يطوون الصفحة من الوسط ويطبعونها على يسارها. ويسمى (خط المرآة الفارسي).
3. الخط الفارسي المختزل: كتب به الخطاطون الإيرانيون اللوحات التي تتشابه حروف كلماتها بحيث يقرأ الحرف الواحد بأكثر من كلمة، ويقوم بأكثر من دوره في كتابة الحروف الأخرى، ويكتب عوضاً عنها. وفي هذا الخط صعوبة كبيرة للخطاط والقارئ على السواء.
4. ومن وجوه تطور الخط الفارسي (التعليق) مع خط النسخ، أن ابتدعوا منهما خط التعليق وهو فارسي أيضا. وقد برع الخطاط عماد الدين الشيرازي الحسني في هذا الخط وفاق به غيره، ووضع له قاعدة جميلة، تعرف عند الخطاطين باسمه، وهي (قاعدة عماد).

وكان أشهر من كان يكتبه بعد الخطاطين الإيرانيين: محمد هاشم الخطاط البغدادي، ومحمد بدوي الديراني بدمشق، ولكن يبقي السبق للخطاطين الإيرانيين بلا منازع.

خـط الطغـرى

"الطغرة" أو الطغراء" أو الطغرى، هو شكل جميل يكتب بخط الثلث على شكل مخصوص. وأصلها علامة سلطانية تكتب في الأوامر السلطانية، أو على النقود الإسلامية أو غيرها، ويذكر فيها اسم السلطان أو لقبه. قال طه البستاني: "واتخذه السلاطين والولاة من الترك والعجم والتتر، حفاظاً لأختامهم، وقد يستعيض السلاطين عن الختم برسم الطغراء السلطانية على البراءات والمنشورات، ولها دواوين مخصوصة، على أن

الطغراء في الغالب لا تطبع طبعاً، بلْ ترسم وتكتب، وطبعها على المصكوكات كان يقوم مقام رسم الملوك عند الإفرنج".

وقيل: إن أصل كلمة "طغراء" كلمة تترية، تحتوى على اسم السلطان الحاكم ولقبه، وإن أول من استعملها السلطان العثماني مراد الأول. ويروى في أصل الطغراء قصة مفادها أنها شعار قديم لطائر أسطوري مقدس كان يقدسه سلاطين الأوغور الترك، وأن كتابة طغراء جاءت بمعني ظل جناح ذلك الطائر.

وقد اختلطت بهذه الرواية قصة طريفة للطغراء ونشوئها عند العثمانيين، وهي أنه لمَّا توترت العلاقات بين السلطان المغولي "تيمور لنك" حفيد "جنكيزخان"، وبين السلطان "با يزيد" ابن مراد الأول العثماني، أرسل تيمور لنك إنذاراً للسلطان بايزيد يهدده بإعلان الحرب، ووقع ذلك الإنذار ببصمة كفه ملطخة بالدم. وقد طورت هذه البصمة فيما بعد واتخذت لكتابة الطغروات بالشكل البدائي الذي كتبه العثمانيون. وأقدم ما وصل إلينا من نماذج شبيهة بالطغروات، ما كان ليستعمل في المكاتبات باسم السلطان المملوكي الناصر حسن بن السلطان محمد بن قلاوون 752هـ. وقد أدى كتابة الاسمِ على شكل الطغراء إلى التصرف في قواعد الخط. ويكون "الطغراء" في الغالب مزيجاً من خط الديواني وخط الثلث.

بهذه الخطوط (الخطوط العربية) دوِّنت معارف العربية المشهورة، والتي هي اثنا عشر علماً، على النحو التالي :

(1) النحو. (2) الصرف. (3) العروض. (4) القافية. (5) اللغة. (6) القرض. (7) الإنشاء. (8) الخط. (9) البيان. (10) المعاني. (11) المحاضرة. (12) الاشتقاق. (13) الآداب.

وقد جمعها الناظم في بيتين، فقال :

نحو وصرف عروض ثم قافيــــة　　　وبعدها لغـة قـرض وإنشــــاء

خط بيان معانٍ مع محاضـــرة　　　والاشتقاق لهـا الآداب أسمـــاء

خريطة العربية

تُعدُّ (العربيــة) أكثر اللغات السامية انتشاراً في العالم. وبالنسبة للمسلمين هي مصدر التشريع في الإسلام، وتُعدُّ أيضاً لغة الشعائر لعدد كبير من الكنائس المسيحية في الوطن العربي، مثل كنائس الروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، والسريان، وبعض الكنائس البروتستانتية، كما كُتِبت بها الكثير من الأعمال الدينية والفكرية اليهودية في العصور الوسطى. وقد بلغ عدد الذين يتحدثون العربية حوالي 700 مليون نسمة، يتوزعون في الوطن العربي، بالإضافة إلى العديد من المناطق الأخرى المجاورة؛ كالأهواز وتركيا وتشاد ومالي والسنغال وإريتريا، فضلاً عن الجاليات العربية في أوربا وأميركا[1].

وقد ساعد (القرآن) على حفظ هذه اللغة والارتقاء بها. بلْ فتح الباب واسعاً أمام كلِّ الأجناس والأعراق، لتحمل شرف الانتِماء إلى هذا اللسان المبين، فتسابَق أبناء الشعوب والحضارات الأخرى ممَّن عاشوا في كنف الإمبراطورية الإسلامية، إلى إجادة العربية، والتسابُق في الإبداع بها، وشارَكُوا في وضْع أسس قواعد مختلف العلوم العربية والإسلامية بها، وأصبحت أسماؤهم رموزًا بارِزة في مختلف فروع المعرفة، أمثال: (سيبويه) في النحو، و(الجرجاني) في البلاغة، و(البخاري) في الحديث، و(الزمخشري) في التفسير، وهكذا اتَّسع مفهوم (العربية) وثقافتها، لكيْ تتجاوَز الجنس العربي إلى ثقافة الإمبراطورية الإسلامية التي لم تقتَصِر فقط على علوم اللغة والدِّين؛ وإنما امتدَّتْ من خلال اللغة إلى الثقافة العلميَّة الإنسانية في الطب والجراحة، والرياضيات والجبر، والفلك والصيدلة، وظلَّت ترجمات الكتب العربية للأعلام مثل: ابن سينا، والزهراوي، وجابر بن حيَّان، وابن الهيثم، وابن النفيس، وغيرهم؛ تُشارِك في تمثيل كتب المعرفة العلميَّة في الجامعات الأوروبية حتى وقت ليس بالبعيد، انطِلاقًا من اتِّساع المفهوم، وثراء العربية، واستخدامها في المجالات الحيَّة للعلوم.

وقد استطاعت «العربية» في فتْرة انطلاقِها وتوسُّعها أن تُمَثِّل نموذج اللغة التي يحرِص المثقَّفون من غير أبنائها، على أَن يتحلَّوا بمعرفتها، بلْ استعارَتْ حروفَها

---

(1) **العربية لغة الوحي والوحدة**، محمد عبد الشافي القوصي، وزارة الإعلام، الرياض، 2001م.

كثيرٌ من اللغات الأخرى، خاصَّة اللغات الإسلامية، لكيْ تكتب بها كلماتها، ومن بينها: الفارسية في إيران وأفغانستان، والأوردية في الهند وباكستان، اللتان كانتا -وما تزالان- تُكتَبان بالحروف العربيَّة، لكن لغات إسلاميَّة أخرى كانت تكتب بالحرف العربي وتخلَّت عن ذلك الحرف؛ نتيجةً للتخطيط المُحكَم لمُحارَبة العربية في القرن العشرين، وفي مقدِّمة هذه اللغات: التركية التي غيَّرت حروفها إلى اللاتينية بعد سقوط الخلافة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتبعَتْها في ذلك اللغات المنتَشِرة في سهول آسيا الإسلاميَّة في منطقة تركستان، والتي تَقاسَم النفوذ عليها الصين والاتِّحاد السوفيتي السابق بعد الحرب العالمية، وعملوا على إزالة الحرف العربي وتحريم الكتابة به، كما حدث الشيء ذاته في اللغات الإفريقيَّة التي كانت تُكتَب بالحروف العربية، وعلى رأسها: اللغة السواحلية في شرق إفريقيا، والتي ظلَّت تُكتَب بحروف عربية حتى عام 1964م، حينما صدر قرار بإزالة الحروف العربية ووضع اللاتينية مكانها. وحدَث ذلك في اللغات الإسلامية في غرب إفريقيا.

ولقد حاوَلت تلك الحرب أن تمتدَّ إلى داخِل اللغة العربية ذاتها؛ فظهرتْ صَيْحات منذ أوائل القرن العشرين، تدعونا إلى أن نكتب -نحن أيضًا- لغتنا العربية بحروف لاتينية. وما زلنا نرى زحْف الحروف اللاتينية على المؤسسات والشوارع في كثيرٍ من المُدن العربية.

يقول ابن خلدون: «إنَّ غلبة اللغة بغلبة أهلها، وإنَّ منزلتها بين اللغات صورةٌ لمنزلة دولتها بين الأمم». فاللغة تحيا وتنتعش بانتعاش الذهنية التي تصدر عنها، وتمرض وتموت بموت الكيان الصادرة عنه». ومن يريد أنْ يعرف حالة الأمة -أيّ أمة- فلينظر إلى حالة لغتها من القوة والضعف، والانتشار والخمول. لذا؛ فالعربية في حالة (مد وجزر) مستمرة.

فمثلاً؛ قبل نزول (القرآن) كانت العربية حبيسة جزيرة العرب، لكن نزول الوحي بها؛ منحها أهمية كبرى، وأكسبها أرضاً جديدة، وصارت لغةً لبلادٍ وممالك وأقوام جدد.

فاختلطت في (الأندلس) باللهجات الإسبانية، وأثرتْ فيها تأثيراً قوياً، ولم تكن إسبانيا المنفذ الوحيد لولوج العربية إلى أوروبا، بلْ شكَّلت أيضاً بعض (المدن الإيطالية) قنطرةً أوْ وسيطاً من خلال عربية صقلية والبندقية وجنوا.

كما توغلت حتى (الصحراء الكبرى وشرق إفريقيا) مخلِّفة تراثاً كبيراً هناك. فقد قام التوسع الإسلامي بمد نفوذه بمحاذاة (السافانا) وقد أطلق العرب على هذه

المنطقة، اسم «بلاد السودان». وكانت هذه الشعوب تتكلم لغة (الهوسا) المتضمنة لمجموعة من الكلمات المقترضة من العربية. كما أقام العرب على (الساحل الشرقي للقارة الإفريقية) علاقات تجارية مع سكان هذه الشعوب المتجمعين في منطقة الصومال والموزمبيق، والمتكلمين لغات البانتو.

أيضاً، انبثق تراث ساحلي في (زنزيبار) نتيجة التلاقح الثقافي بين كل من العربية والسواحلية في القرن الثاني عشر الميلادي، ليحل محلها التأثير الإنجليزي إبان فترة الاستعمار.

لكن سرعان ما عادت «العربية» لغة رسمية بعد استقلال المنطقة عام 1964م.

في حين ظلت «العربية» في كل من (كينيا، وتنزانيا) مرتبطة بالتعليم القرآني. وقد شهدت السنوات الأخيرة نزوعاً قوياً نحو العربية لدى سكان هذه المناطق؛ بغية إحلالها محل الإنجليزية، ترتب على ذلك عملية دمج عالية، صاحبها اقتراض لغوي من العربية.

أمَّا في (**إيران**) فقد ارتبطت العربية بنزعة سياسية، إذْ احتلت مكانة رفيعة بعد الفتح الإسلامي، ثمَّ انحسرت لظروف سياسية، وصار دورها محصوراً في كونها لغة القرآن. عِلماً بأنَّ «الفارسية» تقترب كثيراً من «العربية»؛ لأنها تكتب بالخط العربي، وتتضمن عدداً هائلاً من الكلمات المقترضة من العربية. وإنْ كانت الفارسية قد طورت نظامها الخاص بها؛ مثل اندماج مجموعة من الأصوات في صوت واحد (الثاء والشين والسين) باتت تنطق (سينا). كما تستخدم توليفات مصحوبة بضمائر المفعول في التركيب الصوتي للفعل العربي مع احتوائها للفعل الفارسي (كردن).

وفي (**تركيا**) تعاقب كل من (العربية، والفارسية، والتركية) وذلك ابتداءً من الفتح الإسلامي مروراً بالخلافة العثمانية وانتهاءً بالجمهورية التركية. لكن «العربية» احتفظت بميزتها الأساس في كونها لغة الدِّين والقرآن الكريم، حتى بعدما أصبح موقفها ضعيفاً. وقد سبق أنْ اقترضت كل من العثمانية والتركية عدداً كبيراً من الكلمات العربية؛ تجلى في استخدام صيغ الجمع، والتغييرات المركبة من كلمات عربية الأصل.

وفي (**شبه القارة الهندية**) ساعدت تجارة المسلمين على نسج علاقات بين الهند والعالم الإسلامي، إذْ كانت لغة الأوردو -المتضمنة للعديد من الكلمات الفارسية- هي لغة التواصل بين المسلمين والهندوس تحت حكم «الغزنويين». لكن الاحتلال الإنجليزي أحدث اضطراباً أسفر عن استخدام «الأوردو» للحروف العربية-الفارسية باعتبارها لغة رسمية في باكستان.

وبعد انفصال باكستان؛ استخدمت الهند اللغة بأسلوب مغاير؛ الهندي بخط (ديفاناجارى).

وعندما بدأت الصلات بين شرق آسيا والعالم الإسلامي في القرن التاسع عشر الميلادي كانت اللغة «الملاوية» لغة كل من (شبه جزيرة الملايو وإندونيسيا). فلم تستطع العربية احتلال مكانة رفيعة بهذه المناطق، إلاَّ أنها استطاعت أن تؤثر في الوضع اللغوي لكونها لغة القرآن. لاسيما أن «إندونيسيا» أكبر معاقل المسلمين خارج العالم العربي، فاحتلت العربية مكانة رفيعة باعتبارها لغة الدين الإسلامي. لذا؛ تضم الإندونيسية عدداً هائلاً من الكلمات العربية.

وتُعدُّ الجيوب اللغوية عنصراً مهماً في دراسة الاتصال اللغوي، لكونها لم تتعرض لضغوط العربية الفصحى رغم وجودها بالعالم العربي، باستثناء «المالطية»؛ التي تضم مزيجاً من اللغات، وذلك ابتداء من الفتح الإسلامي عام 256 هـ مروراً بغزو النرميين سنة 445 هـ، انتهاء بحلول الإنجليزية محل الإيطالية سنة 1814م.

وقد أدى الكم المتدفق من الكلمات على المالطية إلى تغيير في البنية الصرفية لهذه اللغة. كذلك هناك اندماج عدد من الصوامت من أصل عربي؛ حيث حلَّت القاف محل الهمزة، واختفى كل من العين والغين والهاء.

إلى جانب المالطية؛ نجد عربية (موارنة قبرص)، وهم أقلية في قرية «كورماكيتي» شمال غرب قبرص. ويرجع تاريخ دخول العرب لها في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين.

وتتضمن عربية قبرص، سمات كثيرة مشتركة مع كل من اللهجتيْن الحضريتيْن السورية والعراقية. كما تتميز هذه اللغة ببعض الخصوصيات، مثل :

أولاً : تطوير الأصوات الانفجارية العربية، ويرجع ذلك إلى تأثير اليونانية.

ثانيا : تخفيض عدد الصيغ الصرفية: عدد صيغ جمع الاسم.

ثالثا : وجود كلمات يونانية مقترضة تمتد إلى المجالات الرسمية.

كذلك؛ ظلت العربية في (الأناضـول) ـ تركيا ـ حاضرة رغم تعاقب كل من السلاجقة والعثمانيين.

وتقسَّم اللهجات العربية هناك إلى خمس مجموعات: مجموعة ديار بكر، ومجموعة مردين، ومجموعة سيرت، ومجموعة كوزلوك، ومجموعة ساسون.

وتوجد بين هذه المجموعات تباينات عدة، تخص النواحي الصرفية والصوتية مع وجود تجديدات لغوية مهمة. كما تتضمن لهجات الأناضول العربية عدة كلمات مقترضة من التركية والكردية بشكل يجعلها مميزة لهذه اللهجات.

أمَّا في (**أوزبكستان وأفغانستان**) ففيهما عربية قريبة من اللهجات العراقية الحضرية، ويرجع العلماء الأصول العرقية للعربيتيْن؛ إلى غزوات «تيمور لنك» في القرن الثامن الهجري. فقد جلبها معه من قبيلة قريش. لذا نرى تلك الجماعات تفتخر بأصلها العرقي.

وتختلف اللغتان في احتفاظ الأفغانية بصوتي (الحاء والعين) اللذيْن اختفيا من الأوزبكية. ولمَّا كانت هذه الأخيرة ذات جذور متفرعة من اللهجة العراقية الحضرية، فقد عكست الكثير من سماتها، رغم أنها قد طورت نظامها الخاص بها مثل مخالفة ترتيب الجملة العربية، إذْ نجد (مفعول- فاعل- فعل) مع اختفاء أداة التعريف الموجودة بالعربية الفصحى.

وهناك كذلك اسم (كريول) الذي يطلق على اللهجة التي خضعت لعملية تهجين لغوي' عبر الانتقال من نمط لغوي مبسط -يوظَّف في التواصل- نحو لغة ثانية مساعدة على التواصل اكتسبت صفة اللغة الأم بفعل تعاقب الأجيال. ويُعدُّ «الكريول» المستخدم حالياً في كل من (جنوب السودان، وكينيا، وأوغندا)، عربية مهجنة اكتسبت في معسكرات الجيش المصري بالسودان. وقد انبثقت منها لغة ستحتل قريباً مرتبة اللغة الأم، هي (عربية جوبا) التي قلَّصت من نظامها الصوتي باختفاء مجموعة من الأصوات مثل الحاء والعين مع دمج الأصوات المفخمة في نظيرتها غير المفخمة. غير أنها لا تفرِّق بين صيغ المفرد والجمع، كما اقترضت كلمات أجنبية من الإنجليزية والبانتو من الناحية المعجمية.

ولا ننسى الهجرات العربية باتجاه (أوروبا وأميركا) وما صاحب ذلك من تحولات لغوية لدى المهاجرين. ويمكن التمييز بين نوعين من الهجرة إلى الغرب:

الأولى : هجرات اللبنانيين نحو أميركا في بداية القرن التاسع عشر الميلادي؛ اللذين ينتمون لطبقات متعلِّمة، ومنهم أدباء وشعراء وكتَّاب.

الثانية : هجرات المغاربة (من دول المغرب العربي) من أصول بربرية باتجاه أوروبا، ومعظمهم عمال، وحرفيين.

وقد تركت «اللغة الثانية» إشكالية، اصطدم به المهاجرون، أدت إلى تحول لغوي مسَّ الأبناء. وقد تمثل هذا التحول في تغيير على مستوى النظام الصوتي، مع تغيير أوْ خلط شفرة الخطاب، أوْ فقدان اللغة الأصلية في بعض الأحيان.

وجدير بالذكر؛ أنَّ حكومات (المهجر) قد منحت أهمية لهذه الأقليات، بنهج سياسة تعليمية تراعي خصوصية لغتهم الأصلية في كل من السويد وهولندا، إلاَّ أنَّ هذه السياسات وجدت صعوبات؛ لكون المتعلمين المنحدرين من أصول مغاربية كثير منهم من «البربر»، يصعب معهم تحديد النوع المستخدم في عملية التعليم.

كما يصعب تقصّي مسار العربية في المهجر لتداخل مجموعة من العوامل، منها ما هو ديني، وما هو ثقافي، وما هو سياسي أيديولوجي.

الخلاصة؛ (العربية) ذات تأثير ملحوظ في كل الأزمنة والأمكنة التي تحلّ بها، و(العرب) لهم بصمة واضحة عند اتصالهم بالشعوب الأخرى، وقد أدى هذا الاحتكاك إلى التأثير القوي، ليس فقط في مفردات تلك اللغات، بلْ أيضاً في بنيتها الصرفية النحوية.

ونظراً لأنَّ كثيراً من اللغات المعاصرة آيلة للسقوط والاندثار؛ فمن المرجَّح أن تحل (العربية) محلها، وترث عروشها، وتبسط لسانها الطاهر مكانها.

لكن بشرط أنْ تستجمع «العربية» قُواها لمواجهة متطلَّبات الحاضر والمستقبل في المجال المعرفي والحضاري، وأنْ تقوم بدورها الحقيقي في المحافظة على الهُويَّة، واستِعادة ملامِحها المهدَّدة بالضَّيَاع في ظل تصارع الحضارات. فهل أنتم فاعلون؟.

مزايا لغة الضاد

إذا كانت اللهجات واللغات تحتاج إلى ذِكر مناقبها، والإشادة بمكانتها، والترويج لمكاسبها، فإنَّ (العربيــة) لا تحتاج إلى شيء من ذلك، بعدما تخطَّتْ اليابس والماء، وشهد لها الأكابر من غير أهلها، وقد خصصنا لتلك الشهادات مبحثاً مستقلاً في أواخر هذا الكتاب.

حسب العربية؛ أنها نزلت بها آخر رسالات السماء وأكملها، فضمن لها الحفظ والخلود الأبدي﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: 9].

وكما هو معلوم، أنَّ (القرآن) رسالة عالمية؛ فمن المنتظر في هذه الرسالة أن تحمل أسمى المعاني في أوجز الكلمات وأوضح وأدق المعاني، وأنْ يحتاج غيرها إليها ولا تحتاج إلى غيرها، وأنْ تكون صالحة لكلِّ زمان ومكان؛ لأنَّ هذه الرسالة باقية إلى آخر الدهر.

هذه ميزات لا تتوفر في أيَّة لغةٍ أخرى، وهذه حقيقة علميَّة أثبتَتها الأُمَم المتحدة؛ حيث أصدرتْ بيانًا بعدد اللغات التي ماتت خلال القرن العشرين، واللغات المتوقع موتها في القرن الحادي والعشرين، ومن بينها: العربية. لكن الله -سبحانه- قيَّض جامعة «برمنجهام Bermengham» البريطانية؛ لتُثبِت خطأ هذا التوقُّع؛ حيث أثبتَت أنَّ «العربيــة» لغة خالدة.

بلْ حدَّدت -تلك الجامعة- للُّغات الكبرى في العالَم عمرًا محددًا بعدَه تنقرض هذه اللغات، فكان من بينها «اللغة الإنجليزية» التي ستموت في خلال قرن ونصف من الزمان، و«اللغة الفرنسية» التي ستموت خلال ثلاثة أرباع قرن.[1]

لذلك؛ سارعت بعض الدول الكبرى؛ تُقَيد تاريخها باللغة العربية، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا؛ وهذا يدلُّ على ثَبات (العربية) وتماسكها وتفكك اللغات الأخرى. فقد أثبتت ذات الجامعة أنَّ جميعَ اللغات تحوي أسباب فنائها إلاَّ العربية؛ فإنها خالية من كلِّ الآفات التي تؤدِّي إلى اندثار اللغات وزوالها.

---

(1) **فضائل لغة القرآن**، حسن محمد فؤاد، بحث غير منشور.

في هذا الصدد؛ سنعرض مميِّزات (لغة الضـاد)، مع مقارنة هذه الميزات مع بعض اللغات العالمية الشهيرة، لنرى أيّ اللغات حاز من أسباب التفاضل والتكامل على الأخرى.

الميزة الأولى : (الفصاحـة)

الفصاحة في اللغة : خلوُّ الشيء ممَّا يَشُوبه، ومن شروط فصاحة الكلام، خلوُّه من :

أ. تنافُر الكلمات : وهذا يتَّصِل بالأصوات أيضًا؛ لأنَّه مبنيٌّ على تكرار صوتٍ ما بنسبة معيبة.

ب. ضعف التأليف اللفظي : بجريانه على خلاف المشهور من القواعد، وهذا يتَّصِل بالنحو.

ج. التعقيد اللفظي : وذلك باضطراب مرجع الضمير وغير ذلك: وهذا يتَّصِل بعلم النحو.

د. التعقيد المعنوي : وذلك بصعوبة الوُصُول من المعنى الأساس للكلمات إلى المعنى المُرَاد : وهذا يتَّصل بعلم البيان.

يقول الفارابي: «هذا اللسان كلامُ أهل الجنة، وهو المنَزَّه من بين الألسنة من كلِّ نقيصة، والمعلى من كلِّ خسيسة، والمهذب ممَّا يُستَهجَن أو يُستَشنَع، فبنى مبانِي بايَن بها جميع اللغات من إعرابٍ أوجَدَه الله له، وتأليف بين حركة وسكون حلاَّه به، فلم يجمع بين ساكنَيْن، أو متحرِّكَيْن متضادَّيْن، ولم يلاقِ بين حرفَيْن لا يأتلفان، ولا يعذب النطق بهما أو يشنع ذلك منهما في جرس النغمة وحس السمع، كالغين مع الحاء، والقاف مع الكاف، والحرف المطبق مع غير المطبق؛ مثل: تاء الافتِعال، والصاد مع الضاد في أخواتٍ لهما، والواو الساكنة مع الكسرة قبلها، والياء الساكنة مع الضمة قبلها، في خلال كثيرة من هذا الشكل لا تُحصَى». [1]

الميزة الثانيـة: (التـرادُف)

وهذه ميزة مُترتِّبة على سابقتها ونتيجة لها، فما هو الترادف؟

«الترادف» هو التتابُع. أوْ دلالة عدد من الكلمات المختلفة على معنى واحد؛ مثل:

---

(1) **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**؛(1/ 272) جلال الدين السيوطي.

(**الحزن**): الغم، الغمة، الأسى، والشجن، الترح، الوَجْد، الكآبة، الجزع، الأسف، اللهفة، الحسرة، الجوى، الحرقة، واللوعة.

وليس في اللغة العربية ترادف تامٌّ، إنما المترادفات تشتَرِك في معنى عام، ثم تختصُّ كلُّ مفردة عن الأخرى بزيادة معنى ليس في غيرها.

وهنا تظهر بلاغة العربية؛ فهي لُغة دقيقة في تعبيراتها، لا تعبِّر بمعنى فضفاض الدلالة، ثمَّ هي لا تحتاج إلى كلماتٍ كثيرة لإيصال المعنى؛ بلْ الكلمة الواحدة تحمل معاني كثيرة.

الميزة الثالثة : (الأصوات ودلالتها على المعاني)

لقد ثبت أنَّ أصوات بعض كلمات العربية تدلُّ على معناها بمجرد سماع صوت الكلمة، بلْ إنَّ بعض الكلمات قد يُفهَم معناها العام أوْ معناها بدقة من خلال أصوات المتكلم.

وفي هذا؛ يقول ابن خلدون: «الملكات الحاصِلة للعرب أحسن الملكات وأوضحها إبانةً عن المقاصد لدلالة غير الكلمات على كثيرٍ من المعاني؛ مثل الحركات التي تُعيِّن الفاعل من المفعولِ والمجرور -أيْ: المُضاف- ومثل الحروف التي تُفضِي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلُّف ألفاظ أخرى. ولا يوجد ذلك إلاَّ في لغة العرب، وأمَّا غيرها من اللغات، فكلُّ معنى أو حال لابدَّ له من ألفاظ تخصُّه بالدلالة؛ ولذلك نجد كلام العجم في مخاطبتهم أطول ممَّا تقدِّره بكلام العرب...».

الميزة الرابعة : (سعة المفردات)

لا توجد لغةٌ على وجه الأرض يحوي قاموسها ما يَحوِيه المعجم العربي من مفردات، وهذه حقيقة واقعة شهد بها جحافل المستشرقين، فاللغة العربية هي لغة الغِنَى والثَّراء. وقد قال الإمام الشافعي: «لسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا».

فلا يُمكِن لأحدٍ إحصاء جميع الألفاظ العربية إلاَّ نبيّ، مهما بلَغ في اللغة شأوًا بعيدًا، وفي العربية كثيرٌ من الأسماء لمسمًّى واحد؛ كأسماء: (السيف، والرمح، والأسد، والحية، والعسل، والملبس، والعفو، والعشق، وغيرها). وممَّن ألف في المترادف العلامة مجد الدين الفيروزآبادي صاحب **«القاموس»**، ألَّف فيه كتابًا سماه: **«الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف»**، وأفرد خلقٌ من الأئمَّة كتبًا في أسماء أشياء مخصوصة، فألَّف

ابن خالويه كتابًا في «أسماء الأسد»، وكتابًا في «أسماء الحية»، ذكر أمثلة من ذلك «العسل» له ثمانون اسمًا، أورَدَها صاحب «القاموس» في كتابه الذي سمَّاه: **«ترقيق الأسل لتصفيق العسل»**.

يقول ابن فارس: «وممَّا لا يُمكن نقله، البتَّة أوصاف السيف والأسد والرمح وغير ذلك من الأسماء المترادفة، ومعروفٌ أنَّ العجم لا تَعرِف للأسد أسماء غير واحد، فأمَّا نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم». (1)

ويقول أيضًا: «حدثني أحمد بن بندار قال: سمعت أبا عبد الله بن خالويه الهمذاني، يقول: جمعتُ للأسد خمسمائة اسم، وللحيَّة مائتين».

وهذا الذي صرَّح به ابن فارس؛ يُقرِّره جميع علماء اللغة المعاصِرين. قال الدكتور علي عبد الواحد وافي : «إنَّ البروفيسور دو هامر De Hammer جمَع المفردات العربية المتَّصِلة بالجمل وشؤونه، فتجاوزتْ أكثر من خمسة آلاف وستمائة وأربع وأربعين».

ويقرِّر «علـي وافـي» أنَّ من أهمِّ ما تَمتاز به العربيَّة أنها أوسع أخواتها السامية ثروةً في أصول الكلمات والمفردات؛ فهي تشتَمِل على جميع الأصول التي تشتَمِل عليها أخواتها السامية أو على معظمها، وتزيد عليها بأصولٍ كثيرة احتَفظَتْ بها من اللسان السامي الأول، وأنَّه تجمع فيها من المفردات في مخْتلف أنواع الكلمة؛ اسمها وفعلها وحرفها، ومن المترادفات؛ في الأسماء والصفات والأفعال. ما لم يجتمع مثله للغة سامية أخرى؛ بلْ يندر وجود مثله في لُغة من لغات العالم». (2)

ويقول المستشرق الألماني نولدكه : «إنه لابدَّ أن يزدادَ تعجُّب المرء من وفرة مفردات اللغة العربية، عندما يعرِف أنَّ علاقات المعيشة لدى العرب بسيطة جدًّا؛ ولكنَّهم في داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدقيق في المعنى بكلمة خاصة. والعربية الكلاسيكية ليست غنيَّة فقط بالمفردات؛ ولكنَّها غنيَّة أيضًا بالصِّيَغ النحوية).

وعدد الألفاظ المُستَعمَلة من اللغة العربية خمسة ملايين وتسعة وتسعون ألفًا وأربعمائة لفظ، من جملة ستَّة ملايين وستمائة وتسعين ألفًا وأربعمائة لفظ، بينما نجد غيرها من اللغات الأوربية لا يبلغ عدد مفرداتها معشار ما بلغتْه مفردات العربية.

---

(1) **«الصاحبي»** لابن فارس.

(2) **فقه اللغة**، د. علي عبد الواحد وافي.

الميزة الخامسة : (عِلم العروض)

وهو العلم الذي به تُعرَف أوزان الشِّعر العربي. يقول ابن فارس: «ثم للعرب العَرُوض الذي هو ميزان الشِّعر، وبه يُعرَف صحيحه من سقيمه».

وقد أشار كثير من المستشرقين إلى اختِصاص العربية بعلم العَرُوض، فقال المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون في بحثٍ له بعنوان «مقام الثقافة العربية بالنسبة إلى المدنية العالمية»: «وأمَّا في علوم اللغة؛ فإنَّ الفكر السامي لَم يَصِل إلى علم العروض إلاَّ عند العرب».

وقد أفاض «عباس العقاد» في بحث «الخاصية الموسيقيَّة للغة العربية» في كتابه «**اللغة الشاعرة**»، وهو يَعنِي باللغة الشَّاعرة: اللغة التي بُنِيت على نسق الشِّعر في أصوله الفنية والموسيقية؛ فهي في جملتها فنٌّ منظوم مُنَسَّق الأوزان والأصوات، لا تنفصل عن الشِّعر في كلامٍ تألَّفت منه، ولوْ لمْ يكن من كلام الشعراء. وهذه الخاصية في اللغة العربيَّة ظاهرةٌ من تركيب حروفها على حِدَةٍ، إلى تركيب مفرداتها على حِدَةٍ، إلى تركيب قواعدها وعباراتها «إلى تركيب أعاريضها وتفعيلاتها في بنية القصيد».

الميزة السادسة : (الثبات الحر)

العربيَّة من اللغات القلائل الثابتة الأصول، المَتِينة البنيان، الممتدَّة العمر، يفهَم الآخِر فيها ما كتَب الأوَّل، وتمخر نصوصها عبر العصور والقرون، ويَتواصَل أبناؤها عبر الزمان والمكان، فما قاله (امرؤ القيس، والنابغة، وعنترة) في أقدم عصورها، حاضِر ماثل اليوم يتغنَّى به الشُّعَراء والكُتَّاب، بْل يتعلَّمه التلاميذ والطلاَّب، ويَسِير في الناس مسير الأمثال.

على حين لا يفهم الإنجليزيُّ المعاصر كثيراً مما كتَبَه شكسبير قبلَ بضع مِئات من السنين.

يقول د. حسين نصار: «إنَّ أكبر تَحدٍّ واجهَته العربية كان عندما أخرَجَها الإسلام من جاهلية غنية كل الغِنَى في الإبداع الأدبي، فقيرة كل الفقر إلى حدِّ الإملاق في الإنتاج العلمي، ثُمَّ ألقى بها في القرنيْن الثاني والثالث الهجري في بحر زاخر من الحضارات والعلوم، والفلسفات والفنون، وكل صنوف المعرفة التي ابتَكَرَتْها الأُمَم المُتاخِمة للجزيرة العربية؛ كالفرس والروم، والسريان والمصريين، والأمم البعيدة عنها؛ كالهنود والصينيين، والأتراك والبربر، وشعوب إسبانيا، ولكنَّ العربيَّة صمدت

لهذا التحدِّي، بفضل ما بثَّه الإسلام في العرب من رغبةٍ في المعرفة، وسعي في طلبها، وطموح وعزْم، وتخطيط وتنفيذ، وتعاون مع غير العرب من أبناء الشعوب العارِفَة باللغات الأجنبية واللغة العربية، فلمْ يَمضِ وقتٌ طويلٍ حتى نقلت العربية كلَّ ما وجدت عند هذه الأُمَم إليها، فاستَطاع أبناؤها بعدُ أن يتمثَّلوها فهمًا، ولمْ يمضِ وقت طويل حتى شارَكوا في الإنتاج والابتِكار، فصار ما كتَبَه هؤلاء المفكِّرون والعُلَماء منذ القرن الثالث نبراسًا استَضاءت به شعوب العالم، لا يستَطِيع أن يُنكِر ذلك إلاَّ مُنكِرٌ لعقله، مُنكِرٌ لتاريخ الإنسان وتطوُّره الحضاري». [1]

ومع هذا التحدِّي الكبير، فلمْ تنخَرِط اللغة في غيرها من اللغات؛ بلْ ظلَّت محافِظة على هُويَّتها، متماسِكة لا تذوب في غيرها من اللغات، بلْ يذوب غيرها فيها.

أجل. تميزت العربية بالثبات، وهذا الثبات لا يَعنِي الجمود وعدم التطور، فهي متطورة في إطارٍ ثابت، طيِّعة صالحة لكلِّ زمان ومكان، لكلِّ عصر ومصر، من خلال أُطُر وقواعد تحفَظ عليها رونقها وأصولها. لذلك لم يطلها ما طال اللغات الأخرى من تطور أدى في النهاية إلى اندثارها، أو تطوُّرها تطوُّرًا نشأ عنه مراحل من اللغة لا يفهَم اللاحق منها السابق، فقد اندَثَرت اللغة اللاتينية، ونشأ عنها اللغات الأوربية المتعدِّدة، وتطوَّرت اللغة الإنجليزية، فصار مَن يدرس الإنجليزية الحديثة لا يفهَم الإنجليزية الوسيطة، فاحتاج دارِس الإنجليزية إلى ترجمة روايات شكسبير ليَفهَمها، أمَّا العرب فهم يقرؤون ما كُتِبَ منذ عشرات القرون ويفهمونه، بلْ يشعرون به ويعيشون مشاعر قائلِه الأوَّل.

لكن؛ لماذا لَم تتبدَّل العربية، في حين تبدَّل غيرها وتغيَّر؟.

أثبتَتْ جامعة «برمنجهام» أنَّ كلَّ اللغات تَحوِي صفات ذاتية فيها، تؤدِّي إلى تطورها وتغيرها عبر الأزمان؛ لأنهم يرَوْن أنَّ لكلِّ لغةٍ عمرًا كعمر الإنسان من الطفولة إلى الكهولة ثم الموت، وقد أثبَتوا أنَّ «العربية» خاليةٌ من هذه الأسباب؛ لأنها تحوي سِمات تجعلها تُجدِّد نفسَها من داخلها لتُناسِب العصر والتجديد.

هذه المميزات، هي: الاشتِقاق والترادُف والتعريب. وغيرها من الآليَّات التي تستخدمها العربية لتُجدِّد خَلاياها حتى تُناسِب العصر والمُحدَثات، مع احتفاظها بأُصُولها وألفاظها وقواعدها، فهي لُغة الأدب والعلم والحضارة.

---

(1) من كلمته التي ألقاها بمناسبة حصوله على جائزة فيصل العالمية، في الرياض، ذو الحجة 1425هـ.

ومع هذا الثبات، فهي لغة حرَّة مَرِنَةٌ. يقول «عباس العقاد» في مقدمة كتاب **«الصحاح»**؛ للأستاذ العطار: «ولقد قيل كثيرًا: إنَّ اللغة العربية بقيت لأنها لغة القرآن، وهو قول صحيح لا ريب فيه، ولكن القرآن الكريم إنما أبقى اللغة؛ لأنَّ الإسلام دين الإنسانية قاطبة، وليس بالدين المقصور على شعب أو قبيل، وقد ماتت العبرية وهي لغة دينية أو لغة كتاب يَدِين به قومه، ولم تمت العبرية إلاَّ لأنها فقدت المرونة التي تجعلها لغة إنسانية، وتُخرِجها من حظيرة العصبيَّة الضيِّقة بحيث وضعها أبناؤها منذ قرون».

الميزة السابعة : (التخفيف)

نقصد التخفيف في الحروف، فالعربية تغلب عليها الأصول الثلاثيَّة ثمَّ الرباعية فالخماسية، أمَّا اللغات الأخرى فلا نجد بها هذه الميزة، فالكلمات الثلاثية في اللغات الأخرى قليلة.

يقول ابن فارس: «وممَّا اختصَّت بِهِ لغةُ العرب قلبهم الحروف عن جهاتها؛ ليكون الثاني أخفَّ من الأوَّل، نحو قولهم: (ميعاد) ولم يقولوا: (مِوْعاد)، وهما من (الوعد)، إلاَّ أنَّ اللفظ الثاني أخفُّ، ومن ذلك تركُهم الجمعَ بين السَّاكنين، وقد تجتمع فِي لغة العجم ثلاث سواكن».

ويقول ابن جنِّي، في **«الخصائص»**[1] : «إنَّ الأصول ثلاثة: ثلاثي ورباعي وخماسي، فأكثرها استعمالاً وأعدلها تركيبا الثلاثيُّ؛ وذلك لأنَّه حرف يُبتَدأ به، وحرف يُحشَى به، وحرف يُوقَف عليه». ثم يقول مُبيِّنًا الحكمة من غلبة الثلاثي: «فتمكُّن الثلاثي إنما هو لقلَّة حروفه».

وبمقارنة بعض الكلمات العربية ومقابلها في اللغات الأوربيَّة سيتَّضح ما قرَّرناه، بحسب أنْ نقارن الكلمة العربية بأهم ثلاث لغات حية وشهيرة (الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية) :

العربية	الإنجليزية	الفرنسية	الألمانية
مبنى	building	Le batiment	Das gebaude
جامعة	university	L`universite	Die universitat
مكتبة	library	La bibliotheque	Die bucherei

(1) **الخصائص**، لابن جنِّي.

الألمانية	الفرنسية	الإنجليزية	العربية
Die unterhaltung	Les divertissement	entertainment	تسلية
Der vater	Le pere	Father	أب
Die mutter	La mere	Mother	أم
Der Gross vater	Le grand-pere	Grand-father	جد
Die Gross mutter	La grand-mere	Grand-mother	جدة
Der Bruder	Le frѐre	brother	أخ
Die schwester	La soeur	Sister	أخت

ففي هذا الجدول؛ نلاحظ أنَّ الكلمات القصيرة في العربيَّة (ذوات الحرفَيْن أوْ الثلاثة أوْ الأربعة) تُقابِلها كلماتٌ طويلة في اللغات الأوربيَّة قد تصل إلى عشرة أحرف أو تَزيد. ومن المعروف أنَّ أقصى ما تصل إليه الكلمات العربيَّة بالزيادة سبعة أحرف في الأسماء؛ كما في: (استِخراج، واستعمار)، وستَّة في الأفعال كما في: (استخرَج، واستعمر)، في حين أنَّ الكلمات في اللغات الأوربية قد تصل إلى خمسة عشر حرفًا أوْ أكثر، كما في internationalism بمعنى الدولية، و incomprehensible بمعنى غامض في الإنجليزية، وenstschuldigung بمعنى معذرة في الألمانية.

هذه الخاصيَّة لها فوائد جمَّة في العربية؛ ففيها توفير للوقت والجهد والمال؛ فالنطق بالكلمات الصغيرة أخفُّ على اللسان، وأسرع في الكتابة من الكلمات الطويلة.

قد يقول قائل: إنَّ الجذور الثُّلاثية من سمات اللغات السامية عمومًا.

نقول : أكثر الساميَّات اليوم غير مستعمل إلاَّ نادرًا، وهذا القليل النادر غير مُطابِق في أكثره لقواعد الساميات القديمة، فصحَّ أن تُعَدَّ هذه سِمَة من سِمات العربية.

الميزة الثامنة : (الإيجاز)

يعدّ «الإيجاز» ميزة تنفرد بها العربية، ونظراً لأنَّ قضية الإيجاز واسعة جدًّا؛ لذا سنقسمها أقسامًا؛ ليسهل تناوُل كلِّ قسمٍ على حِدَة، مع المقارنة باللغات الأخرى ليتَّضِح الفارق.

بدايةً نذكر القاعدة التي ذكَرَها ابن مالك في ألفيَّته، هذه القاعدة المطَّردة في العربية: وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ ... .

والمقصود بالإيجاز هنا، أنه: «ما يستغني عن زوائد الكلام، ويحتفظ بالمعنى المُراد».

وهذه القاعدة تبيِّن لنا بجلاءٍ إلى أيِّ حدٍّ هذه اللغة رقيقة وحسَّاسة، لا تتحمَّل الزيادات غير المُفِيدة، ولا تقبل حشوًا، فالحرف في العربيَّة يُغيِّر المعنى. وسنقسِّم الإيجاز إلى ثلاثة أقسام :

(إيجاز في الحروف - إيجاز في الكلمات - إيجاز في التراكيب والجُمل).

أولاً : الإيجـاز في الحـروف :

أ. تُكتَب الحركات في العربية فوق الحرف أوْ تحته، فلا تأخذ حيِّزًا في الكتابة، بينما في اللغات الأجنبية تأخذ حجمًا يُساوِي حجم الحرف أوْ يَزِيد عليه، وقد نحتاج في اللغة الأجنبية إلى حرفين مقابل حرف واحد في العربية لأداء صوت مُعَيَّن؛ كالخاء (KH) مثلاً، ولا نكتب من الحروف العربية إلاَّ ما نحتاج إليه.

ب. وفي العربيَّة إشارات وعلامات تُعَزِّز هذا الإيجاز؛ منها: إشارة نُسمِّيها (الشدة)، نضعها فوق الحرف لندلَّ على أنَّ الحرف مكرَّر أوْ مشدَّد؛ أيْ: إنَّه في النطق حرفان، وبذلك نستَغنِي عن كتابته مكرَّرًا، في حين أنَّ الحرف المكرَّر في النُّطق في اللغة الأجنبية مكرَّر أيضًا في الكتابة، مثل : (flapper) و(recom-mendation)، وفي العربيَّة قد نستَغنِي بالإدْغام عن كتابة حروف بكاملها، وقد نلجأ إلى حذف حروف، فنقول ونكتب: (عَمَّ) عِوَضًا عن (عن ما)، و(مِمَّ) عِوَضًا عن (من ما)، و(بِمَ) عِوَضًا عن (بما)، ومثلها (لِمَ) عِوَضًا عن (لِما).

ج. أداة التعريف التي نستَعملها هي (أل)، وتكتب متَّصِلة بالكلمة، والاتِّصال في الكتابة أسهل وأوْفر وقتًا، أمَّا التنكير فيكون بعدم وجود (أل)، وفيه مزيد اختصار، فالعربيَّة تستَثمِر انعِدام الأداة كما تستَثمِر وجودها.

ثانيًا : الإيجـاز في الكلمات :

أ. ليس في العربية أفعالٌ مُساعِدة نتوسَّل بها لإقامة المعاني، فنقول: (أنا سعيد، وهو يكتب) مباشرة، والفعل قد يستَتِر فاعله فلا يُكتَب، وقد يتَّصِل بالفعل نفسه فيكون ضميرًا.

ب. الحرف الواحد في بعض الأحيان يُشكِّل جُملةً واحدةً، نفهَم منها الفعل والفاعل والمفعول؛ مثال ذلك قولنا: (فِ)، فإنَّ هذا الحرف إنما هو جُملة، فيها أمرٌ مُوجَّه للمُخاطَب وهو الفاعل هنا، ليفعل هذا العمل وهو الوفاء.

ج. الحركات أيضًا هي نوعٌ من أنواع الإيجاز؛ فبالحركة نستَطِيع التفريق بين الكلمات المختلفة؛ كـ«فرَح» الاسم، و«فَرِحَ» الفعل، وبين نوعين من أنواع الاسم؛ كـ«فرِح» صيغة المبالغة، و«فَرَح» المصدر، وبين فعلٍ معلوم الفاعل «كَتَب» وآخَرٍ مجهول الفاعل «كُتِب»، وإذا ترجمنا هذه الكلماتِ إلى أيَّة لغةٍ من لغات العالَم؛ سنجد أنَّنا نحتاجُ إلى أكثر من كلمةٍ لا كلمة واحدة، أو إلى كلمةٍ وبها لواحق أو سوابق لتُعطِي نفس المعنى الذي أفادَتْه الكلمة العربية الواحدة التي لا تحتاج إضافة كلمات، إنما هي الحركة على الحرف، وحسب.

د. في العربية قد نستَغنِي بحرفَيْن عن كلمات كاملة؛ ففي حالة (التثنية)، فالعربية ليست كاللغات التي تُهمِل حالة التثنية لتنتقل من المفرد إلى الجمع، وتكون التثنية بإضافة حرفَيْن إلى المفرد ليصبح مثنى (الباب - البابان - البابين)، على حين أنه لابدَّ في الفرنسية والإنجليزية من ذِكر العدد مع ذكر الكلمة وذِكر علامة الجمع بعد الكلمة، فنقول في الفرنسية: (Les deux portes)، ونقول في الإنجليزية (the tow doors).

وفي (إضافة الضمائر) نكتفي في العربية بإضافة الضمير إلى الكلمة، وكأنه جزء منها، فنقول : (كتابه) و(منزلهم)، على حين تقول في الفرنسية: (son livre) و(leur maison).

أمَّا في (إضافة الشيء إلى غيره)، فيَكفِي في العربية أن نضِيف حركة إعرابية؛ أيْ: صوتًا بسيطًا إلى آخِر المضاف إليه، فنقول: (كتاب التلميذِ)، و(مدرسة التلاميذِ)، على حين تستعمل في الفرنسية أدوات خاصَّة لذلك، فنقول : (le livre de eleve) و(lecole des eleves).

وفي (الإسناد) يكفي في العربية أن تذكر المسند والمسند إليه، وتترك لعلاقة الإسناد العقلية والمنطقية أن تصلَ بينهما بلا رابطة ملفوظة أو مكتوبة، فتقول مثلاً : (أنا سعيدٌ)، على حين أنَّ ذلك لا يتحقَّق في الفرنسية والإنجليزية، ولابدَّ لك فيهما ممَّا يُساعِد على الربط، فتقول : (je sui heureux) و(I am happy)، وتستعمل هاتان اللغتان لذلك طائفة من الأفعال المساعدة؛ مثل : (avoir ـ etre) في الفرنسية، و(to have وto be) في الإنجليزية.

ه. الفعل في العربية يمتاز باستِتار الفاعل فيه حينًا، وكونه جزءًا منه حينًا آخَر؛ تقول : (أكتب، وتكتب) مقدِّرًا الفاعل المستتر، وتقول : (كتبت، وكتبنا، وكتبوا)، فتَصِل الفاعل بالفعل وكأنَّه حرفٌ من حروفه، فلا نحتاج

إلى البدْء به منفصلاً مقدمًا على الفعل كما هو الأمر في الفرنسية: (nous -tu - il- je)، وفي الإنجليزية (I - you - they).

وكذلك عند (البناء للمجهول) يكفي في العربيَّة أن تُغيِّر حركة بعض حروفه، فتقول: (كُتِبَ، قُرِئَ)، في حين تقول في الفرنسية مثلاً: (a ete ecrit)، وفي الإنجليزية (it was read).

وفي العربية كلمات يصعب ترجمتها أوْ التعبير عن معناها إلاَّ في جُمَل كاملة؛ مثل :

العربية	الإنجليزية
هيهات	It is too far
شتَّان	There is a great difference
سأذهب	I shall go
سيذهب	He will go
هو قوي كالأسد	He is as strong as a lion

وبمقارنة بعض الكلمات بين (العربية والإنجليزية والفرنسية) نجد الفرْق واضحًا :

العربية	الإنجليزية	الفرنسية
أب	father	père
أم	mother	mère
أخ	brother	frère

ثالثًا : الإيجـاز في التراكيب والجمل:

الجملة والتركيب في العربية قائمان أصلاً على الدمج أوْ الإيجاز؛ ففي الإضافة يَكفِي أن تُضِيف الضمير إلى الكلمة، وكأنَّه جزءٌ منها :

كتابه son livre كتابهم leur livre

وأمَّا في الإسناد؛ فيَكفِي في العربية أن تذكر المسند والمسند إليه بلا رابطة ملفوظة أو مكتوبة، فنقول مثلاً: (أنا سعيد)، على حين أن ذلك لا يتحقَّق في الفرنسية أو الإنجليزية، ولابُدَّ لك فيهما ممَّا يُساعِد على الربط فتقول: (I am happy)، (je suis heureux).

والنفي أسلوبٌ في العربية يدلُّ على الإيجاز :

فكلمة : (لمْ أقابله) في العربية، نجدها في الإنجليزية : (I did not meet him)

وفي الفرنسية، على النحو التالي : (Je ne l'ai pas rencontré)

وهناك من الأمثلة على ذلك ما يفوق الحصر، بحسب أن تنظر ـ مثلاً ـ في سورة (الفاتحة) المؤلَّفة من (31 كلمة)؛ استغرقت ترجمتها إلى الإنكليزية (70 كلمة).

الميزة التاسعة : (الإعراب ودلالته على المعنى)

اللغات قسمان : مبنيَّة ومُعربة، واللغات السامية كلها معربة، وإنْ كان بينها وبين الإعراب في العربية فرق غير يسير.

وفي الإعراب شيء من الصعوبة، يحتاج المتكلِّم إلى معرفة حالات الإعراب، مثل :

رأيت خالدًا Khalid I saw

حضر خالدٌ Khalid came

ذهبتُ مع خالد I went with Khalid

فيجب معرفة المرفوع من المنصوب من المجرور، على عكس الإنجليزية. لكن هل السهولة مزية دائمًا؟. وهل الإعراب عيبٌ في اللغة العربية؟.

ليس دائمًا؛ فالأجهزة الحديثة أكثر تعقيدًا من مثيلاتها القديمة؛ فالحاسبات والماكينات وغيرها إذا كانت حديثة ومتطوِّرة، نراها معقَّدة عن مَثِيلاتها القديمة، ومع ذلك هي مُفضَّلة ومُقدَّمة؛ لِما فيها من خصائص ليست في غيرها.

كذلك في العربية؛ نجد الإعراب يؤدِّي ما لا تُؤدِّيه اللغات المبنيَّة في دقَّة التعبير والإيجاز وتنوُّع المعاني بأقلِّ قدرٍ من الكلمات.

ما هو الإعراب؟

الإعراب هو : الإبانة عن المعاني بالألفاظ؛ فمثلاً عندما نقول : (يحترمُ أحمدُ أباه)، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرحاً واحِدًا لاستبهم أحدهما من صاحبه.

والإعراب موجودٌ في بعض اللغات؛ مثل: اللاتينيَّة؛ لكنَّه لا يُداني أهميَّة الإعراب في العربيَّة، ثم إنَّ اللاتينيَّة قد اندَثرت وصارت لغةً من التاريخ، بلْ كان الإعراب في

اللاتينية من أسباب صعوبتها، أمَّا هو في العربية فله عدَّة ميزات، نذكُر منها على سبيل الإيجاز :

1. الإعراب دليل التخفيف والإبانة عن المعاني بسهولة ويُسر.
2. الإعراب وسيلةٌ من وسائل الإبداع والبلاغة؛ فبه نستَطِيع التقديم والتأخير اهتمامًا بالمتقدِّم وإبرازًا له، ولا يختلُّ المعنى أو يلتَبِس طالما أنَّ هذا التقديم خاضِع لقواعد النحو.
3. الإعراب هو ضربٌ من ضروب الإيجاز في اللغة؛ لأنَّنا بالحركات نكتَسِب معاني جديدة دون أن نضطرَّ لزيادة حجم الكلمة أو رفدها بمقاطع أخرى أو بأفعال مساعدة.
4. الإعراب يُتِيح للعربيَّة قدرةً هائلة في التعبير عن المعاني والتفنُّن في الأساليب، وتجعلها أكثر مرونةً وتصرُّفًا في بناء التراكيب.
5. الإبانة عن المعاني، وكثيرٌ من الجُمَل في العربية لا يبين معناها إلاَّ بالإعراب.

كيف أنت ومحمدٌ؟
كيف أنت ومحمدًا؟

فبِرَفْع محمد معناها السؤال عن الحال أوْ الصِّحَّة، وتكون الإجابة مثلاً: أنا ومحمد بخير، أمَّا بالنصب فالسؤال عن العلاقة، وتكون الإجابة: إنَّ علاقتنا جيدة.

مثـال ثان :

كم رجلاً عندك قال الحق؟
كم رجلٍ عندك قال الحق.
كم رجلٌ عندك حق؟

فالأولى للسؤال، والثانية للإخبار بالكثرة، والثالثة تعني: كم قال رجل معيَّن الحقَّ.

مثـال ثالـث : يبيِّن خطَر الإعراب في تغْيير المعنى تغييرًا تامًّا :

سمع أحد الأعراب قارئًا يقرأ قول الله تعالى: ﴿ **وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ** ﴾ [التوبة : 3].

فقرأها بكسر كلمة ﴿ **رسولِه** ﴾، والصحيح أنها مرفوعةٌ، فقال الأعرابي: أبَرِأَ الله من رسوله؟.

وقد بيَّن ابن فارس هذه الخاصيَّة الخصيصة في لغة العرب، فقال: «إنَّ من العلوم الجليلة التي اختصَّت بها العرب الإعرابَ؛ الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، ولولاه ما ميز فاعلٌ من مفعول، ولا مضاف من منصوب، ولا تعجُّب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من توكيد».[1]

وتقول : (كم رجلاً رأيت؟) في الاستخبار، و(كم رجلٍ رأيت)، في الخبر يُراد به التكثير.

وفي هذا الكلام من ابن فارس؛ إشارة مهمَّة إلى دور الحركات عمومًا في التمييز بين المعاني المختلفة، ليس فقط على مستوى الإعراب، ولكن أيضًا على مستوى البنية المفردة.

يتضح مما سبَق؛ أنَّ الإعراب يدلُّ على المعاني بقرينة الحركة الإعرابيَّة، وما تدلُّ عليه هذه الحركة وما تفيده.

ليست هذه فقط مزايا «لغة الضاد»؛ فهذا قليل من كثير؛ مما ذكره علماء اللغة وفقهاؤها. ولكن حسبنا القاعدة التي تقول: (ما لا يُدرَك كله، لا يُترَك كله).

---

(1) **الصاحبي**، لابن فارس.

خصائص العربية

في كتابه "**الإمتاع والمؤانسة**" خصَّ (أبو حيان التوحيدي) العرب بالثناء، وتكلم عن اللغة العربية، فقال: إنه استعرض غيرها من اللغات فلم يجد في أيّ منها "نصوع العربية، أعني الفرج التي في كلماتها، والفضاء الذي نجده بين حروفها، والمسافة التي بين مخارجها ...".

وقد لاحظ التربويون؛ أنَّ تدريس "العربية" لغير الناطقين بها أيسر من تدريس "الإنجليزية" كلغة ثانية، وتتمثل هذه السهولة بالنسبة للعربية في حقيقة أنَّ كل حرف يُنطق يُكتب، وكل حرف يُكتب يُنطق، ولأنَّ القراءة والكتابة هما أهم ما يميز المتعلم عن الأمي، فإنَّ إتقان غير العربي لهذه اللغة الجديدة -والتي تختلف تماماً عن اللغات اللاتينية المنتشرة ـ ربما يكون أسهلٍ وأكثر منطقية للمتعلمٍ الذي يستطيع إجادة هاتين المهارتين في وقت قصير قياساً بغيرها من اللغات. ونظراً لكثرة خصائص (العربية)؛ فسنكتفي بالإشارة إلى بعضها :

لغة فخيمة

فيها من الحروف الفخيمة ما لا يوجد في غيرها، وكل حروفها وأصواتها واضحة صريحة، فلا تسمع كلمة إلاَّ سمعت كل حروفها، وتبينت كل أصواتها، لكن كثيراً من حروف اللغات الأوروبية صامتة أو خفية، والحركات عديدة منها خالصة ومنها بين وبين.

أيضاً؛ نجد في العربية حروفاً حلقية، لا تجدها في غيرها من اللغات، فما السر في ذلك؟.

السر؛ أنه لمَّا كانت الأمة العربية عريقة في البداوة وحياة الصحاري؛ كانت حلوقها قوية تقدر على إخراج تلك الأصوات، بلْ إن الأصوات التي تخرج من أعماق الحلق؛ تدل على أنْ الأمة التي تنطق بها شديدة التأثر، حادة الطبع، لا تطيق الهمس والغمغمة، بلْ تميل إلى الصراحة والوضوح، ولا تتكلم إلاَّ عن تأثر، وأنها تعني ما تقول.

وقد كان في بعض اللغات الأوروبية مثل هذه الأصوات، ولكنها لم تلبث أن ماتت فيها، وربما ماتت بعض الحروف الأخرى، فلا يتكلم الناس بها إلا همساً. بلْ إن العرب أنفسهم

في دور انحطاطهم هذا، ليَّنوا القاف فجعلوها همزة، وحذفوا العين من بعض كلماتهم، مثل «إسا» - هذه الساعة، و«لسا» - لهذه الساعة، لأنَّ حلوقهم ضعفت بسبب تمدنهم، فصارت تستثقل هذه الأصوات. بلْ استبدلوا بالحركات القصيرة في بعض الكلمات حركات طويلة لارتخاء في نفوسهم، «فَقُمْ» يلفظونها: «أوم»، و«قلْ» يلفظونها «أول» .. الخ.

لغة إيجاز

يتضح ذلك في إعرابها، وغِنى حروفها، وغِنى أفعالها، وحركاتها، على النحو التالي:

أولاً : لغة إعرابية، فتغيير حركة آخر الكلمة يغني عن تغيير ترتيب الجملة أو زيادة بعض حروف أو كلمات، ويؤدي المعنى المراد على أوضح صورة ... الخ.

ثانياً : لغة اشتقاقية، بلْ هي أرقى اللغات في الاشتقاق، فنقلِ الكلمة من وزن إلى وزن آخر يفيد معنى جديداً، قد لا يؤدى في لغة أخرى إلاَّ بعدة كلمات مساعدة.

ثالثاً : لغة غنية في أفعالها؛ فلكل معنى لفظ خاص حتى أشباه المعاني أوْ فروعها وجزيئاتها، على حين نجد اللغات الأخرى قليلة الأفعال، فبدلاً من أن تؤدي المعنى بلفظ واحد خاص به، تؤديه بلفظتيْن أوْ أكثر، ولا سيما اللغة الإنجليزية؛ فهي تلجأ في كثير من المعاني إلى استعمال الصفة مع فعل «صار» أو «حصل» أو «أحس». ثم لمَّا كان لكل شخص علامة خصوصية تدخل على الفعل أو تلحق به مثل التاء في «ضربت»، والهمزة في «أضرب»، فكيفما استعملت الفعل فلا يقع التباس. لكن اللغات الأوروبية تضطر لدفع هذه الالتباس؛ بتغيير التركيب، واستعمال كلمات أخرى، مما لا يتسع المجال هنا لبيانه.

رابعاً : لغة غنية في حروفها؛ ففيها من حروف الجر والنفي والنداء والاستفهام على كثرة ما تتضمنه من المعاني والاعتبارات ما لا تضاهيها فيه لغة أخرى.

خامساً : أنها تحتمل الإضمار والتقدير والتقديم والتأخير والحذف أكثر من غيرها.

لهذه الأسباب وغيرها؛ امتازت «العربية» بإيجازها، ولا يظهر فقط في ألفاظها وتراكيبها، بلْ في قراءتها، إذْ تتصل الكلمات ويأخذ بعضها برقاب بعض، بلْ في خطها وكتابتها، وذلك؛ لأنَّ الحروف الابتدائية والوسطى صغيرة الحجم دقيقة الشكل. ولأنَّ العرب يلغون الحركات القصيرة؛ لأنها في اعتبارهم مفهومة لا حاجة إلى كتابتها .. لذلك يظهر الإيجاز في أمثالهم وأشعارهم وخطبهم وسائر أدبياتهم، فهم يكرهون التطويل الممل.

أولاً : لكثرة استعمال المجاز والكناية والاستعارات والإشارات والتشبيه، وهذا مألوف فيها ـ حتى في اللغة العامية ـ مثل قولهم فلان «مبسوط اليد» أيْ كريم، و«مقبوض اليد» أيْ بخيل، و«كثير الرماد» أيْ مضياف .. الخ.

ثانياً : لأنها كثيرة المترادفات، فلا يضيق الشّاعر بها ذرعاً.

ثالثاً : لأنها كثيرة التراكيب الإعرابية، فإذا تعذر الإتيان بهذا التركيب جيء بغيره، فموقع الكلمة في الجملة يظهر إمَّا بعلامات الإعراب، أو الترتيب، أو القرينة على خلاف اللغات الأخرى، إذْ تعتمد على بيان موقع الكلمة في الجملة على الترتيب فقط.

رابعاً : لأن ألفاظها تختلف بين الفخامة والرقة، بحيث يستطيع العربي أن يختار لكل مقام من الألفاظ ما يناسبه .. الخ.

خامساً : لو قابلنا كثيراً من مفرداتها بمثلها في لغات أخرى؛ لظهر أنها أنسب للمعنى، وأوضح للفكر، وأطوع لإظهار أعمق التأثرات.

فلفظة «**لا**» النافية أنسب من كل أدوات النفي في أيّ لغة كانت، إذْ يسهل معها مدّ الصوت، والصفات فيها التي تجيء على وزن فاعل، مثل: (واسع، وغافر، طاهر، كامل) أوْ على وزن فعيل أوْ فعول، مثل: (كبير، عظيم، عليم، سميع، أوْ صبور، غفور، شكور) أطوع للتعبير عن أعمق التأثرات لِما فيها من الحركات الطويلة، الخ.

فمثلاً؛ كلمة (**حـق**) بحائها وقافها المشدّدة العميقة لا تعادلها كلمة أخرى من أيّ لغة في الدلالة على معناها، ولابدَّ أن الناطق بهذه اللفظة يشعر بالحق أكثر من غيره، ليس ذلك فقط، بلْ لها تأثير في السامع، بحيث تصل إلى أعماق قلبه، وتحدث في نفسه هزة.

وكلمة (**حـب**) لا تعادلها كلمة أخرى في جمالها وقوتها، بلْ إنَّ هذه اللفظة تكاد تشم منها رائحة الحب؛ لأنها تخرج من أعماق القلب مصحوبة بنفس الحب، وحق العرب أن يفاخروا بهذه الكلمة؛ لأنها تدل على أن الحب عندهم من القلب وليس من الشفاه. وليس أجمل من ضم هذه الحاء وإطباق الشفتين على بائها المشدّدة مما يستشف منه الحزم والثبات.

وكلمة (**مرحباً**) هذه اللفظة الجميلة بميمها ورائها وحائها وبائها وتنوينها وحركات الفتح فيها؛ كأنها قطعة موسيقية يتبادلها الناس.

سادساً: إذا نظرنا في اللغة العربية من جهة الحركات؛ لرأينا لها مزية على غيرها؛ فحركاتها ثلاث: (الضم والفتح والخفض) ومعلوم أن الضم أفخم الحركات، والفتح أخفها، والخفض أثقلها، فاللغة التي يكثر فيها صوت الكسر ثقيلة مستكرهة.

وإذا استقرينا ألفاظ العربية، ومواطن الضم والفتح والخفض الإعرابية فيها، لرأينا الخفض أقلها، والفتح أكثرها؛ وهذا مما يكسبها جمالاً ورشاقة، ويصدق معه القول: «إنها لغة شـاعرة».

لغة معجِزة :

يتبين مدى إعجازها في أنه يتعذر نقل الكثير من ألفاظها؛ لاسيما التي وردت في القرآن وتعبيراته إلى اللغات الأخرى، فكلمات مثل: (الدِّين، أُمة، الساعة، الولاء، آية، الإحسان، التقوى، إمام، أوَّاب، عاكفين، سنستدرجهم، عَرَضَ هذا الأدنى، قَدَمَ صِدق، وأُملي لهم، أنزلَ سكينته، إلاَّ أنْ تقطَّع قلوبهم، التي جعل الله لكم قياماً، قولاً معروفاً ....). كل هذه الألفاظ وغيرها، أعجزت العرب أن يأتوا بمثلها، فأنَّى للغات غير العربية أنْ تأتي بمثلها؟.

فمثلاً لفظة (**آيـة**) تُترجَم في الانجليزية بـ sign وشتان بين معنى هذه وتلك، وبين ظلالها.إنَّ لفظة (آيـة) لفظة معجزة بنفسها، توحي بالإعجاز، والسموّ الذي لا يُبلَغ.

وكلمة (**من أنفسكم**) تحمل معانيَ وظلالاً ممتدة غنية نديَّة، تعجز عنها الترجمة الإنجليزية (From you).

و(أزواجاً لتسكنوا إليها) مليئة بالظلال التي لا تبلغها الترجمة الإنجليزية (Mates dwell in tranquility with them).

كذلك؛ كلمة (**السكن**) ومشتقاتها، غنية المعاني والظلال. وكلمة (**الرحمة**) نجدها تترجم حيناً (Mercy) وحيناً آخر (Kindness)، ولكن كلمة (الرحمة) تظل أغنى معنى، وأوقع جرساً.

أمَّا كلمة (التقوى) وما يشتق منها، مثل: المتقون، اتقوا؛ فإنها تحمل من المعاني والظلال ما لا يمكن حصره بجمل وشروح في اللغات الأخرى.

لذلك؛ لجأ بعض المترجمين لاستخدام الكلمة العربية ذاتها عند الترجمة، أوْ وضع شرح لمعنى الكلمة العربية، بدل استخدام لفظة محددة.

لغة معبِّرة

تظهر قدرتها على التعبير عن الشيء في أكمل صوره وأدقها، بما تعجز عنه سائر اللغات الأخرى، لدرجة أننا نرى تطابق المبنى والمعنى في آنٍ واحد.

انظر لكلمات مثل: (**فكُبكِبوا فيها هم والغاوون**) أوْ (**كأنَّما يصَّعَّد في السماء**). فالكلمات طابقت المعنى، أوْ الحالة المراد التعبير عنها. وهذا ما ليس له نظير في أيّ لغة أخرى.

في مقال بعنوان "**العيد في الدِّين وفي اللغة**"، لعباس العقاد ـ قال فيه: "في سياق هذا المقال، نُتابِع النظر في مزايا العربية، يتفق لنا أن نذكر مزيَّةً لهذه اللغة في كلمة (العيـد) بلفظها ومعناها؛ فإنَّ تسميةَ العيد بهذا الاسم تدل بأخصِّ معانيه، وهي الإعادة والتَّعييد، وليس لهذه الخاصية مدلولٌ مُفيدٌ في أسماء العيد بأكثر اللغات، فبعض أسمائه باللغات الأوربية تدل على معنى الوليمة، ووفرة الطعام، وبعض أسمائه تدل على اليوم الديني، أو يوم البِطالة (العُطلة)، وليست هذه من خواصِّ العيد، التي ينفرد بها بين سائر الأيام. وبعض أسمائه الحديثة تُقابل كلمة (السنوية)، أوْ (المئوية)، وتصدق على احتفال بعينه، يجوز أن يكون يوماً واحداً لا يُعادُ إليه، ويجوز أن يكون من غير الأعياد، لأنهُ من ذِكرى الكوارث، أوْ ذكرى الحِداد. أمَّا كلمة العيد بصيغتها في العربية، فهي أدلُّ من تلك الأسماء جميعاً على خاصته ومعناه".

وفي مقالٍ آخرَ نشره العقَّـاد، بعنوان "**الأطفال هم الذين يخلقون العيد**" عن سبب تسمية اليوم السابق للعيد باسم (**الوقفة**)، قال فيه: "إنَّ الذين يتهمون اللغة العربية بضيق الحظيرة، ويظنون أنها تضيق عن اختراع المصطلحات المُتَّفق عليها في لغات العلوم الحديثة، خليقون أنْ يقفوا قليلاً يوم وقفة العيد الصغير، ليذكروا أنَّ كل مناسبة كافية لخلق الكلمة، التي تؤدي معناها الأصيل أوْ المستعار، فليس من العسير خَلْق كلمة تؤدي معنى المُخْتَرَع الحديث بمُلابسةٍ من المُلابسات، فإنها ستساوي على الأقل مُلابسة الوقفة في شهر رمضان. إنَّ "الوقفةَ" قبل العيد الكبير مفهومة؛ لأن

الوقوف على عرفات ومناسك الحج فريضة من فرائض هذا العيد، ولكنْ ما هي "الوقفة" قبل عيد الفِطر؟. ولماذا نُسَمِّي آخر رمضان يوم وقفة، ولا وقوف فيه على منسكٍ من مناسك الصيام أو الإفطار؟».

«إنَّ وقفة رمضان هنا مُستعارة من وقفة ذي الحجة، وفيها لنا درسٌ مفيد من دروس اللغة، نتعلم منه الشيء الكثير عن أسرار وضع الكلمات، أوْ نتعلم منه كفاية القليل من المناسبات لإطلاق الكلمة على المعنى المُصطَلح عليه، ثم يتكفَّل الاصطلاح بالبقية، فتُصبح الكلمة مفهومة متداوَلة على معناها المُستعار، بغير سؤال».

ويلحظ "العقَّـاد" تأثُّر المسيحيين بالمسلمين فيما يتعلق بالأعياد والمصطلحات المتعلقة بها، فيقول: "إننا سمعنا من بعض إخواننا المسيحيين من يُطلق اسم (الوقفة) على اليوم السابق لعيد القيامة؛ لأنها اكتسبتْ معنى اليوم الذي يسبق العيد، حيث كان، وانفصلتْ عن معناها الأصلي كل الانفصال".[1]

أجل، إنها (لغة الضاد) التي تميزت بالجمال، والوضوح، والدقة في التعبير عن المعاني. ولقد تحددت مصطلحاتها اللغوية؛ حتى لا يختلط الكلام، واستقرت أحكام الإسلام وتشريعاته على قواعد راسخة. حتى يتمايز كلام الله، وحتى تستقيم دلالاته.

ومما يؤكد هذه الحقيقة المهمة؛ أنه عندما يُنقل القرآن إلى لغة أخرى غير العربية، فإنَّ المعاني لا تُستوفَى كما هي مستوفاة باللغة العربية، وإنَّ البيان المعجز، الذي تحدى به الإنس والجن؛ قد يفقد كثيراً من خصائصه عن الترجمة. ولا ينبغي لسائر اللغات أنْ تأتي بمثله، ولوْ كان بعضها لبعضٍ ظهيرا.

---

(1) جريدة (الأخبار) القاهرية، اليوميات، عباس محمود العقاد، 1961م. وجمعت هذه المقالات في كتاب من ثلاثة أجزاء بعنوان (**اليوميات**) نشرت بعد وفاة الكاتب. وللعقاد كتاب بعنوان (**اللغة الشاعرة**).

ثورات النحو العربي

امتازت **(لغة الضاد)** بألفاظها وكلماتها وما تحمل من معانٍ وظلالٍ وجرس موسيقي، وامتازت ببنائها وصياغتها، حين ينضمُّ معنى إلى معنىً، وظلٌ إلى ظل، وجرسٍ إلى جرس. لتبلغ الصياغة أعلى درجاتها من الجمال الفني الأخَّاذ، وامتازت ـ أيضاً ـ بقواعدها، بنحوها وصرفها، تميزاً ظاهراً، تبدو فيه دقة المنطق والتناسق والترابط، لا تختلف عن دقة علوم الرياضيات.

فلا يوجد في أيّ لغة مجال للاشتقاق كما يوجد في العربية .. فالفعل الثلاثي يأخذ حوالي عشرة أشكال بالمزيدات الرباعية والخماسية والسداسية، هذا بخلاف اشتقاق المصدر، واسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، وصيغة المبالغة، وغير ذلك.

جدير بالذِّكر؛ أنَّ وضع علم النحو والصرف، وتقعيد القواعد، إنما كان في الحقيقة، سبيلاً إلى حماية الألفاظ والدلالات القرآنية، وضبطها بمعهود العرب في الخطاب، حيث نزل بلسان عربي مبين، حتى لا يكون إسلام أصحاب اللغات الأخرى سبيلاً إلى التيه الدلالي والاصطلاحي، حتى إنَّ كثيراً من علماء اللغة، كـ«ابن هشام» عندما طُلب إليه أن يضع لتلامذته كتاباً في تفسير القرآن، وضع لهم كتاب: **«مغني اللبيب عن كتب الأعاريب»** لضبط دلالات الألفاظ، والأدوات، ومعانيها، حتى يدرك المصطلح القرآني، بكل احتمالاته، وكانت معظم شواهده، واستدلالاته من النص القرآني، والبيان النبوي، وكلام العرب من حقبة السلامة اللغوية.

لكن، لا ننسى أنه لولا جهود المجدِّدين على مدار تاريخ لغة الضاد ما تقدم النحو العربي خطوة إلى الأمام، ولا امتازت المدارس النحوية العربية على الصعيد العلمي العالمي في ارتقائها واستيعابها لمظاهر القوة والضعف فيما حولها من لغات، ولما اعترف أساتذة الدرس اللغوي المقارن في الجامعات الغربية بمواءمة النحو العربي للتجديد والتطور والنمو والقابلية للتفاعل مع مستجدات الحياة والتاريخ كافة.

وقد تحدث الباحث عبد الله جاد الكريم[1] عن مدى تغلغل ثورات التحديث في النحو العربي منذ ماقبل الإسلام وإلى الآن، فقال : «يعدُّ كتاب **«سيبويه»** أول وأهم عمل حداثي بالنسبة للدرس النحوي، لأنه عمل غير مسبوق في منهجه».

---

(1) **الدرس النحوي في القرن العشرين**، عبد الله جاد الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة.

فشخصية **«سيبويه»** كانت مبدعة في تأطيرها للنحو على منهجية جديدة، ظهرت في ابتداع بعض القواعد، وفي ترتيب الكتاب حاوياً عناصر الفن كلها، وتبويبه، وحسن التعليل للقواعد، وجودة الترجيح عند الاختلاف، واستخراج الفروع من القياس الذي امتلأ به الكتاب. فكتاب سيبويه -على حد وصف بعض النحاة القدماء ـ «أصبح النحو منطق العربية بمجيء سيبويه».

وتأتي المحطة الثانية المكملة لسيبويه، وهي ثورة الأندلسي ابن مضاء القرطبي (ت592 هـ) في كتابه (**الرد على النحاة**) الذين وصفهم بالتقليديين، فقد رفض أن يستمر الدرس النحوي لثلاثة قرون مرتكزاً على مجموعة من القواعد التي نالت درجة التقديس عند كثير منهم، وكانت ثورة ابن مضاء دعوة باكرة لإعادة النظر في منهج النحو العربي، وقد استوحى آراءه النحوية الجديدة من المذهب الظاهري في الفقه.

وهو لا يدعو إلى هدم النحو ونسف الماضي، بلْ يطالب بتجريد النحو من الشوائب، وتخليصه من صناعة النحاة، فيقول: «إني رأيتُ النحويين -رحمة الله عليهم- قد وضعوا صناعة النحو لحفظ الكلام من اللحن، وصيانته من التغيير فبلغوا الغاية التي أمّوا، وانتهوا إلى المطلوب الذي ابتغوا».

لكن معاصري ابن مضاء ومن جاءوا بعدهم؛ لم يكترثوا بآرائه التجديدية، فقد استمر الغلاة في الصناعة النحوية القديمة؛ إلى أن قام الدكتور شوقي ضيف بتحقيق هذا الكتاب عام 1947م، وأصدر من بعده كتابه (**تجديد النحو**).

ومن سمات النحو العربي قدرته على الإفادة من اللغات الأخرى، والأخذ بما يرفده بالحيوية والتطور والنمو، في تفاعل حضاري بين الشرق والغرب منذ القديم.

ويرى الدكتور إبراهيم مدكور أنه : من الثابت أن كتب أرسطو المنطقية كانت معروفة لدى السريان، وقد تُرجمت إلى لغتهم قبل الإسلام. والمهم أنها تُرجمت إلى اللغة العربية منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري. فهي إذن ثروة جديدة نُقلت إلى العالم العربي. ومن أقدم الأمثلة على تأثير السريانية على العربية، الأبجدية النبطية، نشأة الحركات الإعرابية في فجر الإسلام، والتي يُنسب وضعها إلى أبي الأسود الدؤلي، وهي في الحقيقة مأخوذة عن السريان؛ لأن طريقة الشكل بالنقط إحدى طرق الشكل السرياني، وهي الطريقة التي اتبعها النساطرة.

وقد أثَّرت العربية بدورها في غيرها من اللغات نحوياً، حيث تعترف دائرة المعارف اليهودية في مادة (GRAMAR) بأنَّ «الحافز لدراسة الفلوجي العبري قد قويَ بعامل

خارجي، وبالتحديد بالمثال الذي قدمته اللغة العربية. وقد استمرت العربية تؤثر على علم اللغة العبري، وكان النموذج العربي هو الذي احتذاه العبرانيون، ثم طُور».

وذكر المستشرق لويس ماسينيون مدى تأثير النحو العربي في اللغات الأوربية، خاصة في المجالات العلمية، فقال: «والعربية من أنقى اللغات؛ فقد تفردت بتميزها في طرق التعبير العلمي والفني والصوفي، فالتعبير العلمي الذي كان مستعملاً في القرون الوسطى لم يتناوله القدم؛ ولكنه وقف أمام تقدم القوى المادية فلم يتطور. أمَّا الألفاظ المعبِّرة عن المعاني الجدلية والنفسانية والصوفية؛ فإنها لم تحتفظ بقيمتها فحسب، بلْ تستطيع أن تؤثر في الفكر الغربي وتُنشّطه؛ بفضل مرونة النحو العربي وإدهاشه الإبداعي المتواصل، أخذاً وعطاءً، على طريق التحديث في بنيتها القادرة على التعاطي مع اللسانيات الغربية والشرقية».

كما أثّر النحو العربي في أكبر عقلية لغوية غربية في الربع الأخير من القرن العشرين، وفي أبرز مدرسة لغوية حداثية؛ عقلية العالِم الأمريكي اليهودي نعوم تشومسكي حيث أقرَّ بالحق العربي وبمكانة العربية، وقد تزعم الدراسات اللغوية المعاصرة، وكوَّنَ نظرية جديدة قلبت الفكر اللغوي رأساً على عقب، وقد نوّه تشومسكي -في معرض رده على سؤال وُجّه إليه عام1989م ـ بأن تأثيرات النحو العربي كبيرة على نظريته في دراسة اللغة، وأنه قرأ كتاب سيبويه كمرجع له.

«النحـو القرآنـي» هو الحـل

هناك رأي يقول : إن علماء اللغة؛ منذ أن قاموا بالتنظير والتقعيد، لم يستطيعوا الخروج من دائرة الشواهد الشِّعرية، لاسيما الموروثة من «الشِّعر الجاهلي»، متجاهلين «القرآن الكريم» كرافد أساسٍ، ومصدر رئيس في التقعيد لأصول العربية. إذْ حصروا جهودهم في تتبع لهجات القِبائل العربية، مُتناسين أنَّ **«كتاب الله»** هو الذي ارتقى بالعربية إلى العالمية، فضَمِنَ لها الخلود والبقاء، وأمدّها بشرايين النمو والتجدد والحياة، حتى أصبحت أُم اللغات، ومعجزة الزمان.

لقد شعر الدكتور طه حسين بعجز النحو عن استيعاب كثير من القضايا اللغوية، عند مقارنته بما يتضمنه القرآن الكريم من قواعد وأصول، يخالف فيها ما قعّده النحاة الأوائل، فقارن بين الأمرَيْن؛ إلى أن قادته سليقته اللغوية إلى أنَّ ما ظنّه النحاة والمستشرقون من قبيل الاختلاف مع القاعدة النحوية، هو من باب رد الأمور إلى نِصابها، والعودة من جديد للتقعيد للنحو بالاعتماد على القرآن الكريم كمصدر أساس،

قَبْل الشعر الجاهلي، لأنَّ هذا يحل كثيراً من مغاليق النحو، ويفتح شرايينه المسدودة. وهو يرد -كذلك- على ادعاءات المستشرقين، بأنَّ في القرآن أخطاءً نحوية، وهو غير صحيح، بسبب تجاهل النحاة العرب للقرآن عند التنظير والتقعيد للنحو.

لقد ألَّف "طه حسين" بحثاً مهماً، بعنوان" **ضمير الغائب، واستعماله اسم إشارة في القرآن الكريم**"، كان قد ألقاه أمام مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة أكسفورد عام 1928م، انتهى فيه إلى أنَّ: "علم النحو العربي -كما هو الآن- لا يكفي لتفسير القرآن، وتخريجه من الوجهة النحوية الصرفة؛ مطالباً بضرورة وضع نحوٍ خاصٍ للقرآن؛ يُزيل ما يعلق بنفوس بعض المستشرقين من الشك، حينَ يقرأون القرآن، مُعتمدين على النحو القديم، فيرون بينه وبين هذا النحو ضروباً من الخلاف؛ فيظنون أنَّ بالقرآن خطأً نحوياً. والواقع أنّ القرآن لمْ يُخطِئ، وإنما قصَّر النحويون حين وضعوا قواعد النحو؛ لم يستوعبوا القرآن والشعر، ولم يستقصوهما".

بعدما درس "طه حسين" ضمائر الغائب في القرآن الكريم، وجدها تخالف ما نصَّ عليه النحاة في كُتُبهم، في القاعدة النحوية الشهيرة، التي تقول: "إنَّ ضمير الغائب يجب أن يعود إلى مذكور يتقدمه لفظاً ورُتبةً، وأن يطابق هذا المذكور في التذكير والتأنيث، وفي الإفراد والتثنية والجمع". فرأى أنّ هذا الكلام يُخالف كثيراً من الآيات القرآنية، التي وردت خلاف ذلك.

يقول طه حسين: "إنَّ هذه القاعدة شاملة لا يقبل النحويون فيها استثناءً؛ فإنْ عرض ما يُوهِم تأخُر المرجع عن الضمير تأوّلوا وتكلّفوا لإثبات أنّ هذا التأخر اللفظي لا يستلزم تأخر الرّتبة. وهم، على كل حال، لا يقبلون استثناءً في قاعدة المطابقة بين الضمير ومرجعه، ولكنَّ هذه القاعدة -بجُزْءَيها- إنْ اطَّردتْ في الشِّعر والنثر؛ فهي لا تطَّرِد في القرآن الكريم؛ ذلك أنّ في القرآن ضمائر لا تعود إلى مذكور يتقدَّمها لفظاً ورُتبةً. بل فيه ضمائر يظهر أنها تعود إلى مذكورٍ، ولكنها لا تُطابِقه تذكيراً وتأنيثاً، أو إفراداً وتثنيةً وجمعاً".

وقد حصر طه حسين الضمائر في تسعة أنواعٍ، على النحو التالي :

الأول : ضمائر يُراد بها الذين تعوَّدوا حوار النبيّ محمَّد ﷺ، ومُجادلته، واستفتاءه في مكة والمدينة، من المسلمين وغير المسلمين. ومن هذا النوع، كل الآيات والجُمَل، التي تبتدئ بقوله تعالى: ﴿ **يسألونك** ﴾. وكذلك قوله تعالى: "أمْ يقولون افتراه" فالواو راجعة إلى المشركين من أهل مكة،

وهم لم يُذْكَروا، وفاعل افترى راجِعٌ إلى النبيّ ﷺ، وهو لم يُذْكَر، ومفعوله راجع إلى القرآن، وهو لم يُذْكَر".

الثانـي : الضمائر التي يُراد بها القرآن، ومنها قوله تعالى: ﴿ **إنّا أنزلناه في ليلة القدر** ﴾.

الثالـث : الضمائر التي يُراد بها النبيّ ﷺ نفسه، ومنها قوله سبحانه: ﴿ **عبس وتولّى** ﴾.

الرابـع : الضمائر التي تعود إلى الأفعال، وذلك حين يأمر الله بأمرٍ، أو ينهَى عنه، أو تأكيد الأمر والنهي، ومثال ذلك قوله تعالى، في سورةً البقرة: ﴿ **ومن حيث خرجتَ، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام، وإنه للحقُّ من ربك** ﴾. وقوله عزَّ من قائل، في سورة المائدة: ﴿ **اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾. وقوله عزَّ وجل في سورة الأنفال، بعد أن بيَّن أحكام الموالاة بين المسلمين والكافرين: ﴿ **إلاّ تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض** ﴾.

الخامس : الضمائر المُبْهَمة، وهي على قسمَين، أحدهما يعود إلى مُتَقدِّم، ولكنه لا يُطابقه كقوله تعالى، في سورة النساء: ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهنَّ نِحلةً، فإن طِبْنَ لكم عن شئ منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً** ﴾ فالهاء في "منه" ظاهرة الرجوع إلى الصدقات، ولكنها لا تطابق الصدقات في الجنس، ولا في العدد. ولهذا قال الزمخشري في الكشّاف: "إنّ هذه الهاء بمعنى اسم الإشارة؛ كأنه قال: فإنْ طِبن لكم عن شئ من ذلك نفساً".

والقسم الثاني: ضمائر لا ترجع إلى متقدم، ولكن يُفسِّرها مُتأخِّر لفظاً ورُتبةً، كقوله تعالى: "إنْ هي إلاّ حياتنا الدنيا".

السـادس : الضمائر التي تقع في آيات التشريع، كقوله تعالى، في سورة البقرة : ﴿ **الطلاق مرّتان، فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان، ولا يحل لكم أن تأخذوا ممّا آتيتموهنَّ شيئاً إلاّ أن يخافا ألاّ يُقيما حدود الله** ﴾ فالألف في (يخافا) راجعة إلى الزوجَيْن اللذين لم يُذْكَرا.

وأوضح مثال لهذا النوع -أيضاً-: "آية الميراث في سورة النساء؛ فالضمائر التي تعود فيها إلى غير المذكور كثيرة".

السابـع : الضمائر التي يُفْهَم مرجعها من النَّص، كقوله سبحانه، في سورة النحل: ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة** ﴾ فالهاء راجعة إلى الأرض، التي لم تُذْكَر. وقوله تعالى لإبليس: ﴿ **اخرج منها فإنك رجيم** ﴾. فالهاء راجعة إلى الجَنَّة، التي لم تُذْكَر".

الثامـن : الضمائر التي تعود إلى(مَنْ) دون أن تُطابقها جنساً أوْ عدداً. والنحويون يقولون: إنَّ الضمير يرجع إلى"منٍ" باعتبار لفظها؛ فيُفْرَد، ويُذَكَّر، وباعتبار معناها؛ فيُطابق هذا المعنى جنساً وعدداً، ولكنَّ رجوع الضمائر إلى الألفاظ مرَّة، وإلى المعاني مرةً، لا معنى له، فأنت لا تقول: حمزة أقبلتْ، مُراعاةً لتأنيث اللفظ، وإنما تقول: حمزة أقبل، مراعاةً لتذكير المعنى، ولو جاز إرجاع الضمائر إلى الألفاظ مرةً، وإلى المعاني مرةً أخرى؛ لأصبحت اللغة والنحو ضرباً من اللَّعِب. والواقع أن الضمائر ترجع إلى (مَن) في القرآن الكريم مُفردةً في أكثر الأحيان، كقوله تعالى : ﴿ **مَنْ جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومَنْ جاء بالسيئة فلا يُجْزَى إلاّ مثلها** ﴾ ولكنها ترجع إلى (مَنْ) مُطابقةً في الصلة، وغير مُطابقة في الصفة أو الخبر، كقوله سبحانه، في سورة البقرة: ﴿ **فمن تَبِعَ هدايَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون** ﴾.

قاعـدة ذهبيــة

وقد توصَّل طه حسين، إلى أنَّ" ضمير الصلة مُفرد في القرآن الكريم دائماً إلاّ في مرتيْن اثنتيْن، في قوله تعالى: ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك** ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ **ومن الشياطين من يغوصون له، ويعملون عملاً دون ذلك** ﴾. فأمّا ما عدا الصلة فلا تتحقق فيه المطابقة. غير أنَّا نجد أحيانا الضمير ـ كما رأينا في المثال السابق ـ وأحياناً اسم الإشارة كقوله تعالى، في سورة البقرة : ﴿ **بلى من كسب سيئةً، وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾.

وأكثر من هذا؛ أن عدم المطابقة ليس مقصوراً على (مَن) فقط، بل يتجاوزها إلى (الذي)، مع أنَّ (الذي) مفرد قطعاً؛ فلا يصح أن يرجع الضمير إلى لفظه مرةً، وإلى معناه أخرى. فمن ذلك قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ **والذي جاء بالصدق وصدَّق به، أولئك هم المتقون** ﴾. وقوله سبحانه في سورة البقرة : ﴿ **كالذي يُنفق ماله رئاءَ الناس، ولا يؤمن بالله، واليوم الآخِر، فمثله كمثل صفوانٍ عليه تراب فأصابه وابلٌ فتركه صلداً، لا يقدرون على شيٍ مما كسبوا** ﴾. بلْ لا يقتصر عدم المطابقة على (من، والذي) وإنما يتجاوزهما إلى أسماء مُظْهَرَة، منها العام، ومنها الخاص. فمن الأول: قوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ **ووصّينا الإنسان بوالديه إحساناً** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أولئك الذين نتقبّل منهم أحسن ما عملوا** ﴾. ومن الثاني : قوله في سورة طه : ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى، قال ربِّ اشرح لي صدري، ويسِّرْ لي أمري، واحلل عقدةً من لساني يفقهوا قولي** ﴾.

فعدم المطابقة -إذن- ليس من خصائص الضمير، ولا من خصائص الأسماء الموصولة، وإنما هو أسلوب من أساليب القرآن الكريم، إذا أمكن ضبطه وتحديده؛ فقد أمكن حل مسألة الضمائر غير المطابقة، أو التي لا مرجعَ لها".

ويرى "طه حسين" أن القرآن الكريم يستعمل أحياناً أسماءً عامة، أو خاصة، وهو يريد أنَّ هذه الأسماء تدل على أصحابها أولاً، وتُمَثِّل جماعاتٍ أخرى ثانيةً. أيْ أنَّ هؤلاء الأشخاص ممتازون، لهم من المكانة في حياتهم الاجتماعية ما يجعلهم عنواناً لقومهم؛ فالضمائر التي تعود إلى أسماء مفردة مطابقة هي الضمائر التي تحدد أشخاصهم وتميزها، حتى إذا تمَّ هذا التحديد والتمييز، لم تعد الضمائر إلى هؤلاء الأشخاص، وإنما عادت إلى الجماعات التي يُمثِّلونها؛ ففرعون -مثلاً- يعود إليه الضمير مفرداً، في قوله تعالى: "إنه طغى". ومِن حيث إنه يمثل المصريين؛ فالضمير في (يفقهوا قولي) لا يعود إلى فرعون وحده، وإنما يعود إليه وإلى المصريين.

والإنسان، في آية الأحقاف السالفة، يراد به أبو بكر الصديق، كما قال المفسِّرون، ولكنَّ أبا بكرٍ عنوان لطائفة من المسلمين أَخلصوا في إيمانهم، وبِرِّهم وخضوعهم لله؛ فيَرجع الضمير أولِ الأمر إلى أبي بكر مفرداً ليحدده ويميزه، ثم يرجع الضمير بعد ذلك جمعاً إلى أبي بكر ونُظَرائه".

التاسع : ضمير الشأن، الذي يرى طه حسين أنه فقد معناه، وأصبح أداةً لفظيةً، لتقوية الجملة في القصص القرآني، وفي الوعد والوعيد.

هذا الحل واضحٌ في نفسه، وهو مفهوم من النحو المنطقي الصرف، ومن القرآن الكريم نفسه، الذي يحل هذه المشكلة حلاً لا شك فيه، ذلك أنَّ الآيات التي لم تتحقق فيها المطابقة، والتي تبلغ نحو المائة، قد ورد فيها اسم الإشارة سبعاً وأربعين مرةً، وورد فيها الضمير ثلاثاً وأربعين مرة.

إذن؛ فالقرآن الكريم يستعمل في هذه الآيات الضمير واسم الإشارة على السواء. فالضمير في هذه الآيات بمعني اسم الإشارة. ونحن نعلم أن اسم الإشارة لا يلزم أن يرجع إلى مذكور يتقدمه لفظاً ورتبةً، وإنما يجب أن يرجع إلى المشار إليه، وأن يطابقه عدداً وجنساً، سواء ذُكِر هذا المشار إليه أوْ لم يُذْكَر.

وقد طالب طه حسين النحاة واللغويين العرب بضرورة "تطبيق هذه القاعدة التي توصّل إليها، على كل الضمائر التي لا مرجع لها، أو التي لا تُطابق مرجعها، بحيث تؤخذ هذه الضمائر على أنها أسماء إشارات" بدلاً من اللهاث وراء ألغاز وأحاجي وتخريجات؛ أوقعت اللغويين أنفسهم في مآزق محرجة، ومواقف لا يحسدون عليها.

على مائدة سيبويه

حافظت (**العربية**) على أرستقراطيتها قروناً طويلة، وأزاحت مئات اللغات واللهجات من طريقها، وتخطتْ اليابس والماء، وتبخترتْ فوق الحضارات، وصنعتْ أمجاداً لا تزال شواهدها قائمة، لا تحتاج إلى دليلٍ، إلاَّ إذا احتاج النهارُ إلى دليل.

لذا؛ تغنَّى الشيخ قسطاكي الحمصي ـ بجمال العربية في قصيدته، التي أسماها (**ليلى**) :

فإنَّ ليلى فتاةٌ لا مثيل لها	**صِيغتْ من الحُسنِ شكلاً ما له ثانِ**
إلى البداوةِ منسوبٌ منابتها	**وإنْ نميتْ فهل فخرٌ كعدنان؟**
ألفاظها دُررٌ، تركيبها صورٌ	**آياتها غُررٌ، في كل قرآن**

وقد نصح «الشَّاعر القروي» بضرورة تعليم الأبناء القرآن الكريم والحديث النبوي، فقال: «علِّموا القرآن والحديث ونهج البلاغة في مدارسكم وجامعاتكم، لتقوِّم بالفصحى ألسنتكم، وتتقوى ملكاتكم، ويعلو نفسكم، وتزخر صدوركم بالحكمة، وتشرق طروسكم بسحر البيان».

لكن؛ على الرغم من الكمال الذي بلغته «العربية»، وعلى الرغم من الثبات الذي امتازت به عن سائر اللغات؛ إلاَّ أنه كثيراً ما تشتعل المعارك بين (الأدباء) و(علماء النحو). ولعلَّ أعنفها ما كان في الماضي البعيد بين «الكوفيين» و»البصريين».

فالأدباء أصحاب أفقٍ بعيد، وخيال جامح، لا يحبون التقيُّد بالقواعد النحوية الدقيقة؛ التي يعتبرونها عثرةً في طريقهم، وحاجزاً أمام ملكاتهم الإبداعية، فيلجأون إلى اختلاق الحيل الأدبية، والنكات اللغوية، ليحرجوا خصومهم المتربصين بهم؛ كما فعل أبو نواس، وابن الرومي، وكما فعل المتنبي، وأبو العلاء.

بينما نجد (علماء النحو) يقفون لهم بالمرصاد، وينصبون أجهزة الرادار، ويستخدمون العدسات المكبِّرة، وأجهزة الاستشعار عن بُعد؛ فيحاسبون على الصغيرة قبل الكبيرة، ويفوِّتون الفرصة على أولئك المبدعين المتسلِّلين، ولا يسمحون لهم

بالهروب بالأوزان المغشوشة، ولا بالخروج سوى من بوابة «الخليل» و«الكسائي» و«سيبويه». بلْ ويحرِّمون عليهم ترك النوافل اللغوية، ويذكِّرونهم بالمعلوم من النحو بالضرورة، ويطالبونهم بفقه اللغة، ويمنعونهم من تجاوز الإشارات النحوية الحمراء.

ولمْ يخلُ عصر من العصور من تلك المنازعات اللغوية العنيفة، والمعارك النحوية الحامية الوطيس. وقد ترتفع الأصوات، وتحتدم المناقشات، وتتأجَّج العداوات، وربما يسقط إزاءها من القتلى والجرحى، كتلك التي مات على إثرها «سيبويه» كمداً.

أوْ كالتي صدَّرها «العقَّـاد» في هجومه على «طه حسين» بمقالة عنوانها: (حتَّاك يا طه). فاضطرَّ الأخير أنْ يمسك لسانه، ويغلِق عليه داره، ويبكي على خطيئته.

أوْ كقول العقَّـاد للرافعي: (إيه يا خفافيش الأدب؛ أغثيتم نفوسنا، أغثى الله نفوسكم، لا هوادة بعد اليوم، السوط في أيدينا، وظهوركم لمْ تُخلَق إلاَّ لهذا السوط، وسنفرغُ لكم أيها الثقلان). مما تسبَّب في مرض الرافعي المفاجئ، ثمَّ موته البائس .. كيْ يستريح من سياط العقَّـاد.

وكثيراً ما تحدث «وساطات» بين المتخاصمين، ويتدخل «أهل الحل والعقد» لفض النزاع، وإصلاح ذات البيْن؛ كالصلح بين «حافظ» و«المازني»، أوْ بين «زكي مبارك» و«أحمد أمين».

وأحياناً يكون النقد هادئاً، أوْ مواربا، أوْ محتشماً، أوْ من وراء حجاب، تأسياً بالخطاب القرآني ﴿ **وقولوا للنَّاس حسناً** ﴾. فالشعبيّ -رحمه الله- ينبِّه ضيفه إلى الاهتمام بالنحو، دون أن يحرِجه، فيقول: النحو في الكلام كالملح في الطعام.

والأصمعي يحذِّر مريديه من عاقبة اللحن -الخطأ- فيقول: «أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبيّ ﷺ: مَن كَذَبَ عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار". لأنه لم يكن يلحن، فمهما رويتَ عنه ولحنت؛ فقد كذبت.

وقد استدرك أحدهم على أبيه -بالتلميح- قائلاً: ربما دعوتُ فلحنت، فأخاف ألاَّ يستجاب لي.

وتطبيقاً للقول الأخير؛ نجد "الأصمعـي" وقد سمع رجلاً يدعو: (يا ذو الجلال والإكرام). وهذا خطأ نحوي؛ لأنَّ "المنادَى المضاف" لابدَّ أن يكون منصوباً. فقال له

: منذ كمْ تدعو؟ قال: منذ سبع سنين دأباً، فلمْ أرَ إجابة. فقال الأصمعي: ما اسمك؟. قال : ليث. فأنشأ الأصمعي، يقول:

ينـادي ربَّــه باللحــن ليــثٌ   لــذاك إذا دعــاه فـلا يجيــب.

ثمَّ صحَّح له خطأه، فقال: «قل يا ذا الجلال والإكرام».

بلْ إنَّ "أبا الأسود الدؤلي" يعجب من أن يربح من يخطئ، فعندما دخل السوق؛ رأى أعدالاً للتجار مكتوباً عليها: لأبو فلان ـ والصحيح لأبي فلان ـ فقال: سبحان الله. يلحنون ويربحون.

ولا يخفى أثر البيئة على اللغة، من ذلك؛ قصة أبي عمرو ابن العلاء مع (أبي خيرة) الأعرابي حين سأله عن ضبط جمع مؤنث سالم في حالة النصب، فنطق به أبو خيرة مفتوحاً، فقال أبو عمرو : "هيهات، قد لانَ جلدكَ يا أخيرة، لقد أصبح أبو خيرة من الحضر أهل السواد، أكلة الكواميخ والشواريز، بعد أن كان من أهل البداوة، حرشة الضباب، وأكلة اليرابيع".

معركة (البقروت) اللغوية.

كثيراً ما نجد كبار العلماء والفلاسفة والمصلحين، يأتون بألفاظ مستحدثة، وأساليب غير معهودة؛ إيماناً منهم بأنَّ "لغـة الضاد" مرنة وطيّعة وخصبة وقادرة على التعبير عن مختلف المعاني والمشاعر والأحاسيس، من ذلك الحكاية الطريفة التي رواها العلاَّمة الشامي من أصل جزائري عبد القادر المغربي في مجلة (**كوكب الشرق**) عدد 12 يونيو 1928م، قال: روى عبد الله البستاني أنَّ الشيخ جمال الدين الأفغاني قال في هجو بعض البُلَداء: "هذا رجل من نسل البقروت". فعابوا عليه كلمة "البقروت" فأجابهم: "ألاَ تقولون: جبروت ورهبوت وملكوت، فلماذا تمنعون عني القول بقروت"؟.

فاعترضوا عليه بأنَّ "البقروت" لم ترد في كلام العرب، فقال: "وهل تريدون مني أنْ أُنكر نفسي، وأخضع لأعرابكم".

وعلّق البستاني على كلام الأفغاني بقوله: "هذا مما قاله الأفغاني، وهذه هي القاعدة التي يجب علينا العمل بها في إنهاض لغتنا؛ فإنَّ الجمود يقتل اللغة العربية، وإذا نحن رددنا عنها تيار العُجمة والرطانة والركاكة، لا يستنتج من عملنا أننا نريد أن نعيش بعقل ابن البادية؛ فإنَّ ابن البادية جاءنا بما عنده، وعلينا أن نُتحِف اللغة بما عندنا؛ لتقوم لها قائمة".

لكن الأب أنستانس ماري الكرملي نقل هذا الكلام في مجلة "**لغة العرب**" ورفض كلام الأفغاني، قائلاً: ".. ولا نقبل أن ندخِل في لغتنا مثل البقروت، بحجة أن جمال الدين نطق بها؛ فلقد يكون المرء حسن الرأي والقول في أمور، ولا يصلح رأيه في أمور أخرى".

ويظهر من سّياق الكلام أنَّ العلاَّمة البستاني يقبل البقروت، بمعنى البقر، ويُفتي بجواز استعمالها، على العكس من الكرملي، الذي عابها، وأقام النكير على الأفغاني من أجلها:

لكن؛ لا ننسى أنَّ كثيراً من المفردات قد يفرضها كثرة ورودها على ألسنة الناس، وعلى أقلام الكُتّاب والصحفيين، من غير المتخصصين في المجال اللغوي، وبرغم هذا فقد نشأت في العربية قديماً الاتجاهات نفسها التي تأخذ باستعمالات الناس.

ومما يروى في ذلك مما ذكره صاحب تاج العروس من أنَّ "المتنبي" قال قصيدة جاء فيها هذا البيت المشهور:

وقد يتزيَّا بالهوى غيرُ أهلهِ ... ويستصحبُ الإنسان من لا يلائمه

فاعترض عليه تلميذه ابن جِنِّي، في استعماله للفعل (يتزيَّا) بالياء، أيْ كان الصواب أن يكون بالواو. وقال له: هل تعرفه في شِعر أوْ كتاب في اللغة؟. فقال المتنبي : لا. فقال: فكيف أقدمتَ عليه؟. قال: لأنه جرى في الاستعمال. فقال ابن جني: أرى الصواب (يتزوَّى) من زُويَتْ ليَ الأرض. وإلى هذا ذهبتُ.

فقال المتنبي : لمْ يرِد في الاستعمال إلاَّ (تزيَّا).

وهناك ما نُسِبَ ـ أيضاً ـ إلى الشاعر عمارة بن عقيل، عندما جمع (ريح) على (أرياح) في بعض شعره. فاعترضه اللغوي أبو حاتم السجستاني قائلاً: هذا لا يجوز، إنما هو (الأرواح) بالواو. فقال عمارة معتذراً: لقد جذبني إليها طبعي، أمَا تسمعهم يقولون: (رياح) بالياء أيضاً؟.

وهكذا انتصر رأي المتنبي، وعمارة بن عقيل؛ المعتمد على الاستعمال، لا المسموع، واندثر رأي اللغويين، أمثال: ابن جِنِّي وأبي حاتم، اللذيْن ظنا أنَّ بوسعهما تحجير اللغة في قوالب لا تسمح لها بالتنفس والحركة.

فلقد شاع في الاستعمال (يتزيَّا) بلا جدال، ولمْ ترِد (يتزوَّى) مطلقاً.

وأمَّا (أرياح) فقد استعملتها بعض اللهجات العربية، على حين اكتفتْ الفصحى بالجمع القرآني (رياح). ولكن (أرواح) لمْ ترِد مطلقاً في الاستعمال إلاَّ جمعاً للفظة (روح).

وبعض الشعراء والأدباء -لاسيما في هذا العصر- يضيقون ذرعاً بالتقعر النحوي، والتعقيد اللغوي، فمثلاً؛ نجد "أمين الريحانـي" يتألَّم ويصرخ، قائلاً: "كفاني من النحو مشقة وعذاب، لقد أنهكت قوايَ، وتمزَّقتْ أحشائي بين الكسائي، وسيبويه، وابن مالكٍ، والمُبرِّد، ونِفطويه

ويقول لنعوم مكرزل: أودُّ أن أكتب كل أسبوع، غير أني وقعتُ كما تعلم بين لغتيْن، بلْ بليّتيْن؛ فإنْ كانت الإنجليزية في دمي، فلغة سيبويه في عظامي، والاثنتان تتجاوبان في فؤادي؛ ولذلك أحيا مُنهكَ القُوَى، أليفَ الهمِّ والحَيرة. والبلية الكبرى هي أنني كلما حفظتُ لفظةً جديدة عربية، أنسى من الإنجليزية اثنتين وثلاثاً، فإنْ طال باعي في تلك، قصَّر في هذه.

ذات مرة؛ كتب (جبـران خليل جبران) للنحاة المتنطعين، في مقال بعنوان (لكم لغتكم ولي لغتي): "لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق، ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب، ودمعة في جفن المشتاق، وابتسامة على ثغر المؤمن، وإشارة في يد السموح الحكيم. لكم منها الفصيح دون الركيك، والبليغ دون المبتذل، ولي منها ما يتمتمه المستوحش، وما يغص به المتوجع، وما يلثغ به المأخوذ، وكله فصيح بليغ".

وقال أيضاً، مهاجماً علماء النحو: "لكم منها ما قاله سيبويه والأسود وابن عقيل، ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المملِّين، ولي منها ما تقوله الأم لطفلها، والمحب لرفيقته، والمتعبِّد لسكينة ليله"..

لكن الشَّاعر والأديب اللبناني "مـارون عبـود" له رأيٌ آخر في هذه القضية، فقال في كتابه **"نقدات عابر"** منتقداً المنفِّرين والمتقعِّرين، فقال: إنَّ لغة العرب لا تحتاج إلى تعديل خطير في نحوها الأدبي، لوْ لمْ تبلَ بالذين ينقبون أبداً في أقبيتها وسراديبها عن كلمات نافرة، ليفتحوا بها في الأدب فتحاً مبيناً، فمصطفى صادق الرافعي يريد أن يبعث (بنيتُ بها) ويقبر تزوجتها، و"بنيتُ به" عدا أنها غلط، فهي جدة الشنفرة وتأبط شراً، ناهيك عن عهد البناء على النساء قد انقضى، فنحن سكان مدر لا وبر. و"محمد كرد علي" عضو المجمع الملكي المصري ورئيس المجمع الدمشقي، يقول لنا: (حذو القذّة بالقذّة) في تلخيص كتاب فرنسي حديث، فيزيدنا عمى قلب. و"أحمد حسن الزيات" يحاول أن يزيد في ثروتنا اللغوية ـ زاده الله فصاحة

ـ فيقول : (كنا نسمر ليلة النيروز المسيحي) ثم شرحها لنا نحن الشرقيين. اللهمَّ رحماك، ورفقاً بهذا اللسان الذي أنزلتَ به كتابك.

وربما هذا الذي دعا الشَّاعر المهجري نعمـة قـازان- يرتجل قائلاً :

لـئنْ عـاق دربي إلى اللـه لفـظ — همـزتُ جـوادي، يسـير الخبـبْ
وجـوزتُ في الـصرفِ مـا لا يجـوز — وأوجبـتُ في النحـو مـا لا يجِـبْ

بلْ بلغ به الغضب مبلغه، فصاح قائلاً :

لـتُ وقلـتُ، وللدهـرِ قـولٌ — وليـس عـلى الدهـر مـن حُجـةِ.
حلفـتُ بأُمِّـي لا ناكثـاً — ويـا لـكَ، وبـالأمِّ مـن حِلفـةِ
إذا فتـح اللـهُ يومـاً علـيِّ — (رفعـتُ) البنـاءَ عـلى الكـسرةِ
أقـاسَ النحـاةُ حـدودَ الزمـانِ — ومرمـى خيـالي وعقليَّتـي
لقـد حددوهـا لأفكارهـم — فضاقـتْ وزمَّـتْ عـلى فكـرتي.

وقد عانتْ (نبويـة موسى) من طريقة تدريس حروف المعاني العقيمة في النحو، فنظمتْ أبياتاً كلها تذمر وشكوى، تقول :

أشـكو إليـكَ حروفـاً في تعلمهـا — حلَّـتْ بقلبـي مـن تكرارهـا العِلـلُ
(إذنْ وإذْ مـا) فـما كررتهـا أبـداً — إلاَّ بـدتْ أدمعـي كالسيل تنهمـلُ
ولا ذكـرتُ (بـلى والكافَ ثـم جللُ) — إلاَّ وخـاب لـدى تذكارهـا الأمـلُ
(جيرى وحتى وحاشا) بِـتُّ أقرأها — حتـى ثنا همتـي عن حفظهـا المللُ
عـلِّي بذلـك لا ألقـى العقـاب ولا — عـن ساحة الكـرم المأمـولِ أنتقـلُ

فأعطاها المعلّم «صفراً» تشجيعاً لها على قرض الشِّعر المتذمر من طريقته السقيمة في التعليم.

وقالت (نبوية موسى) أيضاً، اعتراضاً على دروس النحو والصرف العقيمة :

دهتنـي صروف الـصرفِ، لا درَّ درّه — ولا خـير في فعـلٍ إذا رُمـتَ صرفـه
كـما أنـه يُخـشى الزمـان وصرفـه — أرى الفعـل موهوبـاً لـديَّ وصرفـه
فـإنْ تكـسروا للفعـل عينـاً فإننـي — كـسرتُ ذراعَ الفعـلِ عمـداً وأنفـه
وإنْ كان معتـلاً فلسـتُ طبيبـةً — دعـوهُ دعـوه علّـه يلقـى حتفـه.

أخيـراً؛ مهما نشب الصراع بين الفريقيْن، ومهما تأجَّجَ النزاع بين المدرستين، ومهما احتدم الجدال بين المعسكرين، فجميعهم أبناء هذه اللغة الشاعرة، وثمرة خلودها وتألّقها؛ إنْ لمْ يصبهم منها وابلٌ فطل.

بلْ إنهم جميعاً أغنوا (**العربية**) بمعاركهم، ونافحوا عنها بإبداعاتهم، بعدما أدركوا عظمتها، وانبهروا بخصائصها، وبعدما خلبتْ ألبابهم، وفاضت بجمالها قرائحهم، لتظلّ (العربيـة) أم اللغات، ولسان التنزيل، ولغة الوحي والوحدة، فسبِّح باسم ربِّك العظيم.

عجائب "الفصحى" وغرائبها

يقول العلاَّمة الطاهر بن عاشور: "اللغة العربية أوفر اللغات مادة، وأقلها حروفًا، وأفصحها لهجة، وأكثرها تصرفاً في الدلالة على أغراض المتكلم، وأوفرها ألفاظاً، وفيها من الدقائق واللطائف لفظًا ومعنى ما يفي بأقصى ما يراد من وجوه البلاغة".

ويقول الدكتور عبد الوهاب عزَّام: «العربية لغة كاملة محببة عجيبة، تكاد تصوِّر ألفاظها مشاهد الطبيعة، وتمثل كلماتها خطرات النفوس، وتكاد تتجلى معانيها في أجراس الألفاظ، كأنما كلماتها خطرات الضمير ونبضات القلوب ونبرات الحياة».

وقد كشف الفيلسوف زكي الأرسوزي عن خصائص امتازت بها العربية، مقارنة مع اللغات العالمية التي كان يجيدها، فرأى أن العربية ذات جذور في الأصوات والصور الطبيعية مثل (نية ونواة. وذكاء وذكاء)، لذلك تبقى على ما هي عليه لا يؤثر فيها الزمان، إلاَّ ما أهمل من الكلمات المعبرة عن أوضاع مهملة، أو ما أنشئ منها اشتقاقاً في حدود نظام اللغة مما هو تعبير عن حاجات المرحلة التاريخية المعاصرة.

ورأى ـ أيضاً ـ أنَّ كل كلمة لا يمكن إرجاعها إلى صورة صوتية مقتبسة عن الطبيعة، وفي إطار الصناعة اللغوية؛ هي كلمة دخيلة على العربية، في حين أن العلاقة بين الصوت والمعنى في اللغات غير العربية تقوم على العرف والاصطلاح، وليس على رابطة طبيعية، ولهذا تتطور فيها الكلمة من جيل إلى آخر حتى تصبح مختلفة المعالم عن نشأتها. وهذا ما دعا إلى تسمية اللغات الحديثة باللغات التاريخية. وهذه جاءت بدورها من تطور (الهندية ـ الأوروبية). لذلك فالفرنسيون المعاصرون لا يعرفون شيئاً عن أدبهم القديم الذي يعود إلى ما قبل عشرة قرون إلاَّ من كان منهم متخصصاً في اللغة اللاتينية، بينما لا يتعذر علينا فهم الأدب العربي القديم الذي يعود إلى أبعد من ذلك بقرون.

نعم؛ إنَّ من يقف على خواص (العربية) يرى فيها ما لا يحصى من العجائب والغرائب، وبخاصة من كان ضليعاً من فقه اللغة، وعلم الاشتقاق، فالكلمة عند أرباب هذا العلم :

ـ إذا كانت مؤلفة من حرفين؛ يمكن أن تأتي على صيغتين مثل (منَّ ، نمَّ).

- وإذا كانت ثلاثية؛ يمكن أن تأتي على ست صيغ نحو (ملك، مكل، لكم، لمك، كمل، كلم).
- أمَّا إذا كانت رباعية الحروف؛ فتكون قابلة لأربع وعشرين صيغة (1* 2* 3* 4 = 24).
- وعلى هذا القانون؛ فالكلمة الخماسية تكون قابلة إلى مائة وعشرين صيغة اشتقاقية، لإمكان جعل كل واحد من حروفها ابتداء لصيغة جديدة، وإمكان تركيب كل حرف من الحروف الأربعة الباقية على أربعة وعشرين وجهاً (1* 2* 3* 4* 5= 120). فتأمل عبقرية هذه اللغة وخصائصها المدهشة، ومزاياها التي تنفرد بها عن سواها، والتي وصفتها «دائرة المعارف الفرنسية» بقولها : (إنَّ اللغة العربية هي اللغة الجميلة بصورة متفوقة لا تضاهى).

ومن كان على معرفة أكاديمية بالفرنسية، وله صلة بأصحاب هذا اللسان ـ وهم على ما هم عليه من الاعتزاز بلغتهم ـ أدرك أهمية هذا الاعتراف من دائرة معارفهم. تماماً كذلك من كان من جهابذة العربية؛ يدرك أنها لغة إبداعية تنتمي كلماتها إلى أصول ثابتة، وفيها تبدو سمات القرابة بين الحرف وأشقائه، وبين الكلمة وأخواتها، وبين الكلمة ومعناها، وهذا يفسِّر لنا سر الإعجاز البلاغي في لغة القرآن، كما يعلِّل فارق التأثير شِعراً أوْ نثراً، بين عبارة تتأذى بها الأسماع وتنفر منها النفوس، وبين عبارة ترتشفها الآذان، وتدخل القلوب بلا استئذان.

وفي هذا الصدد؛ نعرض جانباً من عجائب العربية وغرائبها؛ التي يستحيل أن يكون لها نظير في مختلف اللغات قديمها وحديثها :

فمن **عجائب لغة الضاد** : أنها مملوءة بالألغاز والنكات الطريفة؛ التي تجعل من السهل التلاعب بمعاني الكلمات. ومن عجائبها: دقتها في إيراد الكلمات للتعبير عن الأحوال والصفات. ومن عجائبها: المترادفات الكثيرة والأسماء العديدة للشيء الواحد. من عجائبها: أن تجد الكلمة تعطي معنى، وتعطى المعنى المضاد لها، وأنها حمَّالة أوجه؛ بحيث تسمح للمضطر أن يُعَرِّض، وأنْ يجانس ويطابق، وأنْ يحسِّن ويقبِّح. ومن عجائبها : كلمات تقرأ من اليمين واليسار؛ وتؤدي ذات المعنى. بلْ الجملة تقرأ من اليمين بمعنى، ومن اليسار بمعنىً آخر. وأحياناً؛ إذا قرئتْ من اليمين صار مدحاً، وإذا قرئتْ من اليسار صار ذماً. ومن عجائبها: أن تجد صوت الحرف له دلالة على معناه، كما تجد الأسماء تحمل مسمياتها في الشدة واللين، والبشارة والنذارة، والحب والكره،

والسعادة والشقاوة -أيْ تطابق المبنى والمعنى. ومن عجائبها: تجد «المثنّى» الدال على شيئيْن غير متشابهيْن. ومن عجائبها: أن تجد كلمات تأتي (اسماً، وفعلاً، وحرفا). بلْ هناك من عجائبها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، وما لمْ يخطر على قلب بشر.

الأسماء الكثيرة للشيء الواحد :

مِن أسرار قوة اللغة العربية الذاتيَّة؛ كثرةَ مترادفاتها، التي مكَّنت الشعراء من أن يَنظموا عليها قصائدهم الطويلة، مع التزام الرويِّ والقافية، كما أنها أداة جيدة لبلاغة الكُتَّاب، وفصاحة الفصحاء؛ فقد استطاعوا أن يتخيَّروا من الألفاظ المرادفة ما يناسب السَّجع أحيانًا، والترصيع أحيانًا، الذي يُعرف عند البلاغيين بتوازن الألفاظ مع توافق الأَعجاز أو تقاربها.

إذن؛ لا عجب في قول «ابن خالويه»: «أحفظ للسيف خمسين اسماً». بلْ إنه صنَّف كتاباً في أسماء (الأسد) يحتوي على خمسمائة اسم. وزاد عليه من جاء بعده حتى أوصلوها إلى الألف. أيضاً؛ صنَّف ابن خالويه كتاباً في أسماء (الحية) أوصلها لمائتي اسم. و(العسل) له ثمانون اسما أفردها الفيروزآبادي بمصنف. و(العادة) لها أكثر من مائة اسم أفردها الصغاني بمصنَّف. وكذلك أفردها الفيروزآبادي بمصنف. وأسماء (الخمر) أفردها كثيرون بالمصنفات. وذكر أبو العلاء المعري أن (الكلب) له سبعون اسماً، حاول السيوطي جمعها في مصنف، فلم يدرك سوى ما يربو على الستين. ولابن خالويه أيضاً رسالة في أسماء الريح. وقال الزبيدي: للأسد 400 اسم، وللسيف 300، وللناقة 255، وللماء 170، وللمطر 70 لكل واحد منها استعماله الخاص في حالة معينة.

ومن عجائب لغة الضـاد التي لا يشاركها فيها غيرها من اللغات؛ أنها تحتوي على ألفاظ كثيــرة، تستوي في المعنى، حتى ولو مع التصحيف بالنقط إعجاماً وإهمالاً، من ذلك :

- زَكَبَ ، زَكَتَ: بمعنى ملأ.
- النكعُ ، البكعُ: بمعنى الضرب بالقدم على الدبر.
- دبّح ، دبّخ: بمعنى لزم بيته.
- الدّحو ، الذّحو: أيْ الجماع.
- امتَحطَ سيفه وامتَخَطه: أيْ سلّه.
- العَصبُ، العَضبُ : الغلام النشيــط.

ومن عجائب لغة الضـاد : ما يسمَّى بالاشتقاق الكبير والأكبر.

فإذا نظرنا إلى كتاب (**مقاييس اللغة**) لابن فارس؛ نجده يحاول أن يجد أصلاً ومعنى عاماً يرد إليه جميع كلمات المادة إنْ أمكنه السبيل إلى ذلك، وإلاّ فإنه يجعلها معنييْن أو أكثر.

أمَّا ابن جنِّي في مقدمة (**الخصائص**) فقد أطال النفس في بيان أن بعض الكلم في العربية يرجع إلى معنى واحد، مهما قلبت الحروف وغيرت في الترتيب.

والمثال الذي ضربه هو (ق و ل) وتقليباتها ستة :

ق و ل / ق ل و / و ق ل / و ل ق / ل ق و / ل و ق

ثم راح يتكلم على كل منها، ضارباً الأمثلة، وشارحاً الاشتقاق، وراجعاً كلاً منها إلى المعنى الذي يريد أن يثبته.

ومن عجائبها : كلمات تقرأ من اليمين واليسار

سر فلا كبا بك الفرس   دام عـلا العمـاد

وهناك كلمات مفردة كثيرة، مثل : (سوس، توت، كعك، خوخ، دود .... إلخ).

ومن عجائبها : أنَّ صوت الحرف له دلالة على معناه، مثل: نضخ ونضح - قضم وخضم - لطم ولكم ... إلخ.

ومن عجائبها : أن الأسماء على مسمياتها في الشدة واللين، وغير ذلك، مثل "الحَجَـر" سميت حجر لصلابتها وشدتها، حتى إنَّ بعض العلماء قال: لو أنَّ إنساناً قال لك: حَجَر، وأنت لم ترَ الحجر، فإنه سيتبادر إلى ذهنك؛ أنها صلبة وشديدة.

ومن عجائبها : أنَّ الجملة تقرأ من اليمين بمعنى، ومن اليسار بمعنىً آخر، وقد جاءت في قصة رجل أسره الروم، فلما طلبوا منه إرسال رسالة إلى قائد المسلمين ليشجعه على القدوم إليهم .. وكان الروم قد نصبوا للمسلمين كميناً؛ فكانت الرسالة، جملة واحدة فقط، إذا قرئت من اليمين كانت كما أراد الروم، وإذا قرئت من الشمال كانت تحذيراً للمسلمين، وهي :

(**نصحت فدع بيك ودع مهلك**) فإذا عكست كانت (**كلهم عدو كبير عد فتحصَّن**).

ومن عجائبها : أنها حمَّالة أوجه؛ بحيث تسمح للمضطر أن يُعَرِّض، وللشاعر أن يجانس ويطابق، وللمتكلم أن يحسِّن ويقبِّح، وخير مثال على ذلك كتاب أبي منصور (**تحسين القبيح وتقبيح الحسن**).

سئل ابن الجوزي أيام ظهور الشيعة : أيما أفضل أبو بكر أمْ علي؟. فقال : أفضلهما الذي بنتُه تحتَه، وهذه العبارة تحتمل الاثنين، وفيها عبقرية فذة.

وسئل أحد السلف في فتنة خلق القرآن، فعدَّ على أصابعه: التوراة والزبور والإنجيل والقرآن، ثم أشار إلى أصابعه وقال : أشهد أنَّ هذه الأربعة مخلوقة.

قال أبو الفتح البستي :

خُـذِ العَفْـوَ وأمُـرْ بعُـرْفٍ كـما   أمِـرْتَ وأَعـرِضْ عـنِ الجاهِلـينْ

ولِـنْ في الـكَلامِ لِـكُلِّ الأنـامِ   فُمستَحْسَـنٌ مِـن ذَوي الجـاهِ لِـينْ

وقال أيضا : إذا ملك لم يكن ذا هبة   فدعه فدولته ذاهبة.

وقال بعضهم : نَمْ لَهْ فإنــه   لا يســاوي نَمْلَـة

ومن غرائبها : أن البيض يكتب وينطق مع جميع الحيوانات التي تبيض بالضاد، ماعدا النمل يكتب وينطق "بيظ النمل" بالظاء. وأنَّ كلمة فيض مع جميع ما يفيض تكتب وتنطق بالضاد، ماعدا الماء يكتب وينطق فيظ الماء بالظاء.

ومن العجائب اللغوية في القرآن، قوله تعالى: (كل في فلك). فلو قرأتها بالعكس؛ فسيكون المعنى واحد.

ومن عجائبها : دقتها في إيراد الكلمات للتعبير عن الأحوال والصفات. وهذه الظاهرة واضحة جداً في القرآن الكريم، والتي تعدُّ من جماليات لغة القرآن ودقتها؛ فانظر ـ مثلاً ـ عندما يستخدم القرآن كلمة (زوجة) وعندما يستخدم كلمة (امرأة).

قالوا : عندما تكون العلاقة الزوجية جيدة، أوْ كما ينبغي أنْ تكون، يعبِّر بكلمة (زوجة) ومشتقاتها. كقوله تعالى (قل لأزواجك). أمَّا عندما تمر العلاقة الزوجية بأزمة، أوْ تشوبها شائبة؛ كأن يكون أحدهما مؤمن، والآخر كافراً، يستخدم كلمة (امرأة)؛ كقوله سبحانه: (امرأة نوح وامرأة لوط)، و(امرأة فرعون) أوْ الاثنان كافران (وامرأته حمَّالة الحطب). أوْ في حالة فقد الزوج (امرأة عمران).

أيضـاً؛ يستخدم القرآن كلمة (الرياح) للحياة والبشرى والسرور (وأرسلنا الرياح لواقح)، (الرياح مبشِّرات بين يدي رحمته). لكنه يستخدم كلمة (الريح) للعذاب والهلاك، كقوله (ريح صرصر عاتية) و(الريح العقيم).

أيضاً؛ يفرِّق بين كلمة (مدينة) وكلمة (قرية). المدينة ترمز للإيمان والحياة المستقرة، والتي لمْ ينزل بها العذاب (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ...). أمَّا القرية فهي التي ترمز للكفرِ والمعاصي، أوْ التي حلَّ أوْ سيحلّ بها العذاب (وإنْ من قريةٍ إلاَّ نحن مهلكوها أوْ معذِّبوها...)، (وتلك القرى أهلكناهم لمَّا ظلموا)، (وكم من قريةٍ هي أشدّ قوةً من قريتك..).

أيضاً؛ يفرِّق بين كلمة (عام) وكلمة (سنة) فالأولى ترمز للنعماء والسعادة والإيمان، كقوله (عامٌ فيه يغاث الناس وفيه يعصرون). والثانية ترمز للقحط والعناء والظلم والكفر (أخذناهم بالسنين ..) ويتضح هذا المعنى بشكل جيد، في قوله تعالى (فلبث فيهم ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً). وهذه إشارة إلى معاناة سيدنا نوح مع قومه طوال تسعة قرون ونصف القرن.

كذلك؛ حافظ العرب في كلامهم على دقة استخدام الكلمات والمصطلحات عند التعبير عن مختلف الأحوال والصفات. من ذلك :

- العرب تفرِّق في الشهوات؛ فيقولون : فلان جائع إلى الخبز، قَرِم إلى اللحم، عَطْشان إلى الماء، عَيْمان إلى اللّبن، بَرِد إلى التمر، جَعِم إلى الفاكهة، شَبِق إلى النكاح.
- يفرقون في المساكن؛ فيقولون : بيت الإنسان، عرين الأسد، عش الطائر، عطن البعير، كناس الظبي، قرية النمل، كور الزنابير، نافقاء اليربوع، وجار الذئب والضبع.
- يفرِّقون في اسم الشيء اللين، فيقولون : ثوب لين، ورمح لدن، ولحم رخص، وريح رخاء، وفراش وثير، وأرض دمثة.
- يفرِّقون في الامتلاء، فيقولون : بحر طام، ونهر طافح، وعين ثرة، وإناء مفعم، ومجلس غاص بأهله.
- يفرِّقون في تغير الطعام وغيره، فيقولون : أروح اللحم، وأسن الماء، وخنز الطعام، وسنخ السمن، وزنخ الدهن،وقنم الجوز، ودخن الشراب، وصدئ الحديد، ونغل الأديم.
- يفرِّقون في الكشف عن الشيء من البدن، فيقولون : حسر عن رأسه، وسفر عن وجهه، وأفتر عن نابه، وكشَّر عن أسنانه، وأبدى عن ذراعيه، وكشف عن ساقيْه، وهتك عن عورته.

- يفرِّقون في المنازل : فإنْ كان من مدر، قالوا : بيت، وإنْ كان من وبر، قالوا: بجاد. وإنْ كان من صوف، قالوا : خباء. وإنْ كان من الشَّعر، قالوا: فسطاط. وإنْ كان من غزل، قالوا : خيمة. وإنْ كان من جلود، قالوا: قشع.

- يفرِّقون في الضرب، فيقولون : للضرب على مقدم الرأس: صقع، وعلى القفا: صفع، وعلى الوجه : صك، وعلى الخد ببسط الكف: لطم، وبقبضها : لكم، وبكلتا اليدين: لدم، وعلى الذقن والحنك: وهز، وعلى الجنب: وخز، وعلى الصدر والبطن بالكف: وكز، وبالركبة: زبن، وبالرجل: ركل،وكل ضارب بمؤخره من الحشرات كلها كالعقارب : تلسع، وكل ضارب منها بفيه : يلدغ.

- يفرِّقون في أسماء الأولاد، فيقولون : لولد كل سبع: جرو. ولولد كل ذي ريش: فرخ. ولولد الفرس: مهر وفلو. ولولد الحمار: جحش وعفو. ولولد البقرة: عجل. ولولد الأسد: شبل. ولولد الظبية: خشف. ولولد الفيل : دغفل. ولولد الناقة : حوار. ولولد الثعلب: هجرس. ولولد الضب: حسل. ولولد الأرنب : خرنق. ولولد النعام : رأل. ولولد الدب: ديسم. ولولد الخنزير : خنوص. ولولد اليربوع والفأرة : درص. ولولد الحية: حريش.

- يفرِّقون في الجماعات، فيقولون: موكب من الفرسان، وكبكبة من الرجال، وجوقة من الغلمان، ولمة من النساء، ورعيل من الخيل، وصرمة من الإبل، وقطيع من الغنم، وسرب من الظباء، وعرجلة من السباع، وعصابة من الطير، ورجل من الجراد، وخشرم من النحل.

- يفرِّقون في الوسخ؛ فإذا كان في العين قالوا: رمص، فإذا جفَّ قالوا: غمص، فإذا كان في الأسنان قالوا: حفر، فإذا كان في الأذن فهو: أف، وإذا كان في الأظفار فهو: تف، وإذا كان في الرأس قالوا: حزاز، وهو في باقي البدن: درن.

- يفرِّقون في الرياح؛ فإذا وقعت الريح بين ريحيْن فهي: نكباء، فإذا وقعت بين الجنوب والصبا فهي: الجريباء، فإذا هبت من جهات مختلفة فهي: المتناوحة، فإذا جاءت بنفس ضعيف فهي: النسيم، فإذا كانت شديدة فهي: العاصف، فإذا قويت حتى قلعت الخيام فهي: الهجوم، فإذا حركت الأشجار تحريكاً شديداً وقلعتها فهي: الزعزع، فإذا جاءت بالحصباء فهي: الحاصب، فإذا هبت من الأرض كالعمود نحو السماء فهي: الإعصار، فإذا جاءت بالغبرة فهي: الهبوة، فإذا كانت باردة فهي: الحرجف والصرصر، فإذا كان مع بردها ندى فهي: البليل، فإذا كانت حارة فهي السموم، فإذا لم تلقح ولم تحمل مطراً فهي: العقيم.

- يفرِّقون في المطر؛ فأوله رش، ثمطش، ثم طل، ورذاذ، ثم نضخ، ثم هضل، وتهتان، ثم وابل وجود، فإذا أحيا الأرض بعد موتها فهي: الحياء، فإذا جاء عقيب المحل أو عند الحاجة فهو: الغيث، وإن كان صغار القطر فهو: القطقط، فإذا دام مع سكون فهو: الديمة، فإذا كان عاماً فهو: الجداء، وإذا روى كل شيء فهو: الجود، فإذا كان كثير القطر فهو: الهطل والتهتان، فإذا كان ضخم القطر شديد الوقع فهو: الوبل.

- يفرِّقون في الأصوات؛ فيقولون: رغا البعير، وجرجر، وهدر وقبقب. وأطت الناقة. وصهل الفرس، وحمحم. ونهم الفيل. ونهق الحمار، وسحل. وشحج البغل. وخارت البقرة وجأرت. وثاجت النعجة. وثغت الشاة ويعرت. وبغم الظبي ونزب. ووعوع الذئب. وضبح الثعلب. وضغت الأرنب. وعوى الكلب ونبح. وصأت السنونو. وضأت الفأرة. وفحت الأفعى. ونعق الغراب ونعب. وزقا الديك وسقع. وصفر النسر. وهدر الحمام وهدل. وغرد المكاء. وقبع الخنزير. ونقت العقرب. وأنقضت الضفادع ونقَّت أيضا. وعزفت الجن.

- يقولون لِما يضعه الطائر على الشجر: وكر، فإنْ كان على جبل أو جدار فهو: وكن، وإذا كان في كن فهو: عش، وإذا كان على الأرض فهو: أفحوص، والأدحى للنعام خاصة.

- يقولون في تقسيم الصدور: صدر الإنسان، ويسمونه من البعير الكركرة، ومن الأسد الزور، ومن الشاة القص، ومن الطائر: الجؤجؤ، ومن الجرادة: الجوشن، ومن الفرس لبان.

- يقولون في مراتب الضحك : التبسم أول مراتب الضحك ثم الإهلاس، وهو إخفاؤه، ثم الافترار والانكلال، وهما: الضحك الحسن، ثم الكتكتة أشد منهما، ثم القهقهة، ثم القرقرة، ثم الكركرة، ثم الاستغراب، ثم الطخطخة، ثم الإهزاق والزهزقة، وهي أن يذهب الضحك به كل مذهب.

- يقولون : يدي من اللحم غمرة، ومن الشحم زهمة، ومن البيض زهكة، ومن الحديد سهكة، ومن السمك صمرة، ومن اللبن والزبد شترة، ومن الثريد مرة، ومن الزيت قنمة، ومن الدهن زنخة، ومن الخل خمطة، ومن العمل لزقة، ومن الفاكهة لزجة، ومن الزعفران ردغة، ومن الطين ودغة، ومن العجين ودخة، ومن الطيب عبقة، ومن الدم ضرجة وسطلة وسلطة، ومن الوحل لثقة، ومن الماء بللة، ومن الحمأة ثئطة، ومن البرد صردة، ومن الأسنان قضضة، ومن المداد وجدة، ومن البزر والنفط نمشة ونثمة، ومن البول قتمة، ومن العذرة طفسة، ومن الوسخ درنة، ومن العمل مجلة.

- يقولون هجهجت بالسبع، وشايعت بالإبل، ونعقت بالغنم، وسأسأت بالحمار، وهأهأت بالإبل: إذا دعوتها للعلف، وجأجأت بها : إذا دعوتها للشرب، وأشليت الكلب : دعوته، وأسدته أرسلته.

- الصَّباحة في الوجه؛ الوَضاءة في البَشرة، الجمال في الأنف، الملاحة في الفم، الحلاوة في العينين، الظَّرْف في اللسان: الرّشاقة في القدّ، اللّباقة في الشمائل، كَمال الحسن في الشَّعر.

- الثدي للمرأة وللرجل:ثندؤة، وهو من ذوات الخف: الخلف، ومن ذوات الظلف: الضرع، ومن ذوات الحافر والسباع: الطبي.

- الظفر للإنسان وهو من ذوات الخف : المنسم، ومن ذوات الظلف : الظلف، ومن ذوات الحافر : الحافر، ومن السباع والصائد من الطير: المخلب، ومن الطير غير الصائد والكلاب ونحوها: البرثن، ويجوز البرثن في السباع كلها.

- المعدة للإنسان، الكرش للأنعام، الحوصلة للطائر.

ومن غرائب لغة الضاد؛ أنْ تجد أبياتاً إذا قُرئتْ من اليمين كانت مدحاً، أمَّا إذا قُرئتْ من اليسار، صارت ذماً، وهذا مثال من شعر إسماعيل بن أبي بكر المقري :

طلبوا الذي نالوا فما حُرِموا　　　رفعت فما حطت لهم رتب
وهبوا وما تمتْ لهم خُلُقٌ　　　سلموا فما أودى بهم عطب
جلبوا الذي نرضى فما كسدوا　　　حمدت لهم شيم فما كسبوا

وها هي ذات الأبيات من اليسار إلى اليمين، تصير ذماً :

رتب لهم حطت فما رفعت　　　حرموا فما نالوا الذي طلبوا
عطب بهم أودى فما سلموا　　　خلق لهم تمت وما وهبوا
كسبوا فما شيم لهم حمدت　　　كسدوا فما نرضى الذي جلبوا

وهذا مثال آخر من هذا اللون الشِّعري العجيب؛ هي في الأصل أبيات مدح وثناء، لكن إذا قرأناها بالمقلوب، فإذا بها تصبح ذماً وهجاءً.

حلموا فما ساءت لهم شيم　　　سمحوا فما شحت لهم منن
سلموا فما زلَّتْ لهم قدم　　　رشدوا فما ضلت لهم سنن

هكذا تصير الأبيات من المدح إلى الذم :

منــن لهــم شــحت فــما ســمحوا   **شــيم لهــم ســاءت فــما حلمــوا**
ســنن لهــم ضلــت فــلا رشــدوا   **قــدم لهــم زلــت فــلا ســلموا**

بلْ أعجب من ذلك؛ قصيدة المدح التي قيلت في «نوفل بن دارم» إذا اكتفينا بقراءة الشطر الأول من كل بيت، فإنَّ القصيدة تصبح هجاءً لاذعاً، كالآتي :

إذا أتيــت نوفــل بــن دارم   **أمــير مخــزوم وســيف هاشــم**
وجدتــه أظلــم كــل ظالــم   **عــلى الدنانــير أو الدراهــم**
وأبخــل الأعــراب والأعاجــم   **بعرضــه وســره المكاتــم**
لا يســتحي مــن لــوم كل لائــم   **إذا قــضى بالحــق في الجرائــم**
ولا يراعــي جانــب المــكارم   **في جانــب الحــق وعــدل الحاكــم**
يقــرع مــن يأتيــه ســن النــادم   **إذا لم يكــن مــن قــدم بقــادم**

ثمَّ انظر كيف تتحول إلى ذمٍ وهجاء إذا اكتفينا بقراءة الشطور الأولى فقط من كل بيت :

إذا أتيــت نوفــل بــن دارم   **وجدتــه أظلــم كــل ظالــم**
وأبخــل الأعــراب والأعاجــم   **لا يســتحي مــن لــوم كل لائــم**
ولا يراعــي جانــب المكــارم   **يقــرع مــن يأتيــه ســن النــادم**

من غرائــب لغــة الضــاد، التي لا توجد في غيرها من اللغات: (المثنّى) الدال على شيئيْن غير متشابهيْن. من ذلك :

الكلمة	المراد بها	الكلمة	المراد بها
الوحيان	القرآن والسنَّة	الثقلان	الإنس والجان
الوالدان	الأب والأم	الداران	الدنيا والآخرة
العشاءان	المغرب والعتمة	القريتان	مكة والطائف
الأصغران	القلب واللسان	الأصفران	الذهب والزعفران
العراقان	البصرة والكوفة	الرافدان	دجلة والفرات
العصران	الليل والنهار	الحرمان	مكة والمدينة
الأمرّان	الفقر والمرض	الأثرمان	الدهر والموت
الأسودان	التمر والماء	الأبيضان	الماء واللبن
الجديدان	الشمس والقمر	الأبردان	الظل والفيء

الكلمة	المراد بها	الكلمة	المراد بها
الأحمدان	الأمن والسلامة	البردان	الغنى والعافية
الأطيبان	الطعام والشراب	الأخبثان	السهر والضجر
الزهراوان	البقرة وآل عمران	الشيخان، العمران	أبو بكر وعمر
الصحيحان	البخاري، مسلم	الحكمان	أبو موسى وعمرو
الذبيحان	إسماعيل، وعبد الله	السبطان	الحسن والحسين
الكريمان	الحج والجهاد	الدائبان، النيّران	الشمس والقمر
الأيهمان	السيل والحريق	الأغزران	البحر والمطر
الحسنيان	النصر والشهادة	الخافقان	الشرق والغرب
الجيشان	القوة والشباب	العسكران	عرفة ومنى
الأعميان	الليل والسحاب	البليّتان	المرض والفقر
الثاويان	البدو والحضر	الأسمران	الماء والقمح
الخائنان	الجوع والعري	الضرتان	حجرا الرحى
الباكران	الصبح والمساء	الأخضران	العشب والشجر
الحجران والنقدان	الذهب والفضة	الأعجمان	الطير والوتر
الأذلاّن	الحمار والوتد	البحران	بحرا العرب والروم

من غرائب لغة الضاد؛ أن تجد كلمة تعطي معنى، وتعطى المعنى المضاد لها، وقد ألَّف أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري النحوي، المولود ببغداد عام (271 هـ) كتاباً بعنوان (**الأضداد**) قال في مقدمته: (هذا كتاب ذِكر الحروف التي توقعها العرب على المعاني المتضادة ...). وقد ضرب كثيراً من الأمثلة، مثل كلمة (**جلل**) في قول الشاعر :

كل شيء ما خلا الموت جلل   والفتى يسعى ويلهيه الأمل

فكلمة (**جلل**) تعني الشيء القليل اليسير، وتعني أيضاً الشيء العظيم، وهذا ضد ذاك.

وهناك أمثلة، لا حصر لها من هذا اللون العجيب، من ذلك :

وراء : خلف أوْ قدام، وبه فسَّروا : ﴿ **وكان وراءهم ملِك يأخذ كل سفينة غصبا** ﴾ أيْ أمامهم.

عسعس الليل : إذا أقبل بظلامه أوْ أدبر، ولذا قالوا في تفسير قوله تعالى ﴿ **والليل إذا عسعس** ﴾ إذا أقبل بظلامه أو إذا أدبر، روي القولان عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الصريم : الليل أوْ الصبح. وبه فسر قوله تعالى ﴿ **فأصبحت كالصريم** ﴾ أيْ كالليل الأسود، وقيل كالنهار فلا شيء فيها.

الغابر : الباقي أوْ الغائب. ولذا قالوا في تفسير قوله تعالى ﴿ **فأنجيناه وأهله إلاَّ امرأته كانت من الغابرين** ﴾ أيْ الباقين في عذاب الله، أوْ الغائبين عن النجاة.

التعزير : أيْ التعنيف أو التعظيم، ومنها قوله: ﴿ **لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه ..**﴾ أيْ تعظموه.

الأقراء : الحيض أوْ الأطهار، ولذا اختلفوا في تفسير قوله تعالى ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ قال أهل الكوفة: هي الحيض، وهو قول عمر وعلي وابن مسعود. وقال أهل الحجاز : هي الأطهار، وهو قول عائشة وابن عمر. وقال الشافعي: الانتقال من الطهر إلى الحيضة يسمى قرءا.

أسررت الشيء : أخفيته أوْ أعلنته، وبه فسَّروا ﴿ **وأسرُّوا الندامة لمَّا رأوا العذاب** ﴾ أيْ أظهروها.

صار : أيْ جمع أوْ قطع ؛ وبه فسر قوله تعالى ﴿ **فصرهن إليك** ﴾ قال ابن عباس أيْ قطعهن، وقال عطاء: اضممهن إليك.

الرجاء : للرغبة أوْ للخوف، وبه فسَّروا ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقاراً** ﴾ أيْ لا تخافون عظمة الله.

الجون : للأسود أوْ للأبيض وهو في الأسود أكثر.

الطرب : الفرح أو الحزن، ففي المعجم : الطرب خفة تصيب الإنسان لشدة حزن أو سرور.

الناهل : العطشان أو الذي قد شرب حتى روي. وفي المعجم: النَّاهِلُ : العطشان والرَّيان.

العادل : المنصف، أوْ المشرك القاسط عن الحق.

السدفة : الظلمة في لغة تميم أو الضوء في لغة قيس، وبعضهم يجعل السدفة اختلاط الضوء والظلمة معاً كوقت ما بين صلاة الفجر إلى الإسفار.

طلعت على القوم : إذا أقبلت عليهم حتى يروك أو إذا غبت عنهم حتى لا يروك.

لمقت الشيء : إذا كتبته أو محوته.

بعت الشيء : إذا بعته غيرك أو اشتريته.

شريت الشيء : إذا بعته غيرك أو اشتريته.

شعبت الشيء : أصلحته أو شققته.

الهاجد : المصلي بالليل أو النائم.

الجلل : الشيء العظيم أوْ الشيء الصغير الحقير.

الصارخ : المستغيث والصارخ المغيث.

الإهماد : السرعة في السير أو الإقامة.

الظن : اليقين أوْ الشك.

فرع الرجل : في الجبل صعد أوْ انحدر.

رتوت الشيء : شددته وأرخيته.

أخفيت الشيء : كتمته أوْ أظهرته.

شمت السيف : أغمدته أوْ سللته.

البسل : الحرام أوْ الحلال. جاء في القاموس المحيط: الحَرامُ والحَلالُ، للواحِدِ والجَمْعِ، والمُذَكَّرِ والمُؤَنَّثِ.

أكرى : زاد، أوْ نقص.

هكذا؛ هي (**لغة الضاد**) التي لا يحدُّها حد، ولا تنقضي عجائبها، ولا تنفد غرائبها، ولا يحيط بها إلاَّ نبيّ من الأنبياء.

معارك العربية

لم تحظَ لغةٌ بمثل ما حظيت به **(العربية)** من الروعة والسحر والبهاء والغنى وحسن التعبير والأداء. هذا في الوقت الذي لمْ تتعرض لغة للعداء السافر بمثل ما تعرضت له (العربية) من الضربات الخارجية والطعنات الداخلية، وبمختلف الأسلحة من مستشرقين وتغريبيين، وملاحدة وماديين، ومرتزقة، وسماسرة، وأكاديميين، وإعلاميين وعلمانيين، وعملاء ومتطوِّعين، وأناس من جلدتنا، وأناس غرباء عنا.

وقد تعهد الاستعمار بدعم أوليائه وربائبه، لإنجاز تلك المهمة؛ فتوالتْ الحملات الجائرة، لتشويه العربية والافتراء عليها، ورميها بالقصور وعدم الكفاية العلمية، واتهام حروفها ونطقها بالصعوبة والتعقيد ... إلخ.

لقد فُرِضَ على (الفصحى) صراع لا تريده أصلاً، فبات حتماً عليها خوضه حتى النهاية، ولاَ نهاية حتى تُرَد الأمور إلى نصابها، ويزول الشر، وينطفئ الشرر.

أجل، لقد حوربت (الفصحى) من مختلف الجهات، وبالأسلحة كافة؛ فقد حاربها (الأتـراك) على امتداد خمسة قرون، وحاولوا اغتيالها عن طريق تتريكها، ولم يفلحوا في مهمتهم هذه، لكن محاولتهم تركت الكثير من الخدوش والتشوهات التي مازالت آثارها بارزة.

وحاربها (الأوربيـون) بغية إحلال لغاتهم محلها، ولا زالت محاولاتهم الجائرة مستمرة، حتى بعد انسحاب جيوشهم، وأساطيلهم الحربية.

كما حاربها **(دعاة العاميـة)** بضراوة، وحاولوا إزاحتها؛ ليخلو الميدان للهجاتهم المنحطَّة. وقد تصدى الدكتور **"طه حسين"** لتيار اللهجة العامية الذي تفشَّى في العصر الحديث، فأكدَّ على أن "الفصحى" مقوِّم من مقومات الحياة، وأنها ترفع مكانة الأدب العربي في العالم، فقال: "إنه في يومٍ غير بعيد، ستعود الحياة القومية إلى هذه اللغة، وستصبح ـ ليست لغة المثقفين فحسب، ولا لغة الأدب فحسب، لكنها لغة المثقفين ولغة الأدب التي يفهما الشعب كله".

وقد كان "**شوقـي ضيـف**" يرى أنَّ "النعرات الإقليمية مجرد فقاقيع، تبرز حيناً ثم تختفي، ويرجع الناس بعدها إلى التيار القومي العام، فالعربية الفصحى تملك كل مقومات البقاء".

وفي كتابه "**أشتات مجتمعات في اللغة والأدب**"؛ أكدَّ **عباس العقَّـاد** : "أن الحملة على اللغة في الأقطار الأخرى، إنما هي حملة على لسانها، أوْ أدبها على أبعد الاحتمال. ولكن الحملة على لغتنا نحن؛ حملة على كل شيء يعنينا، وعلى تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية، وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربةٍ واحدة؛ لأنَّ زوال اللغة في أكثر الأمم يبقيها بجميع مقوماتها غير ألفاظها، ولكن زوال اللغة العربية لا يبقي للعربي والمسلم قواماً يميزه عن سائر الأقوام، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم، فلا تبقى له باقية من بيان، ولا عُرف، ولا معرفة، ولا إيمان".

ترى؛ هلْ إعلان الحرب على الفصحى، والسخرية منها، وعزلها، ومحاولة التخلص منها ـ هلْ يعدُّ من أصول "الحداثة" وأسس "التنوير" ومبادئ "الليبرالية" التي يتغنّى بها القوم؟.

ولماذا لمْ يتوقف الهجوم على (لغة الضاد) يوماً واحداً، منذ أنْ وطئ المستعمِر الوطن العربي، وحتى بعد رحيله؟.

وإذا كانوا يزعمون أنَّ الفصحى عاجزة عن أن تكون لغة العلم والفكر والثقافة، فهلْ اللهجات العامية أقدر منها في هذه الميادين؟.

الحق أقول : إنَّ الأمر ليس كما يزعم القوم ويفترون.

فأوروبا قد أدركتْ منذ الحروب الصليبية؛ قوة الإسلام ـ حضارة وتاريخاً وفكراً وثقافة ـ وأيقنوا أنَّ المسلمين إذا أحسنوا صلتهم بالفكر والثقافة الإسلامية؛ فلن تكون في الأرض قوة تضارعهم، وذلك لِمَا حوته الحضارة الإسلامية من القوى الروحية والمعنوية.

من هنا؛ قرر الغرب القضاء على الإسلام كليةً إنْ أمكن، وعزل الإسلام عن المسلمين إنْ لم يمكن القضاء عليه، فاستخدم وسائل متعددة لتحقيق هذا الهدف خلال قرنين من الزمان، أهمها: محاربة الفصحى، وإحلال اللهجات المحلية مكانها، والتمرد على الأصالة والتراث بما أسموه بالحداثة، واختراق الوسط الثقافي، وهدم القيم الأصيلة، وتجنيد تلامذة ومريدين لهم من جلدتنا لمحاربتنا من الداخل عبر وسائل الإعلام والقنوات الثقافية التي يعملون من خلالها. [1]

---

(1) **الصفحات السود لمدرسة التغريب والحداثة والتنوير**، محمد عبد الشافي القوصي، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة.

ولم تكن الحرب على (الفصحى) من حيث هي لغة عربية؛ ولكن لأنها لغة تقوم بدور الوحدة والتوحيد؛ توحيد اللسان والفكر والثقافة، كما قامت بدور التوحيد في الماضي، وهم لا يريدون لهذه الأُمة أن تتوحد، ولأنها أيضاً لغة تستوعب تراث الحضارة الإسلامية؛ وبقاء هذه اللغة يصل هذه الأُمة بماضيها، وهم لا يريدون لهذه الأُمّة أن تتواصل، ولا يريدون لهذا التراث أن يبقى حياً وفاعلاً ومؤثراً.

ولَمْ يكن إحلال اللغات الأجنبية ـ الذي حقَّق بعض النجاح في التعليم الجامعي ـ هو الميدان الوحيد الذي حُورِبتْ فيه الفصحى، إنما حُورِبت أيضاً بسلاح "اللهجات العامية"، وقد تولى كِبْرَ هذه الدعوى دعاة الاستعمار، ثم تبعهم "المغفَّلون" من الأعراب.

إنَّ العربية التي انتقلت من تعدّد لهجات العرب إلى الوحدة لتكون لسان توحيد لهذه الأُمة، لا يُستساغ أن تتوارى لتحل محلها العاميات، إنها مغالطات مفضوحة وأباطيل مكشوفة، ما سبقهم بها من أحدٍ من العالَمِين.

المهم؛ أنه في إطار كراهية أوروبا للإسلام، وخوفها منه، كرهت كل ما يتصل بالإسلام، ووقفتْ أمامه وجهاً لوجه، ومن ذلك العربية الفصحى، فهي لسان التنزيل ووعاء الإسلام، ومن أكبر عوامل تجميع المسلمين، وقيام الروابط القوية بينهم .. وأوروبا تخشى وحدة المسلمين، وتعمل بكل وسيلة على تفتيتها بالقوميات، والوطنيات، والطائفيات.

فكان نصيب الفصحى من مواجهة أوروبا كبيراً، إذْ بُذِلَتْ جهودٌ جبارة في القضاء على هذه اللغة ليقوم حاجز بينها وبين الأجيال القادمة، وكان الاستعمار يواجه العربية في كل بلد من خلال محورين :

- إحلال اللهجات العامية لكل بلد يحلّها.
- الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية.

وكان هناك ثلاثة ميادين واجهت فيها أوروبا اللغة العربية في العصر الحديث، هي:

- **(لبنان وديار الشام)** حيث كانت مسرحاً لنشاط استعماري تنصيري هائل ضد الفصحى من قِبَل فرنسا.

والحقيقة أن الاتجاه المناهض للغة الفصحى في لبنان ظهر منذ وقت مبكر، وحمل لواء العداء نحوها الدكتور أنيس فريحة، وسعيد عقل، وأساتذتهما من المستشرقين والمُنصِّرين الغربيين الذين كانوا يعملون في حقول التدريس في الجامعة الأمريكية ببيروت، وفى المدارس اليسوعية ذات الطابع التنصيري.

- (**شمال غرب أفريقيا**) وهناك تعرضت الفصحى لحرب شرسة في البلاد الإسلامية الواقعة في شمال غربي أفريقيا، وعمل الاستعمار الفرنسي على تغييب العربية عن تلك البلاد، وفُرِضَتْ الفرنسية على المسلمين فرضاً، كما فُرِضَتْ المدنية الغربية في كثير من الأخلاق والسلوك اليومي، فكانت الفرنسية لغة كتابة وتعليم وصحافة ومحافل. وانزوتْ العربية؛ حتى كادت تُنْسَى في تونس والجزائر والمغرب.

لقد جَنَتْ فرنسا على العربية في تلك البلاد جناية بشعة؛ تارةً بإحلال الفرنسية محلها، وأخرى بإحياء اللهجات المحلية التي كانت سائدة فيها قبل الإسلام. فنجحت فرنسا في فرض لغتها قسراً وكرهاً على دول المغرب العربي، ومازالت هذه الدول تعانى ازدواجية لغوية بسبب التأثير الذي خلّفته الفرنسية، حيث يتكلم الشعب بلغتيْن، ويصوغ بعض الكُتّاب أدبـهم بالفرنسية، لأنهم لا يجيدون العربية

جدير بالذكر؛ أنَّ (الاستعمار الفرنسي) استعمار ثقافيٌّ فكريٌّ؛ وهو أخطر وأشد من الاستعمار الماديّ الذي اتبعته بريطانيا وغيرها من الدول المستعمِرة، فلمْ تكتفِ فرنسا من مستعمراتها بنهبِ الثروات، وتأمين السوق للسلع الرأسمالية، وتوفير مواطئ قدم للجيوش الغازية، وإنما وضعت على رأس قائمة أهدافها الإستراتيجية، القضاءَ على الثقافة الإسلامية، لأنها الدرع الواقية للشعوب المسلمة، والمؤجّجة للجهاد ضدّ الاستعمار.

وقد قامت فرنسا بإجراء جراحة ثقافية ولغوية تهدم استقلال المستعمَر وشخصيته، وتدفعه إلى اقتداء الغالب والإذعان له، والتماهي معه، وفقدان القدرة على وعيه لذاته. ولتحقيق ذلك؛ وضعت خطة إستراتيجية تتمثل في المحاور الثلاثة (الكنيسة، المدرسة، الإعلام). فدور الإعلام ينحصر في التركيع الآنيِّ، ودور الكنيسة يركّز في التشويه العلميّ، بينما كانت المدرسة ـ ولا تزال ـ أكثر الثلاثة خطورة، باعتبارها الوسيلة التي أبقت على الوجود الاستعماري حتى بعد رحيله.

- أمّا في (**مصر**) فقد كانت الفرصة مهيأة لشن هجوم على العربية على أوسع نطاق، وكان أول من حمل لواء الهجوم على الفصحى في مصر؛ هم ممثلو الاستعمار الغربي أنفسهم، ثمَّ تولى القيام بهذه المهمة من استطاع الغرب تجنيدهم من المصريين أنفسهم.

وفي خلال تلك المعركة التي حاول الاستعمار أن يجعل عنوانها "**عجز اللغة العربية عن أداء مهمتها إزاء المخترعات الحديثة**"؛ ظهرت قوى مخلِصة تنافح عن شرف العربية، بإدخال كلمات جديدة إلى العربية عن طريق: النحت والاشتقاق والترجمة والتعريب. وظهر أصحاب المعاجم في لبنان ومصر، وأُنشئت مجامع لغوية في سورية ومصر والعراق؛ وظهرت معاجم: الكرملي، والمعلوف، وشرف الدين، وأحمد عيسى الشهابي، وأحمد باشا، وعبد الله البستاني. وكان للأزهر أبعد الأثر في حماية اللغة ونصرتها. وكانت "دار العلوم" أبرز معاقل المقاومة الثقافية بمصر، حتى قال الإمام محمد عبده كلمته الشهيرة: (إذا أردتَ أن تعرف أين تموت اللغة وأين تحيا؟ فإنها تموت في كل مكان، وتحيا في دار العلوم).

ولعلَّ التركيز على محاربة الفصحى في مصر كان شديداً للغاية، لعدة أسباب تتعلق بأوضاع مصر بصفة خاصة، منها :

- أنها أكبر بلد إسلامي عربي، وأن ما يجري فيها سيكون له تأثير على غيرها.
- وجود الأزهر فيها حاملاً أمانة العلم والمعرفة، محافظاً على العربية وآدابها.
- وجود الاستعمار فيها واضعاً كل ثقله؛ لنقل الحضارة الغربية إليها بكل وسيلة ممكنة.
- وجود أتباع يدينون بكل الولاء للغرب وحضارته من المصريين أنفسهم.

وقد سار هؤلاء في مصر في طريقين [1] :

- **أحدهما** : الدعوة إلى جعل العامية لغة كتابة وفن وتأليف وأدب.
- **ثانيهما** : اتجه اتجاهاً علمياً أعمق جذوراً من سطحية الدعوة إلى العامية.

وهؤلاء وغيرهم من عبيد الحضارة الغربية، مجرد "ببغاوات" يردِّدون ما قاله أسيادهم.

ولوْ أنهم أنصفوا ما ساروا في هذا الطريق الخادع، وما اتهموا العربية بتلك الاتهامات الجائرة .. إنهم يعلمون علم اليقين أن "العربية" هي وعاء الحضارة الإسلامية، وهي وعاء الفكر العربي الذي تفاعل فيها هذا التراث العظيم، وهي الأداة الحية للأدب العربي واللسان الذي يربط الأمة، وهي أساس ودعامة وقاعدة الوحدة العربية، وأن

(1) **أوروبا في مواجهة الإسلام**، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة.

لهذه اللغة مكانة ضخمة بين اللغات، بشهادة عباقرة الغرب، حتى مَن بلغوا غاية التعصب ضد الإسلام.

أجل؛ إنهم يعلمون ذلك وأكثر من ذلك، ولكنه الحقد الدفين الذي ملأ صدورهم؛ أعماهم عن الحقيقة. فانظر ـ مثلاً ـ إلى أحدهم يتهم الفصحى بأنها: "لغـة بدويـة، لا تكاد تكفل الأداء إذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التي نعيش بين ظهرانيها الآن، ها أنذا في هذه الغرفة لا أعرف كيف أصف أثاثها بالعربية، ولكني أستطيع وصفها بالإنجليزية".

ولأنَّ هذا المهزوم؛ يسير على مذهب المهندس الإنجليزي "وليم ولكوكس" الذي دعا المصريين إلى إحلال العامية محل الفصحى، فترجم الإنجيل إلى العامية، لينافس بترجمته هذه ترجمته الفصحى، فلقد كان نصيب الفصحى من هجومه نصيب الأسد من الفريسة، فهو يتهمها بأنها "لغة ميِّتة" ليس الآن فقط، بلْ وحتى في عصر نزول القرآن. فيقول: "إنَّ الفصحى في اعتقادي كانت لغة الكتابة فقط، أيْ لغة ميتة حتى في زمن ظهور القرآن، ولكن تعليم العربية في مصر لا يزال في أيدي الشيوخ الذين ينقعون أدمغتهم نقعاً في الثقافة العربية، أيْ في ثقافة القرون المظلمة، فلا رجاء لنا بإصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشيوخ منه، ونُسلِّمه للأفندية الذين ساروا شوطاً بعيداً في الثقافة الحديثة... "[1].

ولَمْ يسأل نفسه : كيف تُرجِمت حضارات الدنيا إلى العربية، من الفرس إلى الهند إلى اليونان إلى الحضارة الأوروبية الحديثة؟. بلْ إنه لمْ ينتبه، في غمرة كراهيته للعربية، إلى أنه قد كذَّبَ نفسه بنفسه، وذلك عندما اعترف بأنها قد مثَّلت لغة العلم والروح العلمية التي تميزت بها الحضارة العربية، والتي تتلمذ فيها الغرب على الإسلام والعربية، حتى إن علماء أوروبا، الذين أخذوا العلم والمنهج التجريبي، أيْ المصدر الثالث من مصادر الثقافة الأوروبية -حسب تعبيره- إن هؤلاء العلماء الأوروبيين المجدِّدين، الذين صنعوا النهضة الأوروبية، إنما "كانوا يهتمون بالإسلام وبمعرفة اللغة العربية".

إنه يعترف بهذه الحقيقة الشاهدة على مجد العربية وعظمتها وإمكاناتها، فيكذّب نفسه بنفسه، عندما يقول: "أمَّا الأصل الثالث للثقافة الأوروبية، فهو الروح العلمية التي ظهرت في الأندلس على أيدي العرب، فقد انغمس الإغريق في النظريات الفلسفية،

---

(1) **اليوم والغد**، سلامة موسى، مكتبة المستقبل، القاهرة.

وانتقلت هذه العدوى إلى العرب، لكنها لم تغمرهم، وكان للتجربة عندهم شأن كبير، وبخاصة عندما أخذوا في محاولة إيجاد الذهب من الزئبق، فدرسوا أشياء، هي في الواقع أصل النزعة العلمية الحديثة التي تتسم بالتجربة، ومما هو ذو دلالة في النهضة الأوروبية، أن المُجدِّدين من أمثال (روجر بيكون) كانوا يهتمون بالإسلام وبمعرفة اللغة العربية".

لكنه ـ من أسف ـ ينسى هذه الحقائق، ويتناسى دلالتها على قدرة الفصحى على التواصل والتفاعل مع اللغات والحضارات، ويمضي ليصب عليها جام غضبه، وكيف لا، وهو من دعاة انسلاخ عن الشرق والعرب والإسلام، بينما العربية رباط بين مصر والشرق والعرب والإسلام. فهو بتعبيِّره "ينقِـم" عليها أنها تجمع مصر بهذا الإطار الحضاري الأوسع الذي يريد أن يحطِّمه ويلغيه، فيقول : "ومما يمكن أن ينقِم على اللغة الفصحى أيضاً، أنها تبعثر وطنيتنا المصرية، وتجعلها شائعة في القومية العربية، فالمتعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب، ويعجب بأبطال بغداد القدماء. فنظره أبداً متجه نحو الشرق، وثقافته كلها عربية شرقية، مع أننا في كثير من الأحيان نحتاج إلى الاتجاه نحو الغرب. والثقافة تقرر الذوق والنزعة، وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق".

إنه يريد عزل مصر عن جسمها العربي، ليسهل تحقيق حلم سلفه القديم "المعلِّم يعقوب اللَّعين" في إلحاقها بالغرب. والعربية تمثِّل عقبة أمام العزل والانسلاخ، وأمام الضم والإلحاق كليْهما، فلذلك استحقت منه النقمة التي نراها منه في هذه النصوص[1].

أمَّا البديل الذي رشحه سلامة موسى ليحلَّ محل العربية، فهو العامية المصرية، فقد اجتهد حتى أجهد الحقيقة ذاتها، فزعم أن لا علاقة لهذه العامية المصرية بالعربية الفصحى، وجاء بكلام مضحك؛ زعم فيه أن هذه العامية هي لغة الهكسوس القدماء.

والمرء يعجب من رفضه للعربية لأنها آسيوية قديمة، في ذات الوقت الذي يدعو فيه إلى لغة الهكسوس ـ وهم رعاة آسيويون غزوا مصر ـ ولغتهم أقدم من العربية في مصر.

لكن العجب يزول عندما نعلم أن العربية جامع لمصر بالعرب والشرق، وفي ذلك العقبات أمام رسالته في سلخ مصر عن محيطها وتراثها لإلحاقها بالغرب الأوروبي، لذلك هو يفضِّل لغة الهكسوس، الذين غزوا مصر قبل الميلاد بثمانية عشر قرناً، على

(1) **سلامة موسى: اجتهاد خاطئ أمْ عمالة حضارية؟** د. محمد عمارة، دار الصحوة،1995م، القاهرة.

العربية التي جاءت إلى مصر مع الفتح الذي حررها من الاضطهاد الذي يؤرخ به أقباطها حتى الآن [1].

ولذلك تجاهل تلك الحقيقة اللغوية التي أكدت أن العامية المصرية هي لهجة عربية، وليست هكسوسية، وهي حقيقة وضعت فيها كتب ودراسات، بلْ إنَّ قاموساً خاصاً قد أحصى كلماتها وعاد بها جميعها إلى **(القاموس المحيط)** للفيروز آبادي.

وهو يتجاهل هذه الحقيقة اللغوية ـ عروبة العامية المصرية ـ ويسير خلف السير "وليم ولكوكس" الذي نعرف منه أنه كان مهتماً بتنصير المصريين أيضاً، حتى إنه ترجم الإنجيل إلى العامية المصرية، وقد تزعم الدعوة إلى استبدال العامية بالفصحى، فكتب "عن "أستاذه" يقول: "إنَّ السير وليم ولكوكس هو أحد أولئك الأجانب القلائل الذين تقر مصر بفضلهم وولائهم، وهموم السير ولكوكس مصرية أكثر مما هي إنجليزية، فهو يقيم في مصر ويفكر في صالح مصر، لأنَّ مصر هي وطنه الثاني".

وللمرء أن يسأل دعاة العامية الذين زعموا عجز العربية عن أن تكون لغة العلم والفكر والثقافة والحضارة، فهلْ العامية أقدر منها في هذه الميادين؟.

كلاَّ؛ فالعامية لهجة منحطَّة لانحطاط عقول الناطقين بها.

أمْ أنَّ القضية قضية "مراحل"، فبعد قطع الروابط القومية والعقدية والحضارية بالعامية، تأتي مرحلة الإلحاق اللغوي، كجزء من الإلحاق الثقافي والحضاري بالغرب الأوروبي؟.

وإذا كنا قد عرضنا لآراء "ولكوكس" وتلميذه النجيب، وإذا كنا نقرأ اليوم لمن يريدون في بعض بلاد الشمال الإفريقي التراجع عن التعريب؛ لأنَّ الحرف العربي يؤدي إلى الفكر الغيبي ـ أيْ الإسلام الذي يكرهون ويحاربون ـ إذا كانت هذه هي حقيقة المقاصد والغايات، فإنَّ كلمات "ليوطي" ـ المقيم العام الفرنسي في المغرب من سنة 1912م إلى منتصف العشرينيات، تلقي المزيد من الأضواء على هذه الحقيقة، فقد كتب يومئذ يقول: "إنَّ العربية تجر إلى الإسلام؛ لأن هذه اللغة تُتعلَّم في القرآن، في حين أن مصلحتنا تحتم علينا العمل على جعل البربر يتطورون خارج إطار الإسلام، ومن الناحية اللغوية يجب أن نعمل على الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية".

---

(1) السابق.

ولقد كان (ولكوكس، وتلميذه) يريدان لمصر ما أراده "ليوطي" للبربر: التطور خارج إطار الإسلام، وهجر العربية ـ لغة القرآن التي تتعلَّم فيه ـ إلى العامية، للعبور منها إلى الإنجليزية. وإلاَّ فماذا تعني كلمات تلميذ ولكوكس عن تراث العربية: "إنه تراث لغوي، يحمل عقيدة اجتماعية يجب أن نحاربها. فالعربية ليست لغة الديمقراطية والأتومبيل والتلفون، بلْ لغة القرآن وتقاليد العرب". ماذا تعني هذه الكلمات إذا لمْ تعن ما أراده "ليوطي" وأضرابه من الاستعمار والسحق لهوية الأُمة العربية والإسلامية ؟. [1]

وليعلم (دعاة العامية) أنَّ هذه اللهجات المنحطَّة تفرّق ولا تجمع، لأنَّ الناطقين بالعربية أنفسهم تختلف لهجاتهم العامية باختلاف الأصقاع، فاستبدال العامية بالفصحى يحرم كل قطر من الانتفاع بإنتاج القطر الآخر.

- كما أن إغفال الفصحى يستوجب إغفال كل ما كتب عنها من العلوم منذ أكثر من ألف وستمائة عام، وهي خسارة بالغة ولا حدّ لها.
- أن الوحدة بين أجزاء الوطن العربي قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى، إذْ لولا القرآن لتشتَّتَ شمل الشعوب العربية.
- أن "العامية" لا يمكن أن تقوم مقام الفصحى؛ التي هي بشهادة المنصفين أرقى لغات العالم.
- أن العامية تفتقر إلى قواعد للنطق والتسجيل في الأصوات المحدودة التي تستخدمها، حيث تتداخل مخارج بعض أصواتها.
- أنها محدودة بعدد معين من المفردات غير قادر على التعبير عن كثير من المعاني التي يمكن أن تجيش بها النفس الإنسانية، وقد أحصى بعض الباحثين مفردات العامية كلها، فوجدوها لم تزد على بضع مئات.
- كذلك؛ اعتماد العامية على لوازم دلالية زائدة لا تؤدي أيّ معنى كالباء التي تتصدر الفعل المضارع، والشين التي تجيء في أواخر الأفعال المنفية، ومثل هذا العبث ينافي أهون مبادئ اللغة والمنطق.
- أن العامية لا تجاوز حدودها الإقليمية بسبب اختلاف اللهجات وارتباطها بالبيئة، وذلك عكس الفصحى تماماً.

(1) السابق.

- أن العامية تسفّ وتتبذل وترتبط بالقيعان، عكس اللغة الفصحى التي تترعرع في العلياء.
- أن مفردات العامية لا تجمعها أصول واحدة، فهي مزيج من العربية والتركية والإنجليزية والفرنسية وغيرها، لذلك لا تخضع لقواعد ثابتة في الاشتقاق.

لهذه الأسباب وغيرها، لا يجوز المقارنة أو المفاضلة بين العامية والفصحى، ومهما بلغت العامية من الجودة والقبول في زمانها أو بيئتها، فهي غير قادرة على مزاحمة الفصحى ذات التراث الذي استقر في وجدان الأمة بأسرها مدى الزمان.

أخيراً؛ لا خوف على **(لغة الضاد)** فإنَّها قادرة على أن تسحق سائر اللغات واللهجات. وإنَّ الذين يريدون أنْ يحجبوا نورها بغربالهم الهزيل، لَمْ ولنْ يفلحوا أبداً. و﴿ **قَد مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ القَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ** ﴾ [النحل :26].

تحديات في طريق الفصحى

لا توجد لغة من اللغات إلاَّ وقد تعرضت لاختبارات عديدة، قد تسفِر عن فنائها كما حدث مع الآرامية، والهيروغليفية، أوْ تفتتها إلى لهجات متصارعة؛ كما حدث في الهند، أوْ جفافها؛ مما يصعب استخدامها كلغة حياة؛ كما هو حال اللغتيْن: الصينية واليابانية، أوْ تدخل عوامل أخرى مثل: العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في تحديد اللغة المستخدمة، أوْ فرضها عنوة على بعض الشعوب.

وقد تعرضت **«العربية»** لمجموعة من التحديات - قديماً وحديثاً - حاولت النيْل منها بطرق مختلفة، لكن لكونها مرتبطة بعقيدة دينية صلبة، وقيم حضارية راسخة؛ فقد صمدت أمام تلك التحديات، حتى قال عنها المستشرق «جروبنام» في مقدمة كتاب **«تراث الإسلام»**: «إن اللغة العربية هي محور التراث العربي، وهي لغة عبقرية لا تدانيها لغة في مرونتها واستقامتها، وهذه العبقرية في المرونة والاشتقاق اللذيْن ينبعان من ذات اللغة، جعلتها تتسع لجميع مصطلحات الحضارة القديمة بما فيها من علوم وفنون وآداب، وأتاحت لها القدرة على وضع المصطلحات الحديثة لجميع فروع المعرفة».

وعلى الرغم من الإقرار بهذه الحقيقة؛ فإنَّ إيماننا بلغتنا الجميلة يقف بنا أمام عدة مشكلات تبحث عن حلول؛ نعزي أكثرها إلى المتحدثين بهذه اللغة والمتعاملين بها، لا إلى اللغة ذاتها؛ لِما توافر لها من مقومات وظواهر تدفعها إلى استيعاب كل المفردات المعاصرة التي واكبت ظهور هذه التقنيات الحديثة.

وليس هذا الموقف بجديد على العربية، فقد واجه أسلافنا العرب موقفاً مماثلاً يوم انفتحوا على لغات الفرس والرومان؛ فنتج عن ذلك ما يمكن تسميته بالمواجهة اللغوية التي أغنت مفردات العربية؛ نتيجة لحركتي التعريب والترجمة اللتيْن حدثتا في العصر العباسي فتضخم- آنذاك- معجم اللغة العربية تضخماً كبيراً.

ومع وجود هذا التشابه الواضح بين الموقفيْن رغم التفاوت الزمني؛ فإنه لا تغيب عنا نقاط الاختلاف، لأن العرب في المرة الأولى واجهوا هذه اللغات، واللغة العربية ـ حينذاك ـ تمثل لغة الحياة اليومية يتصرفون فيها تصرف المالك فيما يملك، أمَّا

اليوم فنحن نواجه الآخر بالتعليم لا بالسليقة، وقد عبَّر أحمد أمين عن ذلك تعبيراً رائعاً، فقال[1] : «لقد واجه العرب المدنية إذْ ذلك وهم غزاة فاتحون، ونحن واجهناها اليوم ونحن مغزوُّون محتلُّون، والشعور الأول يدعو إلى العزة والعزة تدعو إلى الجرأة. والشعور الثاني يدعو إلى الضعف والضعف يدعو إلى التردد، فضلاً عن أن المدنية المعاصرة أكثر تعقيداً».

ولم تمنع المواجهة ـ سلباً أوْ إيجاباً ـ من ظهور الصراع بين لغة عربية حافظت على أرستقراطيتها رغم تغلغل الوافد، وبين لغة أخرى تفرعت من اللغة الأم، ولكنها تحررت من صور الإعراب وصعوبته.

لقد تمخضت المواجهة الأولى عن وجود عدة ظواهر لغوية؛ ساهم في خلقها اختلاف هؤلاء الأعاجم وفقاً لاختلاف مجتمعاتهم التي نزحوا منها، ولنا في كتب الجاحظ الثلاثة **«البخلاء، والحيوان، والبيان والتبيين»** نماذج وأمثلة تدل على كثير منها.

وعلى الرغم من شيوع صور اللحن والتحرر من قيود الإعراب؛ فإنَّ تأثير ذلك لم يكن كبيراً في العصور الإسلامية الأولى، وذلك لِما تميزت به الفصحى من خصائص جعلتها تفرض نفسها في شتى المحافل الثقافية والفكرية التي انتشرت في أجزاء كثيرة من المجتمع العباسي، فضلاً عن تشجيع خلفاء بني العباس لها، واعتبار إجادتها مسوغاً من مسوغات التوظيف.

أمَّا اليوم فقد صارت (**العامية**) لغة الحياة اليومية، وما نلاحظه من انتشار الأدب الفكاهي والنكات والطرائف في مجتمعاتنا العربية، وهو أمر يمكن إرجاعه إلى ارتباط مثل هذه الألوان الشعبية باللهجة العامية المتداولة أكثر من ارتباطها باللغة الفصحى غير المتداولة.

ولا يعني إقرارنا بهذه الحقيقة؛ أننا نشجع العامية، وإنما نحاول أن نضع أمام المتلقي الصورة الحقيقية، والتي دفعت البعض، أمثال: توفيق الحكيم، ويحيى حقي، وأحمد أمين، وغيرهم، إلى البحث عن لغة توفيقية ثالثة؛ تجمع بين الفصحى السهلة وبين الكلمات العامية التي حرِّفت عن اللغة الفصحى، ومع ذلك بقيت المشكلة قائمة؛ لأنَّ الوضع اللغوي قد استقر على بقاء العامية كلغة حياة، وانحسار الفصحى في قاعات الدرس والمؤتمرات والكتابة.

---

(1) **فيض الخاطر**، الجزء العاشر، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

ويستمر الآخر في غزوه لنا مرتدياً أقنعة مختلفة عبر العصور، حيث ظهر في ثوب المماليك والعثمانيين والفرنسيين والإنجليز، وقد رأينا تراجع الفصحى، وتفشِّي العامية والأمية في المجتمعات العربية بصفة عامة، حتى كانت العقود الأولى من القرن العشرين؛ حيث قويت فيها شوكة المحافظين المرتبطين بالتراث؛ فعاد للعربية الفصحى أرستقراطيتها، وبقيت العامية تتسرب إلينا من خلال لغة الحوار القصصي والمسرحي والشعر العامي.

أمَّا العقود الأخيرة من القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين؛ فقد شهدت تطورات تكنولوجية هائلة، حين غزا **«الحاسوب»** عالمنا العربي، وامتدَّ تأثيره إلى الدارسين الذين شغفوا بكل ما هو مسموع ومرئي، في حين قلَّت العناية بالكتابة فكثرت الأخطاء الإملائية والنحوية وساء الخط العربي بشكل ملحوظ.

ومع إقرارنا بقتامة الصورة؛ إلاَّ أن السبيل لمعالجة هذا الضعف اللغوي المستشري في الأوصال العربية، يمكن معالجته بالوسائل التالية :

أولاً : تنمية الذوق العربي، وتكوين الملكة اللغوية الخاصة لأطفالنا منذ نعومة أظفارهم، وهذا لا يتأتَّى إلاَّ بالتمرس على قراءة وحفظ القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشِّعر العربي، والخروج من حيز القاعدة النحوية الجافة إلى إطار التوظيف الجيد لها من خلال النصوص الأدبية المضبوطة، ومن ثمَّ؛ فإنَّ الحافظ للقرآن الكريم والشِّعر العربي تستوقفه الحركة التي تجئ في غير موضعها؛ لأنها تأتي مقلقة لأذنه الموسيقية التي اعتادت سماع اللغة الصحيحة والجرس الإيقاعي المرتبط بصحتها.

ثانياً : محاولة الربط بين فروع مادة اللغة العربية في الدرس التعليمي، وتكريس الاهتمام ببعض المقررات المهملة في تدريس العربية رغم أهميتها الشديدة مثل التعبير الإنشائي، والإملاء والخط العربي، والقراءة، وتوجيه المعلمين إلى الطريقة المثلى من خلال تدريب عملي لتدريس مثل هذه المقررات.

ثالثاً : التركيز في مرحلة الطفولة؛ باعتبارها أهم المراحل المشكِّلة لعقلية الطفل العربي، على القصائد والأناشيد السهلة بغية تنمية مهارة التذوق والحس اللغوي لدى الطفل. وهذا يتطلب بطبيعة الحال، الإعداد الجيد لمدرسي اللغة العربية، والسعي إلى تطوير أدائهم.

رابعاً : الاهتمام بوسائل الإعلام المسموعة والمرئية؛ من أجل الارتقاء بالنطق الصحيح، وتكوين جماعة الخطابة في المدرسة؛ يوكل إليها مهمة الإعداد اللغوي الجيد للكلمة الملقاة، والسعي إلى تطعيمها من القرآن الكريم والحديث النبوي والشِّعر العربي.

خامساً : الإفادة من الأجهزة التكنولوجية الحديثة، ولاسيما برنامج الحاسوب لتنمية ملكة السماع لروائع الشعر المغنَّى والارتقاء بلغة الكتابة.

سادساً : مواصلة الاهتمام بالعربية في جميع المراحل الدراسية بما فيها المرحلة الجامعية التي تستلزم جعلها مطلباً جامعياً كمحاولة لمواجهة التحديات الناتجة عن العولمة وتمييع الهوية الثقافية، والمساهمة في تخريج بعض الكوادر العارفة بقواعد لغتها الفصحى حتى تتكامل جهود المحافظة على جماليات الصورة المشرقة للغتنا الجميلة بين معلمي العربية من ناحية، ومعلمي التخصصات العلمية الأخرى من ناحية ثانية، بحيث يأتي معلم الرياضيات وقد رفع الفاعل ونصب المفعول قراءة وكتابة، وكذلك غيره من المعلِّمين.

سابعاً : تقييد انتشار شرائط المغنيين الشبان وخضوعها للرقابة اللغوية؛ حرصاً على منع استمرارية الأخطاء المعيبة، فضلاً عن تنقية الأسماع من الانجراف وراء سماع المبتذل من الألفاظ والأساليب.

ثامنا : الإكثار من البرامج الثقافية في المذياع والتلفاز مع ضرورة إعداد التخطيط الجيد لهذه البرامج، واختيار أكفأ العناصر للتقديم والمحاورة، وكذا اختيار أكثر الضيوف إفادة في شتى المجـالات الفكرية؛ إمَّا ببحثهم الدءوب في التراث وتعميق الارتباط به، أو بالربط بينه وبين المعاصرة، وهذا أمر في غـاية الأهمـية، وذلك لأنَّ تجاهل التراث وإهماله؛ لا يعني سوى الوقوف ضد اللغة العربية باعتبارها هدفاً قومياً ودينياً.

أخيـراً؛ لا خوف على «**العربية**» إنما الخوف على أهلها، الذين راحوا يتسوَّلون لهجات الآخرين، كما اعتمدوا في الطعام والشراب والدواء، والسلاح على خصومهم الحضاريين.

أمَّا (**العربية**) ذاتها؛ فقد كانت -وستظل- شامخة أبيَّة، أوْ كما قال عنها عباس العقَّـاد : «إنها غالبت الزمن، وقويت على الأحداث، وقضتْ على الفارسية في ربوعها،

وحلّتْ محل السوريانية والقبطية في الشام ومصر، وطردتْ البربرية من أوكارها في شمال إفريقية، وأنشأتْ في الأندلس أدباً رفيعاً عَمَّر عدة قرون، وصمدتْ فيما بعد لغزو التركية والصينية، وقاومت حبائل لغات المستعمرين من إنجليزية وفرنسية وإيطالية، وبقيت لغة قديمة وحديثة، تجمع بين الطارف والتليد، محافظة ومجددة، تستمسك بأصولها، ولا تأبى أن تخضع لحاجات العصر ومقتضياته».

فضل القرآن على العربية

في كتابه «**تاريخ آداب اللغة العربية**» يقول جورجـي زيدان: «لولا القرآن الكريم لكانت لغة العالم العربي لغات متفرقة، يصعب التفاهم بين أصحابها، كما صارت اللغة اللاتينية بعد زوال دولة الرومان. ولولاه لكانت كل دولة من هؤلاء تتكلم لغة لا تفهمها صاحبتها، ومع ذهاب التمدن الإسلامي، وتقهقر الدولة الإسلامية، كان يُخشى ضياع تلك الأمم وفناؤها واندماجها في الأمم التي تسلطت عليها، كما أصاب الأمم التي اندمجت بالعرب بعد الإسلام، ولكنها الآن تجتمع وتتكاتف، لأنها تتفاهم بلغة واحدة هي لغة القرآن، وتعد نفسها أمة واحدة».

وقد دافعتْ الأديبة «مـيّ زيـادة» عن العربية كثيراً، من ذلك قولها: «لقد عُدَّتْ اليونانية واللاتينية في صف اللغات الميتة منذ سقوط مدنيتيهما، فما الذي حَفِظ العربية حيَّةً، بعد زوال المدنية العربية بقرونٍ سبعة؟. إنَّ الذي كان باعثاً على تكوين المدنية العربية هو الذي مازال حافظها إلى اليوم: هو القرآن، لذلك ستظل العربية حيةً مادام الإسلام حيّاً، ومادام في أنحاء المسكونة ملايين البشر يضعون يدهم على القرآن يُقسِمون به».

وفي هذا الصدد؛ يقول الدكتور طـه حسين[1]: (القرآن الكريم هو الذي وحَّد اللغة العربية الأدبية بعد أن كانت تختلف لهجاتها باختلاف بعض القبائل، وفَضْلُ القرآن إثر نزوله، هو أنه جعل لغته لغة أدبية للعرب جميعاً، ثمَّ لغير العرب من الأمم التي خضعت لسلطان الأمة العربية بعد الفتح، فالقرآن إذنْ لمْ يكتفِ بقصر اللهجات القبلية على أن تظل لغة التخاطب العادي دون أن يكون لها تأثير قليل أوْ كثير في اللغة الأدبية العامة، بلْ قد أثَّر في لغات كانت حية منتشرة، فأخفاها القرآن من البلاد الإسلامية، وأتاح للغة العربية أن تستأثر بألسنة الناس وأقلامهم وقتاً غير قصير. فما أكثر الفرس الذين استعربوا، واتخذوا لغة القرآن لغةً لألسنتهم حين يتحدثون، ولأقلامهم حين يكتبون. وما أكثر الفرس الذين أصبحوا شعراء، وأصبحت اللغة العربية هي التي

(1) من تقديمه لكتاب «**أثر القرآن في اللغة العربية**» للشيخ أحمد حسن الباقوري.

يؤدون بها شِعرهم، وكذلك كان شأن اليونانية في الشرق الأدنى، فقد كانت هي لغة الكتابة والتعليم والتأليف، ولم تستطع العربية أن تخفيها من هذا الشرق الأدنى. ولكن اللغة العربية هي التي ردتْ لغة اليونان إلى أهلها في البلاد اليونانية، واستأثرتْ بألسنة الناس وأقلامهم في هذا الشرق. وكثير من الناس في سورية والجزيرة كانوا يتكلمون الآرامية والسوريانية خاصة، كما كان المصريون يتكلمون القبطية، ولكن هذه اللغات تضاءلت شيئاً فشيئاً، وغلبتْ اللغة العربية على الألسنة والأقلام. وما أسرع ما استأثرت العربية بأهل العراق، وأصبحت كأنها لغتهم منذ وقتٍ بعيد.

ومع أنَّ العرب الجاهليين قد انتشروا قبل الإسلام في الشام والجزيرة والعراق، فقد كان أهل هذه البلاد محتفظين بلغتهم الخاصة، برغم وجود العرب في هذه الأقطار، وبرغم ما أسَّسَ المناذرة والغسانيون من مُلك في العراق والشام. ولكن ما كاد الإسلام يظهر، وما كادت هذه الأقطار تخضع لسلطانه حتى جعلت هذه اللغات تتضاءل وتستخفي شيئاً فشيئاً، وتخلفها اللغة العربية حتى أصبحت لغة الناس عامة في هذه البلاد. وما كاد العرب بعد الفتوح يدخلون في بلاد الفرس، ويستقرون فيها، حتى تعلم الفرس هذه اللغة الجديدة، وغلبت على ألسنة كثير منهم وأقلامهم، وما أكثر الفرس الذين شاركوا في إنشاء علوم اللغة العربية وتدوينها، وما أكثر الفرس الذين استأثروا ببعض هذه العلوم، حتى أصبحوا كأنهم أصحابها. وكلنا يعلم مكانة كتاب «**سيبويه**» بين كتب النحو. وكلنا يعلم أيضاً استئثار الفرس بتدوين علوم البلاغة العربية.

وليس من القليل أن نرى الأزهر يدرِّس كتب الفرس في البلاغة، ولا يكاد يلتفت إلى غيرها. وكانت دروس البلاغة في الأزهر مقصورة على كتاب «**التلخيص**» الذي اختصر فيه الخطيب القزويني كتاب السكّاكي، وشروح هذا التلخيص كانت فارسية المؤلّف، كما كان المتن. ولم يعرف الأزهر لهذا التلخيص إلاَّ شروح التفتازاني «المختصر» و«المطوّل» و«الأطول».

وجاء الأستاذ الإمام «محمد عبده» وأراد أن يجدِّد في درس البلاغة، فدرّس «**أسرار البلاغة**» و«**دلائل الإعجاز**» لعبد القاهر الجرجاني. وأكثر من هذا؛ أنَّ فلسفة اليونان حين تُرجِمتْ إلى العربية عن اليونانية أحياناً، وعن السوريانية أحياناً أخرى، أقبل الفرس على هذه التراجم، وتعمقوها، وأكثروا الكتابة والتأليف فيها. والغريب أنَّ كتبهم في هذه الفلسفة هي التي استأثرتْ بدروس الأزهر. وعن كتبهم تعلمنا المنطق، وما بعد الطبيعة، حين كنا طُلاَّباً في الأزهر.

ومع أنَّ الفرس قد أحبوا لغتهم الفارسية، ونظموا فيها الشِّعر منذ أواسط القرن الرابع للهجرة، فقد ظلت اللغة العربية لغة العلم والفلسفة عندهم إلى أواخر القرون الوسطى.

وانظر إلى كتب ابن سينا، والتفتازاني، والسيد الجرجاني، والطوسي، وغيرهم. وكل هذا بفضل القرآن الكريم، فبفضله انتشر الإسلام، وبانتشار الإسلام والقرآن انتشرت اللغة العربية. ولم يقف الأمر عند الفرس في الشرق، بلْ تجاوزهم إلى أهل الهند، فكثير من علماء الهند الذين أسلموا قد شاركوا في هذه العلوم، وشاركوا فيها باللغة العربية.

ولم يقتصر الأمر على الشرق، فقد استعربتْ مصر، واستعرب شمال إفريقية، ومازالت هذه البلاد مستعرَبة أوْ عربية. واستعربت إسبانيا، ومع أن الإسبانية قد غلبت عليها في آخر القرون الوسطى، فآثار اللغة العربية الأندلسية مازالت باقية، لا يمكن أن تُمحى، ولا أن تنسى، إلاَّ إذا مُحِيتْ ونُسِيتْ حضارة الغرب.

في كتابه «**أثر القرآن في اللغة العربية**»[1] يقول الشيخ أحمد حسن الباقوري : «يحدِّثنا التاريخ عن أمم كثيرة، سادت حتى ملكت، وضعفت حتى امَّحتْ، وقد كان لتلك الأمم لغات سايرت حياتها السياسية جنباً إلى جنب، وكانت مرآةً تنعكس عليها صور وجودها وألوان حياتها، فرقيت برقيها، وضعفت بضعفها، ثمَّ أصبحت يعرفها التاريخ كما يعرف الشيء: عفتْ آثاره ودرست معالمه، فلا يدركه الناس عن طريق وجود قائم، وإنما يدركونه من طريق تاريخ متحدّث. فاللغة الفينيقية، لغة أهل لبنان قديماً، واللغة الآشورية، لغة أهل نينوى، واللغة المصرية وغيرها مما لسنا بسبيل حصره، لا ترى لها ظلاً إلاَّ في بطون الصحف وأعماق القبور، طوى الزمن صفحتها، ومحا آيتها على ما كان لأهلها من حضارة رائعة، ومدنية بالغة، وسلطان عظيم. وذلك أنَّ اللغة ـ ككل مظهر اجتماعي ـ خاضعة لقانون النشوء والارتقاء، فهي تقوى وتضعف، وترقى وتنحط، ثم تحيا وتموت، فإذا رقيت الأمة أوْ انحطت، وضعفت أوْ قويت، ظهر ذلك في لغتها جلياً واضحاً.

لعلَّ بقاء العربية راجع إلى الدفاع عن القرآن، لأنَّ الدفاع عنه -لكونه أصل الدِّين ومستقى العقيدة- يستتبع الدفاع عنها، لأنها السبيل إلى فهمه، بلْ لأنها السبيل إلى الإيمان؛ بأنَّ الإسلام دين الله، وأنَّ القرآن من عنده، لا من وضع النبيّ وأصحابه. ولوْ فرضنا أنه نزل كما نزل غيره من الكتب المقدسة حكماً وأحكاماً، وأمراً ونهياً، ووعداً وعيداً، ولمْ يتحرَّ هذا الأسلوب الذي جاء به، فلمْ يُعنَ الناس بلفظه، ولم ينظروا إليه

(1) **أثر القرآن في اللغة العربية**، أحمد حسن الباقوري، دار المعارف، القاهرة.

قولاً فصلاً، وبياناً شافياً، وبلاغة معجزة، لكان من الممكن أن تزول هذه اللغة بعد أن يضعف العنصر الذي يتعصب لها، على أنها لغة قومية، ومن ذلك تضعف هي، وتتراجع حتى تعود لغةً أثرية.

وفي اللغة **«العبرية»** ما يؤكد هذا الذي نقول؛ فإنها ـ وهي لغة كتاب مقدس ـ صارت إلى ذمة التاريخ. ولوْ أنَّ **«التوراة»** جاءت كما جاء **«القرآن»** فتحدث اليهود على النحو القرآني لاحتفظوا بلغتهم، لأن في ذلك احتفاظاً بمعجزة نبيهم، فكان ممكناً أن نرى اليوم لغة موسى عليه السلام، ولكن التوراة لمْ تعنَ بالناحية اللفظية، إذْ لا حكمة تدفعها إلى ذلك، لأنَّ اليهود لم يبلغوا من قوة اللسن، وحسن البيان، أن يروا التقصير في ذلك شيئاً له قيمته وخطورته، كما كان الشأن عند العرب، حتى تتحداهم التوراة لتعجزهم، ومن ذلك تلجئهم إلى الإذعان وتحملهم على الخضوع، لذلك لمْ تُعنَ إلاَّ بالناحية الاختراعية، فعُنِيَ الناس بما فيها من ذلك ينقلونه إلى اللغة التي يريدون، ويفرّغونه في القالب الذي يشاءون، ماداموا لا حاجة بهم إلى الحرص على الألفاظ، ومن ذلك اندفعت العبرية تصارع الأحداث الزمنية بما فيها من مناعة ذاتية، خاضعة خضوعاً مطلقاً لقانون النشوء والارتقاء، من غير أن يكون لها سند تركن في حياتها إليه، وتعوّل في بقائها عليه، فمازالت تنمو وتضعف، وتلفظ قديماً، وتؤى حديثاً، حتى وصلت إلى ما يسميه الناس اليوم العبرية. وشتان ما هي، ولغة موسى عليه السلام.

وفي هذا المعنى؛ يقول عباس العقَّـاد : «ولقد قيل كثيراً إن العربية بقيت لأنها لغة القرآن. وهو قول صحيح لا ريب فيه، ولكن القرآن الكريم إنما أبقى اللغة؛ لأن الإسلام دين الإنسانية قاطبة، وليس بالدِّين المقصور على شعب أوْ قبيل. وقد ماتت «العبرية» وهي لغة دينية أو لغة كتاب يدين به قومه، لأنها فقدت المرونة التي تجعلها لغة إنسانية، وتخرجها من حظيرة العصبية الضيقة حيث وضعها أبناؤها منذ قرون».

ثم يضيف العقَّاد : إن هذه الفضيلة الإنسانية التي لا تفرق بين العربي والأعجمي ولا بين القرشي والحبشي، لهي التي أنهضت لخدمة اللغة أناساً من الأعاجم غاروا عليها من حيف الأعجمية -أيْ أنهم غاروا عليها من لغة أمّهاتهم وآبائهم، لأنها لغتهم على المساواة بينهم وبين جميع المؤمنين بالقرآن الكريم كتاب الإسلام».

«وستبقى العربية ما دام لها أنصار يريدون لها البقاء. ولم ينقطع أنصارها في عصرنا الحاضر، بلْ نراهم بحمد الله يزدادون ويتعاونون. ويتلاقى أبناء البلاد المختلفة على خدمتها ودعمها، لأنهم مختلفون بمواقع البلاد متفقون بمقاصد الضمائر والألسنة والأفكار».

فالعقاد يشير إلى أن إنسانية الإسلام وعالمية تشريعه، ساعدت على انتشار العربية التي هي لغة كتابه (القرآن) الذي وحّد في المؤمنين به (مقاصد) الضمائر والألسنة والأفكار، على الرغم من اختلافهم في مواقع البلاد.

لعلَّ من فضائل القرآن الكريم وتأثيره البالغ في اللغة العربية؛ أنَّ الألفاظ التي استخدمها، صارت هي الأهم، والأبهى، والأجمل، والأكثر شيوعاً وتداولاً على الألسنة. والتي أُطلِق عليها (الألفاظ الإسلامية) تلك التي تُوسِّعَ في دلالتها لتتسع للمعاني التي حدثت عن القرآن.

فالقرآن - مثلاً - جاء بعبادات لم تكن في جملتها معروفة للعرب، كما جاء بمبادئ وتعاليم لم يكونوا أيضاً يعرفونها مما يسمِّيه العلماء "الحقائق الشرعية" وبديهي - إذا كان العرب لا يعرفونها - أن لا يكون في لغتهم ما يدل عليها، ويكشف عنها، لأنَّ الدلالة فرعٍ الوضع، والوضع موقوف على معرفة الموضوع له، وإلاَّ كلفنا اللغة شططاً، وألزمناها محالاً، ليس في طوقها ولا في طوق أية لغة عُرِفت وتُعرَف أن تحققه وتقوم به. لذلك أخذت تلك المعاني التي استحدثها القرآن باشتراعه، أسماءً كانت لمسميات بينها وبين هذه صلة من الصلات، فمن ذلك: لفظ (**المؤمن**) كان يُعرف من الإيمان، بمعنى التصديق مطلقاً. و(**الكافر**) من الكفر بمعنى الستر، و(**الفاسق**) لم يكن يعرف إلاَّ من الفسق بمعنى خروج الرُطبة منٍ قشرتها، و(**الصلاة**) بمعنى الدعاء، و(**الزكاة**) بمعنى النماء، و(**الصوم**) وأصله الإمساك مطلقاً، و(**الحج**) وأصله القصد كذلك .. وغير ذلك كثير يحتاج في الإحاطة به إلى بحث خاص.

ومع انتشار الإسلام؛ ظهرت كثير من المصطلحات السياسية، والإدارية التي تبعت قيام الخلافة الإسلامية، مثل : الخليفة، الوزارة، الكتابة، الحجابة .. إلى غير ذلك مما امتلأت به القواميس، ولم يكن حظ المصطلحات العلمية، والاقتصادية، والقانونية، والطبية، والفقهية، والأدبية بقليل، بلْ ظهرت معاجم لغوية خاصة بهذه العلوم.

على جانب آخر؛ فقد أهمل القرآن ألفاظاً، لم تستطع معانيها أن تعيش إلى جانب القرآن، لأنه يأباها، ومن ثمَّ اندثرت، وماتت إلى الأبد؛ من ذلك كلمة (**المرباع**) وهو ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية، و(**النشيطة**) وهي ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى القوم، أو ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل بلوغ الهدف، و(**المكس**) وهو دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق الجاهلية.

وهناك ألفاظ صرفها القرآن عن مدلولها القديم في البيئة العربية إلى معانٍ جديدة، كقول العبد لسيده (**ربِّـي**). وألفاظ استهجنها، كقولهم للملِك (**أبيتَ اللعن**) وغير ذلك.

وهناك نوع آخر من الألفاظ أهملها القرآن، لا لأنَّ معانيه لمْ يقرها الإسلام، بلْ لأنها غريبة حوشية، أوْ خشنة جافة أهملها العرب حين درجوا في حياة الحضر، ولم يذكرها إلاَّ من يريد التقعّر، فتسخر منهم العامة، وتسخر بهم الخاصة.

الخلاصـة؛ أن العربية كغيرها من لغات البشر، خاضعة للتغير والتبدل، وللزوال والفناء، وأنَّ (القرآن) بحكم أنه لسان الإسلام الناطق، ومعجزته الباقية، هو الذي حفظها من الضياع، لأنه جاء على وجه تحدى به العرب تحدياً صارخاً، فذلُّوا، واستكانوا. وقد حرص كل مسلم على ألفاظه احتفاظاً بالمعجزة، وتعبداً بتلاوته. ولو أنه جاء كما جاء غيره من الكتب مجرداً عن الإعجاز، لما كان حتماً على الناس أن يلزموا أنفسهم بحفظه، بلْ كانوا يأخذون ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، بعد أن ينقلوه إلى لغاتهم، فتضطر العربية أن تقف وحدها في معترك الحياة، فلا تزال تتطلع إلى التجديد حتى تصبح في مبدئها ونهايتها لغتيْن أو لغات متباينة، أو تمشي إلى الموت وتدب إلى الفناء، حتى تصبح في ذمة التاريخ. ولات حين مناص.

النبأ العظيم

حقاً؛ إن (**القرآن**) هو النبأ العظيم؛ الذي أعجز الفصحاء والبلغاء. وظلَّ معجزةً تتأبَّى على الإتيان بمثلها، ومفخرةً تتضاءل أمامها مفاخر الأُمَم والحضارات.

أجل. إنها معجزة تتحدَّى عقول البشر، وتتحدَّى علوم الأولين والآخرين، بما حوته من ألوان الإعجاز المختلفة. فقد بلغ غاية الفصاحة ونهاية البلاغة، وامتاز بأنه خطاب يجمع بين الخوف والرجاء، وبين الترغيب والترهيب، وبين الوعد والوعيد، وبين البشارة والنذارة، وبين العمل للدنيا والتوجه للآخرة؛ فهو خطاب وسطي، يخاطب جوانب الإنسان كافة، لا يركز على جانب ويدع جانباً، بلْ يأتي على هذا وذاك، بما يناسب المقام، وبما يقتضيه الحال.

ولقد واجه "**القرآن**" منذ لحظة نزوله، هجوماً ضارياً ومعارك شرسة، لكنه خرج منتصراً في كل معركة، وردَّ شبهات المُنكِرين، وافتراءات الحاقدين. حتى في عصر نزول القرآن - ذلك العصر الذي اتفق الرواة وتواترتْ الأخبار على أنه أرقى عصور العرب لغةً وبياناً، وأكثرها وفرة بأرباب الفصاحة وفرسان البلاغة، وكانوا أشد حرصاً على التمسك بما كانوا عليه من أديان آبائهم، وحميَّة لعقائدهم وعقائد أسلافهم- نزل القرآن يُخطِّئ آراءهم، ويُسفِّه أحلامهم، ويحتقِر أصنامهم، ويدعوهم إلى ما لا تعهده أيامهم، ولا حُجّة بين يدي ذلك كله إلاَّ تحدِّيهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب، بلْ أباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة :23]. ثم رماهم والعالم كله بالعجز دون مواربة، فقال : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ [الإسراء :88]. وأجهز عليهم بالحُكم القاطع المؤبد، فقال: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة : 24].

انظر كيف استفزَّهم بقوله ﴿ **وَلَن تَفْعَلُوا** ﴾ ثم هدَّدهم بالنار، ثم سوَّاهم بالأحجار.

فوا الله؛ لوْ كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألدّاء، وأُباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، لكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلَّماً يصعدون به إلى مزاحمته، بلْ وجدوا أنفسهم

أمام طوْدٍ شامخ، فخرّوا صاغرين، وأُصيبوا بالعجز المهين، وجرّوا أذيال الخيبة، وحقَّتْ للكتاب العزيز الكلمة العُليا على كل كلامٍ، وقضى حكمه العليّ على جميع الأحكام. أليس في ظهور هذا الكتاب على لسان (أُمِّــيّ) أعظم معجزة وأقوى حُجّة وأدلّ برهان على أنه ليس من صنع البشر، وإنما هو النور المنبعث عن شمس العِلم الإلهي، والحُكم الصادر عن المقام الرباني.

وفي هذا، يقول **د. فيليب حتى**: "إنَّ الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثمَّ إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يُقلَّد، لأنه إعجاز إلهي، فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى. وهو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق إلى لهجات".

ويوافقه الرأي ذاته العالم اللغوي Hanna john في كتابه **"قصة الإنسان Human story"** : "إنه لابدَّ من الإقرار بأن القرآن ـ فضلاً عن كونه كتاب هداية وتشريع ـ فهو أيضاً دستور خالد للفصحى، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كانوا هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين، وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزًّلا ولا يحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضاً بهذه الصوابية، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة".[1]

وقد أجمع الأولون والآخِرون على أن هذا القرآن له جذور في الروح لا يجتثّ منها بسهولة، وله وقع في النفس واستجابة عجيبة، حتى المعاندين من فرسان البلاغة المعاصرين للدعوة، أقرَّوا أنهم سمعوا كلاما ليس من كلام البشر، وقد عبَّر كثير من زعمائهم عن هذا الموقف، فهذا الكافر "عتبة بن ربيعة" حين سمع من الرسول الآيات الأولى من سورة "فُصِّلت" ورجع إلى قومه، فسألوه: ما وراءك يا أبا الوليد؟. فقال: "ورائي أني سمعتُ قولاً ما سمعتُ مثله قط، ما هو بالشِّعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين مُحمّــد وبين ما هو فيه، فإنَّ لكلامه سيكون شأن عظيم".

كذلك، "الوليد بن المغيرة" عندما سمعه لم يتمالك نفسه إلاَّ أن قال : "إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمِر، وإنَّ أسفله لمغدِق، وما هو بقول البشر، وإنَّه ليعلو ولا يُعلَى عليه".

(1) **محمَّد مشتهَى الأمم**و محمد عبد الشافي القوصي، مكتبة مدبولي، القاهرة.

وقد جاء صاحب كتاب (**حضارة الإسلام**) المستشرق جرونباوم Grunbaum في القرن العشرين، ليؤكد ذات المعنى، فيقول: "القرآن ظاهرة لم يسبق لها مثيل في اللسان العربي، وليست آياته مما يستطع نبيّ أن يخترعها، بلْ هي -إنْ جاز القول- الصورة العربية لكلمة الله نفسه، ولا يستطيع مُحمّد أن يضيف إليه كلمة واحدة، أو يلغي منه كلمة واحدة".

من هنـا؛ فإننا ندعو العالم كله (المؤمنين والجاحدين) وننادي الدنيا كلها (الإنس والجن) أن تفتح قلوبها وعقولها، ثم تقرأ هذا الكتاب العزيز، وتتدبر ألفاظه وأحكامه ومعانيه ومراميه، وتتأمل في دقة الجُملة القرآنية وعظمتها، وكيف استطاعت بأقصر عبارة الدلالة على أوسع معنى، وهذه ظاهرة واضحة جليّة في القرآن كله، مهما اختلفت بحوثه وموضوعاته، فلا تجد كلمة زائدة يمكن الاستغناء عنها، فانظر على سبيل المثال :

كيف تحدّث القرآن عن الضمانات التي أعطاها لآدم، مما يحتاجه الإنسان في حياته من كل ما يدخل في مقومات بقائه وعيشه، لقد وضع البيان الإلهي هذه الاحتياجات كلها في جملتين فقط: ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى. وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى** ﴾ [طه:119-118].

وتأمل إلى هذه الآية، وقد تضمنت حُكماً من الأحكام الشرعية المهمة، وهي قوله تعالى : ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ** ﴾ [الأنفال : 58].

فمن يتأمل في هذه الآية، يجد نفسه أمام أسلوب فريد، ليس من دأب الإنسان أن يتأتّى له التعبير بمثله، كما يشعر بعجزه في نقل معنى هذه الآية بألفاظ من عنده.

وانظر إلى أحكام الميراث في كتاب الله، وتأمل كيف صِيغتْ في آيتين -فقط- من آيات القرآن، حوتْ أحوال الوارثين، ونصيب كل منهم في كل حال من الأحوال، ولقد انبثق من هاتين الآيتين فنٌّ مستقل يمثّل شطراً كبيراً من الأحكام الشرعية، وهو ما يُسمّى بعلم الميراث؛ الذي أدهش حكماء الدنيا وفلاسفتها.

بلْ انظر إلى آيةٍ واحدةٍ، صِيغتْ من ستة أسطر قرآنية، تضمّنتْ ثلاثة وعشرين حُكماً مما يتعلق بنظام الأسرة، لوْ حاول أبلغ الناس أن يعبّر عن هذه الأحكام لاقتضى منه ذلك ما لا يقل عن ثلاثين سطراً من الكلام، أيْ أضعاف وأضعاف النص القرآني.

نعم. إنه ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود : 1].

يقول الدكتور عبد الصبور شاهين[1] : "لقد كان القرآن الكريم بحق زلزالاً هائلاً ـ إنْ جاز التعبير ـ رجَّ أنحاء الحياة العربية على اختلاف مستوياتها، ولاسيما الجانب اللغوي والبياني، فقد واجه العرب في لغتهم شيئاً لمْ يعهدوه من قبل في لغة شعرائهم وخطبائهم، كان جديداً في كل شيء قام به بيانه، فالألفاظ المعروفة بأصواتها تختلف عما عرفوه بمعانيها القرآنية، واختلاف معاني الألفاظ يقتضي من القارئ أن يتعرف عليها حتى يفهم المراد من الجمل والعبارات، وحتى يستوعب المفهوم الكامل للنص المقروء.

ولنأخذ من القرآن آياته الأولى التي بهر بها العرب: ﴿ **اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق : 5-1].

فهذه آيات خمس، تضمنت من الألفاظ مجموعة لا تزيد على عشرة، ولسنا نستطيع القول بأن عرب الجاهلية كانوا يجهلون هذه الألفاظ، ولكنا نملك الجزم بأن كل لفظ منها كان يحمل معنى لا يعرفه جاهلي، وهذه هي المباينة بين ما ألِفوه من قدرتهم على البيان، وبين ما تميز به بيان القرآن من اقتدار.

كان العرب يعرفون كلمة (**اقرأ**) ومعنى القراءة، ولكن المراد بهذه اللفظة في الآيات، لا علاقة له بمعرفتهم هذه، فالأمر (**اقرأ**) أمر إلهي، وهو موجه إلى من لا يعرف القراءة ولا الكتابة بالمفهوم اللغوي، وقد وضع الوحي بين يديه مادة القراءة، فإذا هي معان لا تمت إلى مذخور العقل العربي بصلة ما، وذلك متمثل في الربط البديع بين القراءة واسم الربّ الخالق، وقد كانت للعرب الجاهليين فكرة عن الإله مشوهة، مغلوطة، تختلط بفكرة الوثنية المشركة، فلا ريب أنَّ مسافة هائلة كانت تفصل بين فكرتهم هذه، وبين ما دُعِيَ إليه مُحمَّد في هذه اللحظة الإلهية من القراءة باسم الربّ الخالق. وهو شيء غريب على العقلية العربية الجاهلية، وهو شديد الغرابة إذْ استمرت الآيات فذكرت (خلق الإنسان من علق) فالألفاظ سهلة مأنوسة، ولكن المعنى جديد تماماً، بل إن هذا المعنى بقي جديداً حتى الآن، يحاول العلم يصل إلى أسرار هذه العلقة، فيتكشف له كل يوم جديد، دون أن يتصور أنه واصل إلى غاية هذا المعنى القرآني، عن أصل الإنسان وهو اللغز الأبدي.

وحين تمضي الآيات في وصف الربّ الأكرم، فلابدَّ أن ندرك من هذا الوصف لا محدودية الكرم الإلهي، الذي لم يتصل العربي آنذاك في معتقده بطرف منه. لقد كان

(1) **العربية لغة العلوم والتقنية** (مرجع سابق).

يرى أن الخير كله في أوثانه التي يعكف عليها، ولم يكن يتصور هذه الأكرمية للربّ الخالق، ولا مناص من أن نعترف نحن الآن، وبعد أن عاشت العقيدة أربعة عشر قرناً، أننا عاجزون عن إدراك كنهها، إذْ هي معبّرة عن صفة للرب، تمتد إلى وجود لا يحده زمان ولا مكان، وقد جاءت بصيغة تفضيل تعبّر عن المطلق، لا عن النسبي ﴿**ربك الأكرم** ﴾. ثم؛ كيف تمَّ هذا التعليم بالقلم؟ وما مادته؟ وما حقيقة القلم؟ وأيّ إنسان؟ أهو الإنسان بعامة؟ وما حقيقة ﴿ **ما لمْ يعلم** ﴾؟ وما مداه؟. أسئلة وأسئلة تحيِّر العقول فتذهب في إجاباتها مذاهب شتى دون أن تنتهي إلى رأي قاطع، فالمعنى القرآني لا نهائي، والفهم البشري محدود، ولكنه مستمر بتتابع الأجيال.

أخيراً؛ أليس بهذا ﴿ **النبأ العظيم** ﴾ وبهذه المعجزة العظمى؛ قام الدليل القاطع، والبرهان الناصع على أن مُحمَّداً رسول الله إلى خلقِه، ويجب التصديق برسالته، والاعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه، بكل ما ثبت عنه من هدي وسُنَّة متبعة، وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الأنبياء، فوجبَ الإيمان بذلك كذلك.

دلائل الإعجاز

أكدَّ العلماء بشدة على ضرورة المحافظة على (المصطلحات القرآنية) والاحتفاظ بمدلولاتها كما هو مراد منها، لأنَّ هذه المصطلحات أوعية النقل الثقافي، وأقنية التواصل الحضاري، وعدم تحديدها، ووضوحها، يؤديان إلى لون من التسطيح الخطير في الشخصية المسلمة، والتقطيع لصورة تواصلها الحضاري، وإلغاء لامتدادها المعرفي.

وقد نبَّه القرآن الكريم لهذه القضية الخطيرة، عندما أرشد المسلمين إلى ضرورة استخدام مصطلح (**انظرنا**)، ونهى عن مصطلح (**راعنا**) الذي كان يستعمله اليهود، كنوع من التضليل الثقافي، وتحقيق بعض الأغراض الكامنة في نفوسهم، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [البقرة : 104].

من هنا نعلم؛ أنَّ تحديد دلالة المصطلح، في البناء الثقافي للأمة، أمر ذو قيمة فكرية بالغة، إلى درجة أصبح معها كثير من المؤلفين يفردون صفحات في مقدمة مؤلفاتهم، لمعجم المصطلحات المستعملة، والدلالات التي أرادوها من استعمالها. حتى بلغ الأمر؛ أنْ تفرد معاجم لمدلولات كل علم من العلوم، كمعجم المصطلحات الفلسفية، ومعجم المصطلحات الدبلوماسية، ومعجم المصطلحات النفسية، ومعجم المصطلحات الإعلامية، ومعجم المصطلحات القانونية، ومعجم المصطلحات الطبية..الخ.

وقد كان المسلمون هم الأسبق في وضع معاجم لمصطلحات كثير من الفنون: لغوية، أو فقهية، أو أصولية، أو غيرها، حتى يضبط اللفظ بمدلولاته، من خلال معهود العرب في الخطاب، والإبانة، أو من خلال مدلوله في الفن، الذي وضع له، دون الانقطاع عن أصله اللغوي.

في كتابه "**مفهوم الإسلام**" يقول المستشرق الفرنسي فريثجوف شيون frithjon Schuon ـ المتخصص في شرح العقائد الشرقية: "ولابدَّ للقارئ إذا أراد أن يفهم رسالة القرآن أنْ يذكر أنه كتاب فرائض وكتاب إقناع وكتاب هداية، وأنَّ الإعجاز فيه لا يرجع إلى فصاحة اللفظ وحدها ولا إلى نسق البيان وحده، ولكنه يرجع إلى إيحاء اللفظ وإيحاء البيان بما يعجز كلّ كلام "غير إلهي" عن الإيحاء بمثله".[1]

---

(1) «**محمَّد مُشتهَى الأمم**» (مرجع سابق).

وقد تعرض طه حسين لدلائل الإعجاز القرآني في كتابه **"مرآة الإسلام"** فقال: «أمَّا القرآن؛ فهو المعجزة الكبرى، التي آتاها اللهُ رسولَه ﷺ، على صدقه فيما يُبَلِّغ عن ربِّه سبحانه وتعالى. والقول في إعجاز القرآن الكريم يكثر ويطول، وتختلف وجوهه، وتختلف فنونه أيضاً، فالقرآنِ : كلامٌ لم تسمع العربُ مثلَه، قبل أن يتلوه النبيّ؛ فهو في صورته الظاهرة، ليس شِعراً، لأنه لم يجرِ في الأوزان والقوافي، والخيال، على ما جرى عليه الشِّعر. ثم هو لم يشارك الشِّعرَ، في قليلٍ أو كثيرٍ من موضوعاته ومعانيه؛ فهو لا يصف الأطلال والربوع، ولا يصف الحنين إلى الأحبَّةِ، ولا يصف الإبل في أسفارها الطوال والقصار، وليس فيه غزلٌ، ولا فخرٌ، ولا مدحٌ، ولا هجاءٌ، ولا رثاءٌ، وهو لا يصف الحرب، لا يعرض من هذا كله لشيءٍ، وإنما يتحدث إلى الناس عن أشياءَ لم يتحدث إليهم بها أحدٌ من قبله، يتحدث عن التوحيد، فيحمده ويدعو إليه. ويتحدث عن الشِّرك، فيذمه، وينهَى عنه. ويتحدث عن الله، فيُعظمه، ويصف قدرته التي لا حدَّ لها».

«كل هذا وأكثر جداً من هذا يتحدث به القرآن إلى الناس، على لسان رجلٍ من قريش، لم يتعلَّم قط كتابةً ولا قراءةً ولا حساباً، ولم يجلس- قط- إلى أحبار اليهودِ، ولا رُهبان النصارى، ولا أصحاب الفلسفة، وإنما هو رجلٌ عربيٌّ أُمِّيٌّ، كأكثر العرب، لا يعلم من أمر الدنيا إلاَّ مثل ما كان أوساطُ العرب يعلمون. وهو مع ذلك يُجادل اليهود في التوراة، ويجادل النصارى في الإنجيل، ويصفهم بأنهم يكذبون على موسى، ويقولون على المسيح غيرَ الحق، كل ذلك، وهو لا يقرأ التوراة، ولا الإنجيل، وإنما ينبئه الله نبأ الحق بما في كليهما، وهو لم يأتِ لنسخ التوراة، ولا لنسخ الإنجيل، وإنما جاء مصدقاً لِما بين يديه منهما، ثم يُنبئ الناس في الدنيا، بما تقول ألسنتهم، وما تعمل جوارحهم، وما تُضمر نفوسهم. نجد هذا كله في القرآن، الذي يتلوه هذا الرجل الأُمي، والذي أُخِذَ في تلاوته فُجاءةً ذات يوم، بعد أن بلغ الأربعين، وأنفق ثُلُثَي عمره في الدنيا يحيا كما يحيا غيره من قريش، فلا غَرابةَ أن يبهر قريشاً، وسائر العرب، هذا العلمُ الذي جاء به فُجاءةً».

«لكنَّ للقرآن وجهاً آخر من وجوه الإعجاز، لم يستطع العربُ أن يُحاكوه أيامَ النبيّ، ولا بعده، ذلك هو نظم القرآن، أيْ أسلوبه في أداء المعاني، التي أراد الله أن تُؤَدَّى إلى الناس. لم يؤدِّ هذه المعاني شِعراً، كما قدَّمنا، ولم يؤدها إليهم نثراً أيضاً، وإنما أدَّاها على مذهب مقصورٍ عليه، وفي أسلوبٍ خاص به لم يُسْبَق إليه، ولم يُلحق فيه. ليس شعراً، لأنه لا يتقيَّدُ بهذه القيود التي عرفها الكُتّاب في الإسلام، وإنما هو آياتٌ مُفصَّلةٌ، لها مِزاجها الخاص في الاتصال والانفصال، وفي الطول والقِصَر، وفيما يظهر من الائتلاف والاختلاف، تتلو بعضَ سوره؛ فإذا أنتَ مُضطرٌ في تلاوتها إلى

الأناة والتمهل، لأنها فُصِّلتْ في ريْثٍ، ومهَلٍ، لأداء معانيَ تحتاج إلى البسط والرَّيْث، كالتشريع مثلاً، ووصْف ما كان يُثار بين المسلمين والمشركين من الحروب والمواقع. وتتلو بعضَ سوره؛ فإذا أنتَ مضطرٌ إلى شيءٍ من التسَّرع، لأنها تؤدي معاني يحتاج أداؤها إلى القوة والعنف، قد فُصِّلت آياتها قِصاراً مُلتئمةَ الفواصل، تقرأها فكأنك تنحدر من علٍ، وذلك حين يُخَوِّف الله عبادَه، ويشتد في تخويفهم؛ فيأخذهم من جميع أقطارها، ويقطع عليهم طريق الجدال والحِجاج».

«ثم يقص في سورةٍ أخرى نفس الأنباء، فتقْصُر الآيات وتسرع، وتتسق الفواصل وتنسجم، وتتكرر عباراتٌ بعينها في آخر كل قصةٍ، لأنه يتجه إلى الإرهاب والإثارة والإحاطة بالسامعين والقارئين، وإعجالهم عن التفكر والتدبر؛ كأنما أخذتهم من كل مكانٍ ريحٌ عاصفة لا يجدون منها مهرباً، ولا يرون لأنفسهم عنها مصرفاً؛ فهي تصبُّ عليهم العِبَر والعِظات والمَثُلات صبًّا. فهم لا يملكون إلاَّ أن يُذعنوا لما يُصَبُّ عليهم، لا يجدون من الوقت، ولا من القوة، ما يتيح لهم رجعَ الجواب، أو الجِدال في بعض ما يُصَبَّ عليهم. وإنما هي الآيات تتابع قِصاراً أشدَّ القِصَر، متسقة أروعَ الاتساق، والعِبَرُ القاصمةُ تُستنبط منها في سَرَعٍ سريع أيضاً. وهم لا يكادون يفزعون من قصةٍ، حتى تتبعها قصةٌ أخرى، تأتي في إثْرِها في سرعةٍ خاطفة، وقوةٍ مذهلة».

«واقرأْ إنْ شئتَ سُورتَيْن، كسورة الشعراء، وسورة القصص؛ فستجد السرعة كل السرعة، والقوةَ كلَّ القوة في السورة الأولى، وستجد الأناةَ والمَهَلَ في السورة الثانية، ولكنك ستجد الروعةَ في السورتيْن جميعاً، تروع أولاهما بما اختُصَّتْ به من هذه السرعة، وتروع الأخرى بما امتازت به من الأناة، وذلك في القرآن كثير. وسواءٌ قرأتَ السور السريعة، أو السور المُتأنية، فسترى من جمال اللفظ وروعة الأسلوب، واتساق النظام، ما يسحرك ويبهرك، ويملك عليك أمرك كله؛ فإذا أنتَ خاشعٌ لما تسمع أو تقرأ، مُعجَبٌ به مُستزيدٌ منه، حتى حين يستأثر بك العِنادُ، وتتكلَّفُ من إظهار الإصرار والاستكبار، والإعراض والإباء».

«وأخصُّ مزايا القرآن؛ أنَّ الذين يقرأونه، أو يسمعونه، دون أن يؤمنوا به يكذبون؛ فهم حين يقرأونه أو يسمعونه، يُناقضون أنفسهم: يُظهرون الإباءَ، ويُضمِرون الاستجابةَ، قد اختلفت قلوبهم، وألسنتهم، ووجوههم؛ فقلوبهم تُذعِن، وألسنتهم تُنكِر، ووجوههم تُعرِض، إلاَّ أن يطبع الله على قلوبهم، ويطمس على عقولهم، ويجعل في آذانهم وقراً».[1]

(1) **مرآة الإسلام**، طه حسين، دار المعارف، القاهرة.

علاقة العربية بالإسلام

لقد كرَّم الله ـ سبحانه ـ اللغة العربية؛ إذْ أنزل بها كتابه العزيز على رجلٍ من أهلها، وكرَّمها بحفظِ ذلك الكتاب المجيد، وهذا التكريم قطعيٌّ الدلالة على أنَّهاً خيرُ اللغات وأشرفها.

ولا يكون الإنسان مسلمًا إلاَّ إذا نطَق الشهادتيْن بلغةٍ عربية ما استَطاع، وإلاَّ كُتِبت له (الشهادتان) بحروف لغته الأصليَّة، لينطق بها.

وقد ارتبطت اللغة العربية بشرائع الإسلام ارتباطاً وثيقاً. ومن هذه الشريعة :

(الصــلاة) فمِن شُروط صحة الصلاة قراءة الفاتحة قراءة صحيحة ـ فالفاتحة ركنٌ مِن أركان الصلاة ـ والأذكار؛ بلغةٍ عربية صحيحة، وهو قول جمهور العلماء، بوجوب تعلُّم الأعجمي ما يُقِيم به صلاته، ولا تصحُّ الصلاة بغير ذلك.

(الحـج) ركن الإسلام الأعظم، وفيه من التلْبية والشعائر القوليَّة المطلوب أداؤها باللغة العربيَّة على كلِّ المسلمين، ومن كلِّ اللغات.

وغير ذلك من الشعائر؛ مثل : قراءة القرآن، وذِكْر الله ـ جلَّ جلاله ـ كلُّ هذا يحتاج إلى تعلُّم شيءٍ من العربية؛ ليصحَّ إسلام العبد، وتصحَّ عباداته.

وفي هذا المعنى، يقول **الفارابي** ـ في كتاب **(الحروف)** : «إنَّ تمكُّن لغة الأمة بالعادة والاستعمال»، لذلك كثر الربط في التراث بين العربية والشريعة؛ لأنَّ أصول اللغة محمولة على الشريعة.

وقد وضَع العلماء شروطًا مَن حقَّقها وحاز عليها، نال رتبةَ الاجتهاد في الدِّين، منها: شرط إتقان اللغة العربية كشرطٍ أساسٍ في المجتَهد، لا يصحُّ له الاجتِهاد إلاَّ بإتقان لغة العرب التي بها نزَل القرآن، وبهاً تحدَّث سيِّد ولد عدنان ﷺ فالقرآن والسنَّة هما مصدر التشريع الإسلامي، فوجَب على مَن أراد بلوغ رتبة الاجتهاد أن يحوز هذه اللغة؛ ليفهَم مراد الله ـ جلَّ وعلا ويَفهَم كلام المصطفى ﷺ.

قال **أبو إسحاق الشيرازي** في **«صفة المفتي»**[1]: «ويَعرِف من اللغة والنحو ما يَعرِف به مراد الله ومراد رسوله ﷺ في خطابهما».

فالعربية واجبةٌ على كلِّ مسلمٍ بحسبه، فالقدر الذي لا يجوز لمسلم أن ينقص عنه هو القدر الذي يُمَكِّنه من إقامة الفرائض، وفهْم كلام الله ورسوله، ففَيهما نجاتُه في الدنيا والآخرة، قال الماوردي: «ومعرفة لسان العرب فرضٌ على كلِّ مسلمٍ من مجتهد وغيره».

قال **الشافعي**: «يجب على كلِّ مسلم أن يتعلَّم من لسان العرب ما يبلغه جهده في أداء فرضه».

وذلك لأنَّ معرفة الدِّين فرض واجب، وما لا يتمُّ الواجب إلاَّ به فهو واجب، والإسلام لا يُفهم إلاَّ بفهْم العربية.

وقال **الشيخ ابن تيميَّة**: «معلومٌ أنَّ تعلمَ العربية وتعليمَ العربية فرضٌ على الكفاية، وكان السلف يؤدِّبون أولادَهم على اللحن، فنحن مأمورون أن نحفَظ القانون العربي، ونُصلِح الألسن المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهْم الكتاب والسنَّة، والاقتِداء بالعرب في خِطابها، فلو تُرِك الناس على لحنهم كان نقصًا وعيبًا».[2]

وقال ابن تيمية ـ أيضاً: «لابُدّ في تفسير القرآن والحديث من أن يُعرَف ما يدلّ على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يُفهَم كلامُه، فمعرفة العربية التي خُوطبنا بها ممَّا يعين على أن نفقه مرادَ اللهِ ورسولِه بكلامِه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإنّ عامّة ضلال أهم البدع كان بهذا السبب، فإنَّهم صاروا يحملون كلام اللهِ ورسولِه على ما يَدّعون أنّه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك».[3]

إنَّ **«العربية»** شعار الإسلام والمسلمين. وإذا كانت اللغة ـ أيّ لغة ـ تعبيرٌ عن كيان وروح، فإنَّ «العربية» هي تعبيرٌ عن كيان وروح ودين؛ لذلك كَرِهَ العلماء الرِطانة بغير العربية دون حاجة؛ بلْ قال **مالك**: «مَن تكلَّم في مسجدنا بغير العربيَّة فأخرِجوه منه».

(1) **اللُّمع في أصول الفقه**، ص127.

(2) ابن تيمية، **«الفتاوى»** 32/ 252.

(3) كتاب **«الإيمان»** لابن تيمية ص 111.

وقيل : كان السلف يكرَهون تغييرَ شعائرِ العربِ حتى في المعاملات، وهو التكلُّم بغير العربية إلاَّ لحاجة، كما نصَّ على ذلك مالك والشافعي وأحمد. مع أنَّ سائرَ الألسن يجوز النطق بها لأصحابها، ولكن سوَّغوها للحاجة، وكرهوها لغير الحاجة، ولحفظ شعائر الإسلام.

فاللغة العربيَّة من الإسلام؛ لذا وجَب التمسُّك بها، والحذر من البُعد عنها؛ لأنَّ هذا من البُعد عن سبيل المؤمنين، وقد حذَّر الله تعالى من هذا المسلك؛ فقال: ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: 85].

أيضاً؛ **«اللغة العربية»** مظهرُ عِزٍّ وفخار للمتمسِّك بها. وهكذا كلُّ قوم يعتزُّون بلُغتهم، ولا يقبَلون عنها بديلاً؛ لذا نجد قادَةَ الدُّوَل الكبرى لا يتحدَّثون بغيرٍ لغاتهم في أيِّ مكانٍ كانوا. أمَّا بعض المسلمين ـ في هذا الزمان ـ فهم لا يتحدَّثون بلغة دينهم. وإنْ كانواً في بلادهم.

قال **الرافعي** [1]: «ما ذلَّت لغةُ شعبٍ إلاَّ ذلَّ، ولا انحطَّت إلاَّ كان أمره في ذهابٍ وإدبارٍ، ومن هذا يفرض الأجنبيُّ المستعمِر لغتَه فرضًا على الأمَّة المستعمَرَة، ويركبهم بها، ويُشعِرهم عظمته فيها، ويستَلحِقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثةً في عملٍ واحدٍ: أمَّا الأول: فحَبْس لغتهم في لغته سجنًا مؤبَّدًا، وأمَّا الثاني : فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا ونسيانًا، وأمَّا الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرُهم من بعدها لأمره تَبَعٌ».

تعدُّ (اللغة العربية) صورةٌ لشخصيَّة الأمة الإسلامية، فلغة الأمَّة دليلُ نفسيَّتها وصور عقليَّتها؛ بلْ هي أسارِير الوجه في كيانها الاجتماعي الحاضر، وفي تطوُّرها التاريخي الغابر؛ لأنَّ وراء كلِّ لفظةٍ في المعجم معنى شعرت به الأمَّة شعورًا عامًّا، دعاها إلى الإعراب عنه بلفظٍ خاصٍّ، فوَقَع ذلك اللفظ في نفوس جمهورها موقع الرِّضا، وكان بذلك من أهل الحياة، وما معجم اللغة إلاَّ مجموعة من المعاني التي احتاجت الأمَّة إلى التعبير عنها، فاختارت لكلِّ معنى لفظًا يدلُّ على الجهة التي نظرت الأمَّة منها إلى ذلك المعنى عندما سمَّتْه باللفظ الذي اصطَلَحت عليه، فلغة الأمة تتضمَّن تاريخ أساليب التفكير عندها من أبسط حالاته إلى أرقاها، يعلَم ذلك البصير بِأَبْنِية اللغة وتلازُمها، ومَن له ذوقٌ دقيق في ترتيب تسَلْسُلها الاشتقاقي.

---

(1) **وحي القلم**، ج3، مصطفى صادق الرافعي.

ويرى علماء الاجتماع، أنَّ اللغة تجعل من الأمَّة الناطقة بها كُلاًّ مُتراصًّا يخضَع لقانونٍ واحد، وأنها الرابطة الحقيقية الوحيدة بين عالم الأذهان وعالم الأبدان، وهي نظريَّةً تصدُقُ على العربية ـ كما يقول الدكتور عثمان أمين ـ أكثر ممَّا تصْدُق على أيَّة لغة أخرى؛ فاللغة العربية عظيمة الأثر في تكوين عقليَّتنا، وهداية سلوكنا، وتصريف أفعالنا؛ ذلك أنها تمتاز عن اللغات الأخرى (بمثالية) عميقة صريحة، تحسب حساب الفكرة والمثال، وتضعهما مكانَ الصَّدارة والاعتِبار؛ أيْ أنَّ العربية تفترض دائمًا أنَّ شهادة الفكر أصدق من شهادة الحسِّ، ويَكفِي في التعبير بها إنشاء علاقة ذهنيَّة بين المسند والمسند إليه، دون حاجة إلى فعل الكينونة الذي هو لازمة ضرورية في اللغات (الهندو - أوربية) ودون الحاجة إلى التصريح بضمير المتكلم أو المخاطب أو الغائب؛ لأنَّ الذات مُتَّصِلة دائمًا بالفعل في تركيبه الأصلي نفسه.

وهذا شبيه بما قاله الدكتور **عبده بـدوي** [1]: «إنَّ بنية أيّ لغة من اللغات تكون ذات وثيقة بعقلية المتكلمين بها، وبنظمهم وحضارتهم، فاللغة أعظم القوى التي تجعل من الفرد كائناً اجتماعياً، وتجعل نظرته للكون مضبوطة باللغة التي يتكلمها؛ لأنها الرابطة الحقيقية بين عالم الأحياء وعالم الأذهان. وإنَّ هذه الحقيقة لم تغب عن ذهن علماء العربية»، ففي كتابه **«اقتضاء الصراط المستقيم»** علَّقَ ابن تيميـة على الحديث الشريف: **«مَنْ يُحسِن أن يتكلم العربية، فلا يتكلم بالعجمة؛ فإنها تُورث النفاق»**. فقال: «إنَّ اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين، كما يؤثر في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقلَ والخُلقَ والدِّين، فتعلُّم اللغة العربية من الدِّين، ومعرفتها فرض واجب، فإنَّ فهم الكتاب والسنَّة فرضٌ، ولا يُفهَم إلاَّ بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلاَّ به؛ فهو واجب .. وليس هناك سبيل إلى حفظ الدِّين ومعرفته إلاَّ بضبط اللسان».

---

(1) **أهمية تعلّم اللغة العربية** (سابق).

تأثير العربية في اللغات الشرقية

عاشت العربية عصراً كانت فيه لغة الحضارة، بينما كانت اللغات الأخرى، لاسيما الأوربية في وضع متخلف جداً، تتلقى فيه عن العربية ثرواتها العلمية واللفظية، وبعبارة موجزة: ثروتها الحضارية. فقد كانت "العربية" هي اللغة الحضارية الأولى في العالم.

وعن هذه الحقبة يتحدث "بيير جيرو" في كتابه (**الكلمات الأجنبية Les Mots Etrangers**) قائلاً : «منذ النصف الأول من القرن السابع الميلادي، مدَّ الخلفاء العرب سلطانهم إلى مصر وسورية وفارس، وفي القرن الثاني بسط الأمويون نفوذهم شرقاً حتى الهند، وغرباً حتى المغرب وإسبانيا، وكذلك استقر العرب في سيشل، وبقوا فيها إلى القرن الحادي عشر. فالإسلام لم يكن القوة السياسية والعسكرية الكبرى في العصر الوسيط فحسب، بلْ كان أيضاً المصدر الثقافي».

«لقد امتدَّ تأثير الإسلام في عهد "هارون الرشيد" منذ القرن الثاني الهجري - الثامن الميلادي؛ ليصبح مصدراً للازدهار الأدبي والعلمي والتقني، دون أن يكون له نظير في الغرب. وفي هذا العصر كان الملوك الميروفنجيون يربطون نساءهم إلى ذيول أفراسهم، وكانت بيزنطة فريسة التمزق والهرطقة والمجامع الكنسية، أمَّا العرب فقد أخذوا تراث الإغريق، فأنشأ العرب علاقات مع فارس والهند ومصر في الشرق، وبدأوا منذ عام 773م يترجمون النصوص العلمية الأولى عن الهندية، فلقد أصبح أعظم الأسماء في ميادين الأدب والفلسفة والعلم عرباً مسلمين؛ كابن سينا، وابن رشد، والخوارزمي، والخيام، والبتّاني. والكيميائيين: خالد بن يزيد، وجابر بن حيان، والرازي».

«لقد كان العرب أصل العلم الحديث، وبخاصة في علوم الطب والكيمياء والرياضيات والفلك، وكانوا هم همزة الوصل مع الشرق، بوساطة فارس والروم. وكانوا نقلة علوم الملاحة والتجارة إلى الغرب. كما أنَّ ثقافتهم الخاصة قد قدمت موضوعات ونظماً في مجال الفن العسكري، والعمارة والنسيج .. وهذه التأثيرات بارزة فيما نجد في لغاتنا من ألفاظ مقترضة».

كما تشهد المستشرقة الألمانية "زيجريد هونكه" في كتابها (**شمس الله تسطع على الغرب**) بأنَّ تأثير العربية قد امتدَّ إلى الألمانية، وتملأ كتابها بالكلمات التي ترى أنها عربية الأصل في اللغة الألمانية، وتأتي في فهارس الكتاب بملحق ضمَّ أكثر من مائتين وخمسين كلمة.

ولم تكن الإنجليزية بعيدة عن أن ينالها التأثير العربي، ففيها قدر كبير من الكلمات ذات الأصول العربية، يصل بها بعض الباحثين إلى بضع مئات دخلت الإنجليزية مباشرة أوْ بالواسطة، ولكن صلة العربية بالإنجليزية بدأت متأخرة في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، وكان أغلب ما تسرب إلى الإنجليزية عن طريق اللغتيْن الإسبانية والبرتغالية، اللتيْن تحتويان عدداً يربو على ألف وخمسمائة كلمة ذات أصول عربية، على نحو ما قرره العلاَّمة دوزي في كتابه (**قائمة بالكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية**).

على جانب آخر؛ نجد الكلمات العربية في اللغات الشرقية (الفارسية والتركية والأوردية والمالاوية والسنغالية) أكثر من أن تحصى. والكلمات العربية في الإسبانية والبرتغالية والألمانية والإيطالية والإنجليزية والفرنسية ليست قليلة أيضاً.

لقد التقت العربية بالفارسية والسريانية والقبطية والبربرية (الأمازيغية). وكان عندها أسباب القوة، فهي لغة القرآن، وتتميز ببناء قوي محكم، وتملك مادة غزيرة.

لقد حملت رسالة الإسلام؛ فغنيت بألفاظ كثيرة جديدة للتعبير عما جاء به الإسلام من مفاهيم وأفكار ونظم وقواعد سلوك، وأصبحت لغة الدين والثقافة والحضارة والحكم في آن واحد.

فالعربية غزت اللغات الأخرى، فأدخلت إليها حروف الكتابة، وكثيراً من الألفاظ. وكان تأثيرها في اللغات الأخرى عن طريق الأصوات والحروف والمفردات والمعاني والتراكيب.

وأدى احتكاك العربية باللغات الأخرى إلى انقراض بعضها، وحلول العربية محلها؛ كما حصل في العراق والشام ومصر، وإلى انزواء بعضها، وانحسار بعضها الآخر كالفارسية.

بلْ أصبحت لغات الترك والفرس والملايو والأوردو تكتب جميعها بالحروف العربية، وكان للعربية الحظ الأوفر في الانبثاث في اللهجات الصومالية والزنجبارية؛ لرجوع الصلة بين شرق إفريقيا وجزيرة العرب إلى أقدم عصور التاريخ.

وحول هذا المعنى؛ يقول سليمان البستاني: إن "العربية" أطول اللغات الحية عمراً، وأقدمها عهداً، والفضل في ذلك راجع إلى القرآن؛ فالإلياذة وبلاغتها وسائر منظومات هوميروس، وهسيورس على علو منزلتهما، لم تُقِم للغة اليونانية دعامةً ثابتة حتى في بلادها، ولمْ تقوَ على مقاومة التيار الطبيعي، ولكن القرآن وحَّد لغة قريش في بلادهم، وأذاعها في جميع البلدان العربية، وفي سائر البلاد، أو حيث كثرت مخالطة العرب الضاربين في أقطار الأرض للجهاد والتجارة. ولا الماهابهارتا السنسكريتية، ولا كتاب تاو للأوتسة، ولا كتاب كونفوشيوس في اللغة الصينية، ولا التوراة ولا الأناجيل، قامت اللغات التي كتبت بها مقام القرآن للغة العربية».

«فلولا (**القرآن الكريم**) لكان العرب اليوم يتخذون لهجاتهم وسائل إلى التعبير عن وجدانهم وأفكارهم ومجتمعاتهم، ولكانت أمتنا العربية أصبحت شعوباً تتكلم لغات مستقلة كالألمانية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والإيطالية».

ثمَّ إنَّ العربية قد أثرت تأثيراً قوياً، وبعيد المدى في اللغات الأخرى التي عاصرت نزول القرآن، وكان هذا التأثير بالإحياء والاستمرار، كما حدث للغات التركية والفارسية والسواحلية، أوْ بالإفناء والإبادة كما حدث في اللغات: القبطية والسريانية والعبرية، أوْ بدخول مئات من الكلمات إليها، كما حدث للغات الغربية: الإنجليزية والفرنسية والإسبانية».

وفي بحث للبروفيسور (**إبيان**) أحد أعلام الاستشراق، قال: إن مجموع ألفاظ اللغة الأرمنية عشرون ألف كلمة، يوجد بينها (1500) كلمة عربية، تستخدم في تلك اللغة.

لقد حفلت لغات الشعوب الإسلامية (الفارسية، والتركية، والأردية، وغيرها) بحظ وافر من الألفاظ العربية؛ مما دعا عميد الأدب الإسلامي المقارن **الدكتور حسين مجيب المصري**[1] - إلى القول : "إنَّ من نصوص تلك اللغات ما لا وجود فيها منها إلاَّ الرابطة أو الفعل، بينما سائر الألفاظ مستعارة من لغة العرب".

فقد نظر أبناء هذه الشعوب عقب الفتوحات الإسلامية، إلى العربية نظرة إجلال وتقديس؛ لأنها اللغة الشريفة التي نزل بها القرآن الكريم، والتي حملت عوامل القوة والبقاء والحيوية دون سائر لغات العالم، فتعلّقوا بها، وأبدعوا بها روائعهم، وفضّلوها على لغاتهم المحلية.

---

(1) **أثر المعجم العربي في لغات الشعوب الإسلامية**، د. حسين مجيب المصري.

أجل. فاللغة ـ أيّ لغة ـ إنما تتأثر بحضارة الأمة التي تنتسب إليها، وبتقاليدها وأعرافها المتوارثة، وعقائدها ونوعية ثقافتها، وكذلك بيئتها الجغرافية. وكل تطور يلحق بناحية من هذه النواحي، لابدَّ أن تتردد أصداؤه في اللغة؛ ولذلك تُعد اللغات أصدق سِجل لتاريخ الشعوب؛ فمن خلال الأطوار التي تجتازها اللغة؛ يمكن الوقوف على المراحل التي مرّ بها أهلها على امتداد تاريخهم، وهذا ما يلزم أن تدخل اللغة مفردات جديدة عن طريق: الوضع والاشتقاق والاقتباس، وهو ما حدث في اللغات: الفارسية والتركية والأردية والهوسا والسواحلية والبنغالية.

ثم إنَّ طبيعة أهل اللغة ـ أية لغة ـ والتي جُبِلوا عليها، تتجلى في أسلوبهم، وطريقة تفكيرهم، وهذا يُذكّرنا بما قيل؛ من أن طبيعة الشعوب وأساليبهم في التفكير، التي تتباين في وضوح؛ فمما يُقال إن الشعوب السامية كالعرب -على سبيل المثال- يصفون ما يقع تحت أعينهم، كما هو بحذافيره، فلا يكادون يُضيفون إليه شيئاً بخيالهم، في تعبيرهم عنه، إلاَّ إذا كانوا شعراء.

لكن الشأن يختلف عند الآريين كالفرس، فهم مشغوفون بالتمثيل والتّخّيل، في شِعرهم وكلامهم.

لقد احتوت (**اللغة الفارسية**) على كثير من الألفاظ العربية؛ وقد أحصى أحد الباحثين عدد المفردات العربية في بعض نصوص التراث الفارسي؛ فقال: "إن في الصفحة الأولى من تاريخ البيهقي، استخدم الكاتب مائة وخمساً من الكلمات العربية، من مائتين وستة وخمسين كلمة فارسية.

ويرى **الدكتور محمد نور عبد المنعم**[1] أن مؤلف كتاب **"قابوس نامه"** أورد ثماني عشرة كلمة عربية من مائة وعشرين كلمة فارسية. بلْ إنَّ منهم من أحصى اثنتين وأربعين كلمة عربية في نص واحد، في إحدى خُطب شاه إيران من مائة وعشرين كلمة فارسية".

ويؤكد الدكتور مجيب المصري ـ أنَّ كثرة الألفاظ العربية في الفارسية شيء مُلاحظ في النصوص القديمة والحديثة على حد سواء. وأن هذه الكثرة تتفاوت، كما أن هذه الألفاظ منها ما دلَّ على معنى جديد، لم يكن في العربية، أو منها ما استّخدم بمعناه في العربية. وفي الإمكان متابعة هذه الألفاظ العربية في تزايدها في الفارسية على امتداد القرون.

(1) د. محمد نور عبد المنعم.

ويضرب أمثلة لِما يقول؛ "ففي مُستهل العهد الساماني (261هـ ـ 389هـ) كان عدد الألفاظ العربية في الفارسية محدوداً، ولا يتجاوز خمسة أوْ عشرة ألفاظ في مائة لفظ فارسي، أمَّا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري؛ فأصبحت خمسين في المائة، وفي القرون: السادس والسابع والثامن الهجرية؛ زادت كثيراً ألفاظ العربية حتى بلغت ثمانين في المائة".

فكلمة (**عورت**) بمعنى امرأة وزوجة، وقد انتقلت منها إلى التركية والأردية. وهي في العربية بمعنى سوءة الإنسان، وكل ما يستحي منه، ويكره أوْ يحرم كشفه. والحرم والحريم، هو كل موضع تلزم حمايته، "حريم الرجل" ما يحميه ويُقاتل عنه. ويُطلق هذا الاسم في اللغات الشرقية على المجاز؛ لأنَّ المراد ليس المكان، بلْ من يحل فيه ويسكنه من النساء. وإنما أُطلق هذا الاسم مُبالغة في حجب عيون الغرباء عن النساء.

ولكننا لا نكاد نقع على هذا الاسم بمعنى النساء في كتب العرب؛ وإنْ كنا في مصر نذكره توسعاً؛ ولعلنا تلقيناه عن التركية، كما سُمِّيت الزوجة في مصر حرماً بهذا المعنى.

وأمَّا كلمة (**عيال**) في الفارسية؛ فتعني زوجة، أمَّا في العربية؛ فهي كل من يعول الرجل في بيته من زوجة وأولاد وأتباع، وكل من تلزمه نفقة الرجل عليهم. ويُفهم من هذا أن الرجل مُلزَم بأن يعول زوجه، قبل غيرها ممن يعول، خاصة أن دخول الاسم في صيغة الجمع يوحي بأن لها الصدارة قبل غيرها، وأن غيرها تابع لها.

وتسمى المرأة "**مستوره**" في الفارسية والأردية. ومن شواعر الفارسية في الهند، في القرن السادس عشر للميلاد، اختارت أميرة لنفسها لقباً في شِعرها هو "مخفي" بمعنى سرّي وخفي ومستور؛ مما يدل على أن هذا الاسم يشهد لصاحبته بالصون والعفاف والاحتجاب عن العيون.

والملاحظ أن المتصوفة من شعراء الفارسية والتركية والأردية، يُطلِقون اسم "**شاهد**" على ذات الحُسن الفتّان. والمُدرَك من هذا؛ أنها بجمالها تشهد على قدرة الله عزّ وجل.

ولا وجود لمثل هذه المعاني في لغة العرب؛ فمعنى الشاهد في العربية، مختلف عن معناها الرمزي في شعر الفرس والترك والهند الصوفي.

لقد تأثر الفرس بألفاظ العرب، لحبهم للعربية؛ فأدخلوا تعابيرها في جسد لغتهم؛ لكيْ تتطور وتنمو، وتُصبح لغة عالمية، كالعربية؛ لغة دين وأدب وفكر، ومنهج حياة.

وفي ألفاظ لغة الفرس، التي يتألف اللفظ فيها من مقاطع، وهذه المقاطع تؤلف صورة بيانية، يُعبّرون عن أسلوبهم في التفكير والتّحضّر.

ويسوق الدكتور المصري أمثلة وشواهد وبراهين، من الألفاظ التي استعارها الفرس عن العرب، وطوّروا معناها، في لغتهم؛ مستجيبين لسليقتهم؛ فكلمة (**انقلاب**) في الفارسية، بمعنى الثورة، بمعناها المتعارف المألوف، وهي الخروج عن طاعة الحاكم، وإعلان العِصيان عليه، والرغبة في خلعه، وتغيير نظام حكمه. فالكلمة في معناها الحِسي عند العرب، تدل على حركة، قد تكون بمعنى السقوط من علٍ، أوْ تغيير الوضع من جانب إلى جانب مُضاد، وهذا كل ما يتحصِّل من معناها الحسي، ولكن معناها في الفارسية، لا يتعلق بمثل تلك الحركة المحسوسة في لغة العرب.

ولقد صدق ما قيل عن الفرس؛ من أن الفارسي يتكلم بالمجاز والخيال، ويميل إلى التصوير، وذلك في اتصال ودوام، حتى فيما يأخذ بأطرافه من أحاديث بينه وبين من يحدِّثه في كل يوم.

كما أن الفارسية تحتوي على كلمات أُخِذت عن العربية، وصاغوها صياغة خاصة. فتدل على معنى جديد، ليس له من وجود في العربية. مثال ذلك كلمة "**ذو حياتين**". فالعربي لا يفهم منهما شيئاً. أمَّا الفارسي فيقصد بهما الحيوان البرمائي، كالتمساح والضفدعة.

أمَّا عن الألفاظ العربية التي دخلت (**اللغة التركية**) فقد دخلتها عن الفارسية المتأثرة أصلاً بالعربية؛ فقد امتزجت العربية بالتركية، كما امتزجت العربية بالفارسية. على أن الألفاظ العربية المتعلقة بالدِّين لم يتغير معناها في الفارسية والتركية والأردية عن الأصل العربي. فالأتراك يطلقون كلمة "**علاج**" على الدواء؛ لقيام الصلة بين الدواء والداء، وإنْ كانوا لا يقصدون كلمة التداوي العربية، في معناها العربي، على أن الترك لا يستخدمون كلمة "علاج" أصلاً؛ فكأنهم استعاروها من العربية، واستخدموها على نحو خاص بهم. وعندهم كلمة "**مدهش**" بمعنى "**مُخيف**" حيث أخذوا عن الفرس كلمة "دهشت" التي طوّروها عن العربية، وصاغوها صياغة عربية، بيد أنهم استعاروا هذه الكلمة عن العربية كذلك، بمعناها في لغة الضاد، وهي لا تعني الخوف، وغيّروا بنيتها وجعلوها تركية؛ فقالوا "دهشتلي" مُضيفين اللام والياء، وهما علامة النِسبة، وهم بذلك أميل إلى الواقع من الفرس، واستطاعوا إقامة فارقاً بين المعنيين.

كذلك فرّق الترك كلمة "**قِيمت**" عن معناها الأصلي؛ فقد استخدموها بمعنى ذي القيمة؛ فقالوا "**قيمتلي**" وجعلوها صِفة للصديق العزيز الحبيب؛ فخرجت خروجاً بعيداً

عن معناها في العربية. وإذا كانت كلمة "**نفيس**" في اللغة العربية تُرادف كلمة "ذا القيمة"، فجدير بالملاحظة أنهم يريدون بها "لذيذ الطعم. ونوضح أن العزيز المُخلص قد يُعدّ شيئاً قيِّما، ولو على سبيل التشبيه.

وهكذا يُغيّر الترك في دلالة الألفاظ العربية؛ ولكن على نحو خاص بهم دون غيرهم.

لكن هناك من علماء الترك من يقول: إن أخذ التركية عن العربية ألفاظاً انصرفت عن معناها إلى معانٍ أخرى، يُعدّ مشكلة من المشكلات التركية. وإن مجموعة من الألفاظ العربية التي دخلَت التركية تغيّر معناها فيها، بل ربما لم تُسمع عند العرب بهذا المعنى.

فكلمة (**إحساس**) في العربية، تأتي بهذا المعنى، وتأتي بمعنى (**احتساس**) في التركية.

وكلمة (**استمزاج**) وكلمة (**مدرر**) في التركية، تغيّرت بنيتها، ولا وجود لها في معاجم العربية.

ومن الإنصاف القول : إن النصوص التركية الزاخرة بالألفاظ العربية، هي التي شكّلت أدب الخواص، لا أدب العوام.

كذلك؛ تأثرت (**اللغـة الأرديــة**) بالعربية أولاً، ثم بالفارسية، وهي لغة بلاد الهند الإسلامية، التي غزاها الفرس في القرن الرابع الهجري، والتي عبّرت عن حضارة الإسلام في شبه القارة الهندية، وكان من الطبيعي أنْ تتسرب إليها ألفاظ عربية من الفارسية.

ولقد راعى الهنود المسلمون تطورِ المعنى لكلمات العربية التي دخلت لغتهم الفتية، واندمجت فيها. وقد اهتموا أولاً بترجمة معاني القرآن الكريم إلى الأردية؛ فكانت النقلة الكبرى في لغتهم، والتي أمدتهم بزادٍ وفير من الألفاظ العربية.

الخلاصـة؛ أن العرب حملوا الإسلام إلى العالم، وحملوا معه لغة القرآن، واستعربت شعوب غرب آسيا وشمال إفريقية بالإسلام، فتركت لغاتها الأولى، وآثرت لغة القرآن.

أيْ أنَّ حبهم للإسلام هو الذي عربهم، فهجروا ديناً إلى دين، وتركوا لغةً إلى أخرى.

بل شارك الأعاجم ـ الذين دخلوا الإسلام ـ في عبء شرح قواعد العربية وآدابها للآخرين، فظهر منهم أشهر علماء النحو والصرف والبلاغة بفنونها الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع. ولازالت الأمة كلها عالة على مصنَّفاتهم وروائعهم التي ملأتْ الدنيا، وشغلتْ الناس.

أثر العربية في اللغات الأجنبية

في كتابه «**إسبانيا في تاريخها ـ المسيحيون والمسلمون واليهود**»، يقول البروفيسور **أميركو كاسترو** : «أمَّا القرآن فهو الكتاب الذي يرتله الجميع، وهو مكتوب بنفس اللغة التي لازال المسلمون يكتبون بها حتى اليوم، وهي العربية. وهذا هو السر في عدم تحولها إلى لهجات».

ويقول أيضاً : «إن اللغة الرومانية الإسبانية قد اتخذت الكلمات العربية شديدة الصلة بالحياة، وكأنها شيء تفرضه الظروف، وليست السلطة الحاكمة. أمَّا العنصر العربي في اللغة الرومانية الأيبيرية، فيرجع إلى ضرورة ملحة تتعلق باستيراد الحاجيات التي هي ثمرة القدرات الإنتاجية العربية المتفوقة، وتتعلق بتلك الواردات اللغوية العربية بمناحي شتى في الحياة، إذْ تشمل الزراعة وتشييد المباني والفنون والحرف المختلفة والعلوم وشئون الحرب. وكان الخياطون من المسلمين، وكذلك الحلاّقون والقائمون على أمور الديوان والحسابات والزراعات. ولمَّا كانت صلات اللغة البرتغالية بباقي أوربا أقل مقارنة بالإسبانية، فقد حافظت على الكثير من الكلمات العربية، والتي حلَّ محلها في الإسبانية كلمات من أصل روماني».

وفي رسالته عن الألفاظ العربية في اللغة الإنجليزية، يقول **Walt taiyllr** : "إنه في الفترة ما بعد 1450م كان الداخل إلى اللغة الإنجليزية من الألفاظ العربية بمعدل 83 % وذلك بعد أن اتسعت آفاق التجارة وأسباب المواصلات بين الشرق والغرب، وقد كان للجزيرة الأندلسية أعظم أثر فيما قدمته العربية للغات الأوربية، فالسيادة العربية التي بقيت في تلك الجزيرة بضعة قرون، قد طعَّمت لغتها الإسبانية والبرتغالية بعدد كبير من الألفاظ".

بلْ إنَّ الذي يفتح كتاب (**تكملة المعاجم العربية**) للمستشرق (**رينهارت دوزي Douzy Rinhart**) عن الألفاظ العربية في اللغة الإسبانية؛ يجد فيه نحو (1500 كلمة) من أصل عربي، يرجع بعضها إلى الحقبة العربية في الأندلس.

أيضاً؛ دخلت إلى اللغات الأوربية مصطلحات كثيرة عن طريق جزيرة صقلية.

وقد قسَّم **"أنيس المقدسي"** هذه الألفاظ العربية إلى عدة أنواع :

أولاً : أعلام أشخاص وأمكنة وألقاب خاصة.

ثانياً : ألفاظ ومصطلحات مستحدثة.

ثالثاً : مصطلحات علمية؛ كأسماء النجوم (إبرة العقرب، والشِّعرى، ورأس الثعبان).

رابعاً : ألفاظ عربية تبنتها الإنجليزية، مثل (منبر، كنيسة، صراط، فردوس، سكر، مسك).

كما لوحظ أنَّ كثيراً من هذه الكلمات والمصطلحات؛ اندمجت في الإنجليزية، وغيرها من اللغات الأوربية، حتى لم تعد أصولها العربية واضحة.

ويقول الأب **رفائيل نخلة اليسوعي** في كتابه **(غرائب اللغة العربية)** : "في القاموس العربي عجائب وغرائب عديدة، قلما نجد أمثالها في قواميس أشهر اللغات، وأعجب تلك المزايا مختص بلغتنا وحدنا، وهو كونها أثّرتْ تأثيراً ذا درجات متباينة من الشدة في نحو مائة من لغات العالم ولهجاته، ومن جملتها أرقى اللغات الأوربية. فحسبنا ذلك فخراً يدوم إلى منتهى الأجيال، ويحثنا على زيادة التعلق بلساننا، وبذل أقصى الجهد لتحسينه، ولرفع مستوى أدائه، وتوسيع نطاقه. والحمد لله تعالى الينبوع الفياض لكل الخير، على ما حلَّ به لغة الضاد من المحاسن الرائعة. وقد فاقت لغتنا العربية أشهر اللغات بكثرة الصيغ والمترادفات، فانتشرت في أقطار عديدة من آسيا وإفريقيا وأوربا. وإنَّ هذا المجد المختص بلغة الضاد لمن العجب العجاب الذي يثير قوى العقل لاكتشاف أسبابه شرقاً وغرباً. ومن العجيب ـ كذلك ـ أن اللغة العربية نابتْ على لسان شعوبها مناب لغات الشعوب الأصلية كالآرامية في سوريا والقبطية في مصر. وهناك أكثر من سبع وثلاثين لغة اقتبست الكثير من كلماتها وألفاظها من اللغة العربية؛ كالإيرانية، والتركية، والهندية، بحيث لا يكاد العثور على جملة في تلك اللغات ليس من بينها ألفاظ عربية، حتى إنه في الأربع والثلاثين آية الأولى من إنجيل القديس يوحنا، وجدنا (111 كلمة) عربية.

وقد دخلت من الألفاظ العربية إلى لغات أوربا المئات، فهناك اثنتا عشرة كلمة مختصة بالدِّين الإسلامي، مثل: (إسلام، حريم، خليفة، صوفي، قرآن، مؤذن، محمدي، مسجد، مسلمون، مفتي، منارة، هجرة).

وخمس وثلاثون كلمة لأسماء نباتات، أو مواد نباتية، مثل (بطيخ، تمر هندي، حشيش، خروب، زعفران، برقوق، سحلب، سكّر، صندل، عنبر، فستق، قطران، ليمون، كافور، ياسمين، غزال، زعرور).

وكلمات عبارة عن أسماء حيوانات أو مواد حيوانية، مثل (ببغاء، جمل، زرافة، صقر، غزال، يربوع، مسك، قرمز).

وهناك ألفاظ متعلقة بالعرب، مثل: (شيخ، أمير، شرقيون، مستعرب، بدو).

وهناك ألفاظ ذات صلة بالحكومة، مثل: (أمير البحر، دار الصناعة، ديوان، سلطان، وزير).

وهناك كلمات اختصت بعلم الرياضيات، مثل : (جبر، صفر، والخوارزمي).

وكلمات متعلقة بعلم الفلك، مثل : (سمت، نظير، سمت الرأس، عضاضة).

وكلمات مختصة بالكيمياء، مثل (إكسير، كيمياء، كُحُل، طلق، إنبيق، وملغَم).

وفي كتابه (**تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا**) يعلِّل المستشرق النمساوي **يوسف جبرا** ـ انتشار العربية وسريانها، فيقول: "إنَّ العربية ذاعت شهرتها ولهجتها العذبة حين بدأ الرهبان وبعض عظماء المسيحيين ينزلون إلى بلاد الأندلس وجزيرة صقلية وفلسطين، حيث شاهدوا هندسة المباني العربية البديعة الدالة على تمدين عجيب، وحين اطلعوا على النقود الإسلامية التي ضُرِبتْ بغاية الإتقان، بعكس ما كانت عليها نقودهم من البساطة.

في دراسة لغوية جادة بعنوان (**اللغة العربية أصل اللغات**) أنجزتها **الدكتورة تحية عبد العزيز** ـ المتخصصة في علم اللغويات ـ في حوالي عشر سنوات من البحث والمقارنة؛ قارنت بين الكلمات المشتركة بين (العربية) ونظيراتها في اللغات الأخرى؛ كالإنجليزية، واللاتينية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية ... وكشفت عن عدد الكلمات العربية في اللغات الأخرى، وحجم التأثير الذي أحدثته العربية في غيرها، ومدى احتياج تلك اللغات للعربية.

كما كشفت عن أسباب التشابه بين الألفاظ العربية ونظيراتها في اللغات الأخرى. وتوصلت إلى سعة "العربية" وغناها، وضيق اللغات الأخرى وفقرها، فـ(اللاتينية) بها سبعمائة جذر لغوي. و(السكسونية) بها ألفا جذر، بينما (العربية) بها ستة عشر ألف جذر لغوي.

إلى جانب ذلك؛ تتمتع العربية بالتفعيل والاشتقاق والتركيب؛ فكلمة Tall (الإنجليزية) بمعنى طويل، والتشابه هنا واضح جداً، ولكن نجد (العربية) تخرج منه مشتقات وتراكيب

ليس لها عدد : يطول، طائل، طائلة، طويل، وغيره بينما لفظ **Tall** لا يخرج منه شيء. كذلك كلمة **Good** الإنجليزية، وهي جيد بالعربي، نجد منها الاشتقاق جود، والجودة، والإجادة، ويجود، وجواد، وغيره من الاشتقاقات. لكن؛ لا نجد أيّ اشتقاق للفظ Good.

ونجد في "العربية" أن اللفظ الواحد له أكثر من معنى بمجرد تغيير الوزن، فمثلاً : قاتل وقتيل، وفيض وفيضان؛ اختلافات بالمعنى، ولكن أحياناً تصل إلى العكس مثل قاتل وقتيل. وهذا الإيقاع الوزني غير معروف في اللغات الأخرى.

ويضطر الإنجليزي لاستخدام كلمتين،مثل: Good، Very Good للتعبير عن الجيد والأجود.

وهناك ميزة أخرى ينفرد بها الحرف العربي؛ هي أن لكل حرف دلالة ورمزية ومعنى، فحرف (الحاء) يرمز إلى الحدة والسخونة، مثل: حمى وحرارة وحر وحب وحريق وحقد. بينما نجد حرف آخر مثل: (الخاء) يرمز إلى كل ما هو كريه وسيئ ومنفِّر، ويدخل في كلمات، مثل: خوف وخزي وخجل وخيانة وخلاعة وخذلان وخسة وخسيس، وهكذا. ونرى أيضاً أن الطفل إذا لمس شيئاً حاراً قال أح. والكبير إذا نسي شيئاً قال أخ.

وهذه الرمزية الخاصة بالحرف، والتي تجعله بمفرده ذا معنى، تنفرد بها اللغة العربية، ولذا نجد القرآن المجيد بدأ بعض السور بحرف واحد مثل : **(ص، ق، ن)**.

وكأنَّ الحرف بحد ذاته يعني شيئاً، ولأنَّ للحروف العربية معنى ومدلولاً تستطيع أن تؤلِّف جملاً قصيرة جدا، مثل: (لن أذهب) ومثل هذه الجملة يحتاج الانجليزي إلى جملة طويلة ليترجمها، فيقول : I shall not go

وإذا تتبعنا العربية من ناحية نحوها وصرفها وقواعدها وكلماتها؛ نجد أنها لم تتغير على مر آلاف السنين. وكل ما حدث أنها اتسعت، ولكن لم تحرف مثل باقي اللغات. ففي "اللغة الألمانية القديمة" نجد لغة فصحى خاصة بالشمال تختلف عن التي في الجنوب، ونجد أيضاً أجرومية مختلفة في اللغتين، ونجد التطور يؤدي إلى الدمج والاختصار. وذات الشيء مع اللاتينية وأنواعها، وفي اليونانية وفي الأنجلو ساكسونية.

وحدث ولا حرج عن غِنى العربية بمترادفاتها، فالأسد له العديد من الأسماء، فهو: الليث، والسبع، والقسورة، والغضنفر، والرئبال، والضرغام، والضيْغم، وغيره من الأسماء. ولكل اسم دلالة معينة، ويعكس صفة بعينها. ومن الطبيعي؛ أن يأخذ الفقير من الغني، وليس العكس.

يقول اللغويون : إنَّ "**الإنجليزية**" بها قدر كبير من الكلمات ذات الأصول العربية، أحصاها بعض الباحثين في بضع مئات، دخلت الإنجليزية مباشرة، أوْ بالواسطة، ولكن صلة العربية بالإنجليزية بدأت متأخرة. وكان أغلب ما تسرب إلى الإنجليزية عن طريق اللغتين: الإسبانية والبرتغالية؛ اللتيْن تحويان ما يزيد على ألف وخمسمائة كلمة ذات أصول عربية، فيما ما قرره العلاَّمة دوزي في كتابه "**قائمة الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية**".

وفي بحث قدَّمه الأستاذ أنيس المقدسي- إلى "مجمع اللغة العربية" تعرض لتحقيق مائة وأربعين كلمة عربية واردة في معاجم اللغة الإنجليزية.

وهناك كتاب للدكتور **سـليمان أبـو غـوش**، بعنوان (**عشرة آلاف كلمة إنجليزية من أصل عربي**) طبعة عام 1977م. ودراسة للدكتور **محمد عبد العزيز محمد ـ** عن (**الأصل العربي لمفردات طب العيون**) طبعة عام 1975م، وغير ذلك من الدراسات المقارنة.

وقد لوحظ أنَّ كثيراً من الألفاظ التي رحلت إلى بلاد الغرب، واختلطت بلغاته؛ رجعت إلينا مرة أخرى في شكل (إعادة اقتراض). ولكن نظراً لأنَّ المرحلة الحضارية التي نعيشها مرحلة (هزيمة) أمام معطيات الغرب الثقافية والصناعية، فإذا بكلماتنا لا تعود إلى أصلها، ولا تنطق كما كانت، بلْ كما هي في اللغة الأجنبية.

وهذا الجدول يوضح مدى تأثر اللغة الإنجليزية بالعربية، واقتباسها من ألفاظها :

عربي	إنجليزي	عربي	إنجليزي
بخار	Vapour	قابل	Able
بركان	Volcano	ليث	Lion
جارية	Girl	عنق	Neck
جيد	Good	مرآه	Mirror
شريف	Sherif	هرع	Hurry
قط	Cat	هلاوس	Hallucinations
كهف	Cave	وسط	Waist
كفن	Coffin	مطر	Water
رسغ	Wrist	ليفه	Loofa
ياسمين	Jasmine	مسك	Musk

إنجليزي	عربـي	إنجليزي	عربي
mirror	مرآة	Mummy	موميا
Elixir	الأكسير	Cut	قطع
Cotton	قطن	kill	قتل
cup	كوب	Canon	قانون
guide	قائد	Tail	ذيل

وتشهد (**زيجريد هونكه**) في كتابها (**شمس الله تسطع على الغرب**) بأنَّ تأثير العربية قد امتدَّ إلى الألمانية بقوة، وقد ملأت كتابها بالكلمات ذات الأصل العربي في اللغة الألمانية، وقد أتت في فهارس الكتاب بملحق ضمَّ أكثر من (مائتين وخمسين كلمة) بعضها مشترك مع قائمة «بيير جيرو» الفرنسية. وهذا نموذج من تأثر اللغتين: (اللاتينية) و(الألمانية) بلغة الضاد :

ألمانـي	عربـي	لاتيني	عربي
Erd	أرض	Allah	الله
Reise	أرز	Auzon	أذن
Burg	برج	Valcan	بركان
Defence	دفاع	Bucula	بقرة
Assel	قصر	Gaballum	جباية
Katxe	قط	Fallita	فلتة
Lowe	ليث	Nafela	نافلة
Valkan	بركان	Cannon	قانون
Noble	نبيل	Nobilis	نبيل
Jupe	جبة	Mameluk	مملوك

ولم تكن اللغتان : (الفرنسية) و(الإيطالية) في غِنى عن «لغة الضاد» وتأثرهما بها، فقد قدَّم (**بيير جيرو**) في كتابه (**الكلمات الأجنبية Les mots etrangers**) قائمة من مائتين وثمانين كلمة من العربية دخلت إلى الفرنسية في العصور المختلفة، وقد وزعها بعناية على تواريخ اقتراضها، ومن بينها الكلمات الآتية، التي يظهر أصلها العربي من أول وهلة :

إيطالي	عربـي	فرنسي	عربي
Giraffe	زرافة	Vapeur	بخار
Zukora	سكر	Serpon	ثعبان
Goetta	قطة	Chagrin	شجن

إيطالي	عربي	فرنسي	عربي
Gazelle	غزال	Savon	صابون
Castello	قصر	Nuque	عنق
Malato	مريض	Cave	كهف
pastèque	بطيخ	mosquée	مسجد
sultan	سلطان	Califa	خليفة
récif	رصيف	Emir	أمير

وهناك أمثلة أخرى لا حصر لها، أوردتها كتب كثيرة، مثل كتاب **«العربية لغة العلوم والتقنية»** للدكتور **عبد الصبور شاهين**، وكتاب **«لغة آدم عطاء أبدي لبني آدم»**، وغيرها.[1]

الحقُّ أقول : إنَّ الحديث في هذا الموضوع قد يحتاج إلى مؤلفات مستقلة، وقد تناوله عشرات الباحثين، أمثال: Walt taiyllr في كتابه **"ما اكتسبتْ الإنجليزية من العربية"**، والأب لامنسي، في كتابه **"علاقة العربية بالفرنسية"**. وDouzy في كتابه **"علاقة العربية بالإسبانية والبرتغالية"**. فضلاً عن قاموس أكسفورد، وقاموس وبستر، ومعجم الألفاظ الفلكية لأمين المعلوف، ومعجم ألفاظ النبات للدكتور أحمد عيسى، ومعجم الألفاظ الزراعية لمصطفى الشهابي، ومعجم العلوم الطبيعية والطبية للدكتورمحمد شرف. وهناك أمثلة كثيرة جداً، ربما تفوق الحصر؛ من مختلف اللغات الأخرى، كاليونانية، والأنجلو ساكسونية، حتى الهيروغليفية، والآرامية، تثبت مدى تطابقها مع أصلها العربي. فهـل من مدَّكِـر؟.

(1) **العربية لغة العلوم والتقنية** (سابق).

وشَـهِدَ شَـاهِدٌ من أهلهـا

ليس العرب وحدهم الذين يتفاخرون بـ(لغة الضاد) ويتغنَّون بأمجادها، ومحاسنها، فهناك جمهور عريض من الفلاسفة والمؤرخين والمفكرين والعلماء والأدباء الغربيين، الذين يتيهون فخراً بالضاد ومزاياها، ويذهبون إلى أبعد ما ذهب إليه العرب أنفسهم، حتى تسابقوا في إنجاز المعاجم والدراسات والأبحاث المستفيضة عن عبقرية العربية، وأصالتها، وتميزها، وكمالها، وجمالها، بلْ وترجموا روائعها إلى لغاتهم المختلفة؛ بعدما خلبت ألبابهم، وابتلوا بعشقها، وانبهروا بخصائصها، وفاضت ألسنتهم بما أصاب شغاف قلوبهم.

وفي هذا الصدد؛ وعملاً بالحكمة الرفيعة: «وشهد شاهد من أهلها» نورد طائفة من شهادات الغربيين ـ أبناء اللغات الأخرى ـ من غير أن نتدخل بتعليقٍ أوْ تعقيب على أيّ شهادة من تلك الشهادات، فهي تتحدث عن نفسها، وتفصح عمّا بداخلها، ولن نسوق من الشهادات إلاَّ ما كان للمشاهير والمبرِّزين من أبناء الحضارة الغربية، فلا هم حنابلة ولا أحناف.

إنها شهادات اعتراف؛ صدرت مِمَّن هم أحرص على الفخر بحضارتهم، والتغنِّي بمواريثهم. وهي -حين تصدر عمن ليسوا متَّهمين بالانتماء للإسلام- أوقع للحجة، وأبلغ في التدليل على عبقرية (لغـة الضـاد) وتميزها بالخصائص التي أوردناها عبر صفحات هذا الكتاب، وأدحض لِما يزعمه خصومها الألداء؛ من جمودها وعقمها وصعوبتها، وعدم استجابتها لمتطلبات العصر.

و«بشهادات شهود من أهلها» تتبيَّن غوغائية الاتهامات الباطلة، والإرهاب الفكري الذي يمارسه الخصوم، الذين لا يجدون ما ينتصرون به لأكاذيبهم أسهل من وصم العرب بالتعصب لأسلافهم ومواريثهم.

يقول العالِم اللغوي الفرنسي لويس ماسينيون Louis Massignon [1]: «استطاعت العربية أن تبرز طاقة الساميين في معالجة التعبير عن أدق خلجات الفكر، سواءً كان

(1) **الفصحى لغة القرآن**، مرجع سابق.

ذلك في الاكتشافات العلمية والحسابية أو وصف المشاهدات أو خيالات النفس وأسرارها. فالعربية من أنقى اللغات، وهي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، بلْ تفرّدت بتفرّدها في طرق التعبير العلمي والفني والصوفي، وإنَّ التعبير العلمي الذي كان مستعملاً في القرون الوسطى، لم يتناوله القدم، ولكنه وقف أمام تقدّم القوى المادية فلم يتطوّر. أمَّا الألفاظ المعبّرة عن المعاني الجدلية والنفسانية والصوفية لأنها لم تحتفظ بقيمتها لذاتها، بل تستطيع أن تؤثر في الفكر الغربي وتنشّطه. ثمّ ذلك الإيجاز الذي تتسم به اللغة العربية والذي لا شبيه له في سائر لغات العالم والذي يُعدّ معجزةً لغويةً ..».

وهذا بدوره يتفق تماماً مع رؤية المستشرق وليم ورك William-waRk- التي تقول : «إن للعربية ليناً ومرونةً يمكنانها من التكيف وفقاً لمقتضيات العصر».

ويقول المستشرق الفرنسي (**إرنست رينان Ernest Rinan**)[1] : «اللغة العربية بدأت فجأة على غاية الكمال، وهذا أغرب ما وقع في تاريخ البشر، فليس لها طفولة ولا شيخوخة. وإنَّ من أغرب المُدْهِشات أن تنبتَ تلك اللغةُ القوميَّة وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمِّة من الرُّحَّل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقِّة معانيها وحسنِ نظامِ مبانيها، ولم يُعرف لها في كلّ أطوار حياتها طفولةً ولا شيخوخةٌ، ولا نكاد نعلمَ من شَأنها إلاّ فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُبارى، ولا نعرف شبيهاً بهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملةً من غير تدرّج، وبقيت محافظةً على كيانها من كلّ شائبة».

ويرى عالِم الاجتماع الفرنسي (**جاك بيرك Jak Burke**)[2] «إن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية، بل العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا، إن الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية، وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً قوياً في بقاء الشعوب العربية».

وقال الكاتب والعالم الاسكتلندي **جون. ج. ميليه John G. Millais** : «إن اللغة العربية لم تتراجع عن أرض دخلتها لتأثيرها الناشئ من كونها لغة دين ولغة مدنية، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها المبشِّرون، ولمكانة الحضارة التي جاءت بها

(1) مجلة (**اللسان العربي**) 24 /85

(2) **الفصحى لغة القرآن**، مرجع سابق.

الشعوب النصرانية لم يخرج أحد من الإسلام إلى النصرانية، ولمْ تبقَ لغة أوربية واحدة لم يصلها شيء من اللسان العربي المبين، حتى اللغة اللاتينية الأم الكبرى، فقد صارت وعاءً لنقل المفردات العربية إلى بناتها».

وفي كتابه «**دراسات في اللغة واللهجات والأساليب**» يؤكد المستشرق الألماني **يوهان فك Johann Fuck** : «إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسياً لهذه الحقيقة الثابتة، وهي أنها قد قامت في جميع البلدان العربية والإسلامية رمزاً لغوياً لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية، لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل؛ فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية»[1].

وقال **غوستاف جرونيباوم Gustave E. Grunebaum** : «عندما أوحى الله رسالته إلى رسوله «محمَّد» أنزلها «قرآناً عربياً»، وما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية في شرفها، فهي الوسيلة التي اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية، وليست منزلتها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله في سائر اللغات من قوة وبيان، أمَّا السعة فالأمر فيها واضح، ومن يتّبع جميع اللغات لا يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية، ويُضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشة في المترادفات.

وتزيّن دقة التعبير لغة العرب، وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من اليسر في استعمال المجاز، وإن ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيراً فوق كل لغة بشرية أخرى. وللغة خصائص جمّة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف له نظائر في أي لغة أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها، يبيّن ذلك أن الصورة العربية لأيّ مثل أجنبيّ أقصر في جميع الحالات، وقد قال الخفاجي عن أبي داود المطران ـ وهو عارف باللغتين العربية والسريانية- أنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبُحت وخسّت، وإذا نُقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي ازداد طلاوةً وحسناً، وإن الفارابي على حقّ حين يبرّر مدحه العربية بأنها من كلام أهل الجنّة، وهو المنزّه بين الألسنة من كل نقيصة، والمعلّى من كل خسيسة ، ولسان العرب أوسط الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً»[2].

---

(1) **العربية لغة الوحي والوحدة**، مرجع سابق.

(2) (المرجع السابق).

ومن جانبه؛ يقول المستشرق الألماني **أوجست فيشر August Fischer** : «وإذا استثنينا الصين؛ فلا يوجد شعبٌ آخر يحقّ له الفَخارُ بوفرةِ كتبِ علومِ لغتِه، وبشعورِه المبكرِ بحاجته إلى تنسيقِ مفرداتها، بحَسْبِ أصولٍ وقواعدَ غيرَ العربِ»[1].

ويرى المستشرق **ألفريد غيوم Alfred Guillaume** : أنه «يسهل على المرء، أن يدركَ مدى استيعابِ اللغةِ العربيةِ واتساعها للتعبير عن جميع المصطلحات العلمية للعالم القديم بكل يسرٍ وسهولة، بوجود التعدد في تغيير دلالة استعمال الفعل والاسم».

ويضرب لذلك مثلاً واضحاً يشرح به وجهة نظره، فيقول: «إن الجذر الثلاثي باشتقاقاته البالغة الألفَ عَدًّا، وكلٌ منها متَّسق اتساقا صوتياً مع شبيهه، مشكّلا من أيّ جذر آخر، يصدر إيقاعاً طبيعياً لا سبيل إلى أن تخطئه الأذن، فنحن (الإنجليز) عندما ننطق بفكرةٍ مجرّدة لا نفكر بالمعنى الأصلي للكلمة التي استخدمناها، فكلمة (Association) مثلاً تبدو منقطعة الصلة بـ (Socins) وهي الأصل، ولا بلفظة (**Ad**)، ومن اجتماعهما تتألف لفظة (Association) كما هو واضح وتختفي الدالّة مدغمة لسهولة النطق، ولكن أصل الكلمة بالعربية لا يمكن أن يَسْتَسِرّ ويَسْتَدِقّ على المرء عند تجريد الكلمة المزيدة حتى يضيع تماماً، فوجود الأصل يظلّ بَيَّنا محسوساً على الدوام، وما يعدّ في الإنجليزية محسِّنات بديعيةً لا طائل تحتها، هو بلاغةٌ غريزيةٌ عند العربي».[2]

ويجزم المستشرق الألماني (**تيودور نولدكه Noldake**) : «بأنَّ اللغة العربية لم تَصِرْ حقًّا عالميةً إلاَّ بسبب القرآن والإسلام، وقد وضع أمامنا علماءُ اللغة العرب باجتهادهم أبنيةَ اللغة الكلاسيكية، وكذلك مفرداتها في حالة كمالٍ تامٍّ، وأنه لابدّ أن يزداد تعجب المرء من وفرة مفردات اللغة العربية، عندما يعرف أن علاقات المعيشة لدى العرب بسيطةٌ جداً، ولكنهم في داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدقيق في المعنى بكلمةٍ خاصّةٍ، والعربية الكلاسيكية ليست غنيَّة فقط بالمفردات، ولكنها غنيةٌ أيضاً بالصيغ النحوية، وتهتمّ العربية بربط الجمل ببعضها. وهكذا أصبحت اللغة (البدويّة) لغةً للدِّين والمنتديات وشؤون الحياة الرفيعة، وفي شوارع المدينة، ثم أصبحت لغةَ المعاملات والعلوم، وإن كلَّ مؤمنٍ غالباً جداً ما يتلو يومياً في الصلاة بعض أجزاء من القرآن، ومعظم المسلمين يفهمون بالطبع بعض ما يتلون أو يسمعون، وهكذا كان

---

(1) مقدمة (**المعجم اللغوي التاريخي**)، أوغست فيشر.

(2) مجلة (**المورد**)، المجلد 5 العدد2 «مقدمة مدّ القاموس– إدوارد لين –ترجمة عبد الوهاب الأمير»، بغداد.

لابدّ أن يكون لهذا الكتاب من التأثير على لغة المنطقة المتّسعة ما لم يكن لأيّ كتابٍ سواه في العالم، وكذلك يقابل لغة الدين ولغة العلماء والرجل العادي بكثرة، ويؤدِّي إلى تغيير كثير من الكلمات والتعابير في اللغة الشعبية إلى الصحّة».[1]

وتتساءل المستشرقة الألمانية (**زيجريد هونكهSigrid Hunke**) في كتابها «**شمس العرب تسطع على الغرب**» : «كيف يستطيع الإنسان أن يُقاوم جمالَ العربية ومنطقَها السليم وسحرَها الفريد؟. فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صرعى سحر تلك اللغة، فلقد اندفع الناس الذين بقوا على دينهم في هذا التيار يتكلمون العربية بشغفٍ، حتى إن اللغة القبطية مثلاً ماتت تماماً، بلْ إن اللغة الآرامية لغة السيد المسيح قدٍ تخلّت إلى الأبد عن مركزها لتحتلّ مكانها لغة محمَّـد».

ويعترف المستشرق الألماني الفذ «**كارل بروكلمان KarlBrockelmann**» بأنَّ «العربية بلغت بفضل القرآن من الاتساع مدىً لا تكاد تعرفه أيُّ لغةٍ أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأنَّ العربية وحدها اللسان الذي أُحِلّ لهم أن يستعملوه في صلاتهم ...»[2]

وذهب عالِم اللغويات البلجيكي **جورج سارتون George Sarton** إلى أنَّ «وهبَ اللهُ اللغة العربية مرونةً جعلتها قادرةً على أن تدوّن الوحي أحسن تدوين؛ بجميع دقائق معانيه ولغاته، وأن تعبِّر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة، وإنَّ العربية أسهل لغات العالم وأوضحها، فمن العبث إجهاد النفس في ابتكار طريقة جديدة لتسهيل السهل وتوضيح الواضح، فإذا فتحت أيّ خطاب، فلن تجد صعوبة في قراءة أردأ خط به، وهذه هي طبيعة الكتابة العربية التي تتسم بالسهولة والوضوح»[3].

بينما المستشرق الألماني **فريتاغ Freitagb** [4] يرى "أنَّ اللغة العربية ليست أغنى لغات العالم فحسب، بلْ إن الذين نبغوا في التأليف بها لا يكاد يأتي عليهم العد، وإنّ اختلافنا عنهم في الزمان والسجايا والأخلاق، أقام بيننا وبين العربية وبين ما ألَّفوه حجاباً لا يتبين ما وراءه إلاَّ بصعوبة".

---

(1) **اللغة العربية** – نذير حمدان.

(2) **من قضايا اللغة العربية المعاصرة**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

(3) المصدر السابق.

(4)

بلْ إنَّ المستشرق اليهودي **Margoliouth مرجليوث** (1858-1940) يذهب إلى أبعد من ذلك، فيقول: «إنَّ اللغة العربية لا تزال حية حياة حقيقية، وإنها إحدى ثلاث لغات استولت على مكان المعمورة استيلاء لم يحصل عليه غيرها (الإنجليزية والأسبانية) وهي تخالف أختيها بأن زمان حدوثها معروف، بينما هما لا يزيد سنهما على قرون معدودة، أمَّا اللغة العربية فابتداؤها أقدم من كل تاريخ».

ليس هذا فحسب؛ بلْ إنَّ العالم اللغوي والمفكر اليهودي **أفرام نعوم تشومسكي Afram Noam Chomsky** ـ ابن معلم اللغة العبرية، وأحد خريجي جامعة بنسلفانيا، والأستاذ بمعهد ماساشوست ـ أقرّ بمكانة العربية، وقد تزعّم الدراسات اللغوية المعاصرة وكوَّن نظرية جديدةً قلبت الفكر اللغوي رأساً على عقب، أصدر كتابه الأول في التراكيب النحوية **Syntactic Structure** في سنة 1957م، نقد فيه مدرسة علم اللغة الوصفي **Descriptive Linguistics** التي كانت سائدةً في الغرب حتى عهدٍ قريبٍ، وقد ميّز بين بنيتين في الجملة، هما البنية العميقة والتركيب السطحي، وأوضح أن البنية الأولى هي أساس الثانية.

وقد نوّه تشومسكي في معرض ردِّه على استفسار وُجّه إليه في سنة 1989م بأن تأثيراتِ النحو العربي كبيرةٌ على نظريته في دراسة اللغة، وأنه قرأ كتاب سيبويه كمرجعٍ له.[1]

وقال الباحث اللغوي الفرنسي **وليم مرسيه William Marçais**: "العبارة العربية كالعود إذا نقرت على أحد أوتاره رنت لديك جميع الأوتار وخفقت، ثم تحرِّك اللغة في أعماق النفس من وراء حدود المعنى المباشر موكباً من العواطف والصور".

ويبدي المستشرق الإسباني **فيلا سبازا Ibiza villas** - إعجابه واستياءه في وقت واحد، قائلاً: "اللغة العربية من أغنى لغات العالم، بلْ هي أرقى من لغات أوروبا؛ لأنها تتضمن كل أدوات التعبير في أصولها، في حين الفرنسية والإنجليزية والإيطالية وسواها قد تحدرت من لغات ميتة، وإني لأعجب لفئة كثيرة من أبناء الشرق العربي يتظاهر أفرادها بتفهم الثقافات الغربية، ويخدعون أنفسهم ليقال عنهم أنهم متمدنون.

ويكشف المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس ـ عن أثر العربية في غيرها من اللغات من ناحية، وتفوقها على لغات أخرى كالألمانية، فيقول : «إنّ في الإسلام

(1) **فن الترجمة وعلوم العربية**– إبراهيم بدوي الجيلاني.

سنداً هامًّا للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينية حيث انزوت تماماً بين جدرانِ المعابد. ولقد كان للإسلام قوة تحويل كبيرة أثرت في الشعوب، التي اعتنقته حديثاً، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافاً من الكلمات العربية ازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوةً ونماءً. والعنصر الثاني الذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تُبارى، فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع أن يفهم كلمةً واحدةً من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام»[1].

وفي مقارنة عملية بين العربية واللاتينية، ومدى الهوَّة السحيقة بينهما من حيث التدوين والفهم، يقول مؤسس قسم اللغات الشرقية بجامعة استنبول: «إن اللغة العربية أسهل لغات العالم وأوضحها، فمن العبث إجهاد النفس في ابتكار طريقة جديدةٍ لتسهيل السهل وتوضيح الواضح، إن الطلبة قبل الانقلاب الأخير في تركيا ـ يقصدُ الذي أحدثه أتاتورك باستبدال اللاتينية بالحروف العربية ـ كانوا يكتبون ما أمليه عليهم من المحاضرات بالحروف العربية وبالسرعة التي اعتادوا عليها -لأنَّ الكتابة العربية مختزلةٌ من نفسها ـ أمَّا اليوم، فإنَّ الطلبة يكتبون ما أمليه عليهم بالحروف اللاتينية، ولذلك لا يفتأون يسألون أن أعيد عليهم العبارات مراراً، وهم معذورون في ذلك، لأن الكتابة الإفرنجية معقَّدة، بينما الكتابة العربية واضحةٌ كلّ الوضوح، فإذا ما فتحتَ أيّ خطابٍ فلن تجدَ صعوبةً في قراءةِ أردأ خطٍّ به، وهذه هي طبيعة الكتابة العربية التي تتسم بالسهولة والوضوح»[2].

كما شهد العالِم اللغوي **«ماريو بِلْ»** مؤلف كتاب (**قصة اللغات The Story of Language**) بأنَّ العربية هي اللغة العالمية في حضارات العصور الوسطى، وكانت رافداً عظيماً للإنجليزية في نهضتها، وقد أورد قاموس **Littre** قوائم بما اقتبسته هذه اللغات من مفرداتٍ عربيةٍ، وكانت أولها الإسبانية ثم الفرنسية والإيطالية واليونانية والمجرية، وكذلك الأرمينية والروسية وغيرها، ومجموعها 27 لغة، وتقدر المفردات بالآلاف».[3]

(1) **المؤامرة على الفصحى** (سابق).

(2) **فنّ الترجمة وعلوم العربية** (مرجع سابق).

(3) **الفصحى لغة القرآن** (سابق).

وفي كتابه (**العرب في التاريخ**) يعترف المفكر اليهودي المعاصر **برنارد لويس Bernard Lewis** : "أن موجات الفتح الكبرى التي تلت وفاة النبيّ محمَّد ﷺ، وإقامة الخلافة على رأس الأمة الإسلامية الناشئة؛ قد سطرت بحروف عريضة كلمة (عرب) على خريطة القارات الثلاث : (آسيا وإفريقيا وأوروبا) وجعلت منها عنواناً لفصلٍ حاسم، في تاريخ الفكر والأدب والأعمال البشرية".

نكتفي بهذا القدر من شهادات الغربيين على عبقرية (لغـة الضـاد).

ولو أردنا المزيد؛ لأثقلنا سبعين بعيراً. لكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

ويظل السـؤال قائماً: هل يجرؤ خصوم العربية أن يتهموا هؤلاء ـ الذين نقلنا شهاداتهم ـ بأنهم متعصبون لأسلافهم ومواريثهم؟.

«اللغة» توقيف أمْ اصطلاح؟

لعلَّ التفكير في نشأة الإنسان؛ كان وراء التفكير في نشأة اللغة، عِلماً بأن **الإغريـق**[1] هم أول من تعرض لفلسفة اللغة. أمَّا **الهنـود** فسبقوهم في التوصل إلى تبويب وافٍ لأجزاء الكلام في لغتهم.

لقد تباينت آراء العلماء والفلاسفة حول نشأة اللغة وتطورها، وهل هي توقيف وإلهام، أمْ مواضعة واصطلاح؟.

حول هذه القضية المتجددة؛ نبسط كلا الرأييْن؛ الفريق القائل : بأنها توقيف، والفريق القائل : بأنها اصطلاح، لنرى أيّ الفريقيْن أبلغ حجة، وأقوم قيلا؟.

(الفريـق الأول) يجزم بأن اللغة توقيفية، ولا داعي للبحث أوْ المناقشة في ذلك، ويقولون: لا حجة برأي القائلين بغير ذلك، مهما كانت عدتهم وعتادهم.

المصريون القدماء؛ اعتبروا اللغة منحة من السماء من الإله (توت) إله الحكمة. وأن الإنسان كان مجرد مستقبِل لهذه المنحة.

وعند **اليوناني هرقليطس؛** أنَّ "اللغة إلهامٌ هابط من السماء أيضاً، وعِلم الأسماء يؤدي إلى علم الأشياء؛ لأننا حين نعرف حقيقة الاسم، نعرف بالضرورة حقيقة المسمَّى".

لكن تراوح رأيْ **أفلاطون** بين الرأييْن، ففي الوقت الذي يرفض أن تكون الأسماء وليدة الاصطلاح، يقول: "إنَّ الأمر إذا كان أمر توقيف من قوة عليا، فكيف يكون هناك تفسير للخطأ، فبعض الأسماء يشير إلى الضديْن، فهل من المعقول أن ننسب الخطأ إلى هذه القوة؟.

وفي **المسيحية** وقف رجال الكنيسة إلى جانب التوقيف، **فالقديس يوحنا** افتتح إنجيله بعبارة "في البدء كان الكلمة".

---

(1) **أهمية تعلم العربية** (سابق).

كما جاء في **سِفر التكوين**: "أن الربَّ أحضر الكائنات إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفسٍ حية فهو اسمها، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم، وطيور السماء، وجميع حيوانات البرِية".

أمَّا **القديس غرغريوس**؛ فموقفه يشبه موقف أفلاطون؛ لأنه تعامل مع التوقيف والاصطلاح، حين أكدَّ أن الله تعالى إذا كان قد أعطى مَلَكَة بناء البيت؛ فإنَّ الذي بناه هو نحن".

وفي (**الإسلام**) نرى الكثرة وراء القول بالتوقيف اعتماداً على قول الله تعالى ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَعِلْمَ لَنَا إِلاَّمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِم** ﴾ [البقرة 31 :33].

بالإضافة، إلى قوله سبحانه : ﴿ **ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم..** ﴾.

وأولِ إشارة إلى ذلك؛ ما جاء في تفسير سورة البقرة على لسان ابن عباس، إذْ قال: "وعلَّمه الأسماءَ التي يتعارفها الناسُ من دابةٍ وأرضٍ وسهلٍ وجبلٍ وحمار، وأشباه ذلك من الأمم".

وتأكيداً لذلك؛ قال **ابن فارس** في كتابه (**فقه اللغة**) : إن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ أيْ الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرضٍ وجبلٍ وسهل وأشباه ذلك. ويوضح ابن فارس معنى أن اللغة توقيف بقوله : "وليس معنىً ذلك أن اللغة كلها جاءت جملة واحدة، وإنما المعنى أن الله علم آدم ما شاء، ثم علّم بني آدم بعده ما شاء أيضاً حتى انتهى الأمر إلى نبيِّناﷺ، فآتاه الله ما لم يؤت أحداً من قبله".

وقد علَّق الإمام **الباقلاني** في كتاب "**التمهيد**" على هذه القضية، فقال: "فلو كان العباد يخلقون كلامهم وحركاتهم وسكناتهم وإرادتهم وعلومهم .. لكانوا قد خلقوا كخلقه، وصنعوا كصنعته، ولتشابهَ على الخَلْقِ خلقه وخلقهم".

وجرى في هذا المضمار كثيرون منهم : **ابن حزم الظاهري** في كتاب "**الإحكام في أصول الأحكام**" فقد ربط قضية اللغة بقضية البرهان على وجود الله؛ باعتباره معلِّمَ كل شيء، فلو كان الكلام اصطلاحاً لمَا كان يمكن أن يقوم به إلاَّ جماعة كاملة الأذهان،

متدربة العقول، تامة العلوم، وبالضرورة نعلم أن بين أول وجود الإنسان وبين بلوغه هذه الصفة سنين كثيرة جداً".

وقد روى **الأصمعي** عن **أبي عمرو بن العلاء** أنه يذكر أن قدماء العرب تسع قبائل قديمة: (طسم، وجديس، وجهينة، وخثع، والعماليق، وقحطان، وجرهم، وثمود) وهؤلاء قدماء العرب الذين فتق اللهُ ألسنتهم بهذه اللغة العربية، وكان أبناؤهم عرباً، وهم: هود، وصالح، وشعيب. والعرب المستعرِبة أولاد إسماعيل، سُمُّوا المستعرِبة؛ لأنهم أخذوا اللغة عن العرب العاربة، وتعلموها عنهم، فالقول أن هؤلاء القدامى قد فتق الله ألسنتهم بهذه اللغة، والقول بأبوة إسماعيل للعرب، وأنه أول من تكلم العربية؛ يؤكد بـ(توقيف اللغة).

كذلك؛ يرى **أبو عمرو بن العلاء** أن العربية وِلدتْ كاملة، وليس لنا أن نخترع، أو نقيس، أو نخرج على ما قيل، لأن في ذلك فساد اللغة، ولكنه في الوقت نفسه يشير إلى تطور اللغة.

ويقرن (**إخوان الصفا**) فكرة الإلهام بالتأييد الرباني الذي يتجسد في إعمال الفكرة، وإنتاج القريحة، ووجوب الرويَّة.

والملاحظ أنَّ **السكَّاكي** في "**مفتاح العلوم**"، والخفاجي في "**سر الفصاحة**"، والغزالي في "**المستصفى**" لا يذهبون بعيداً عن هذا.

وفي كتابه "**ميزان الحروف**" يرى **جابر بن حيان** "أنَّ اللغة تنبثق عن النفس، في ضوء الصلة التي تكون بين طبيعة اللغة وبين طبيعة الجسد، والتي تشبه في الوقت نفسه الصلة بين الوتر والنغم".

وبصفة عامة؛ فالأسماء لا تستغرق العموم المطلق للغات جميعاً، كما لا تستغرق مخزون اللغة الواحدة، وإنما تعني ما يسدّ حاجة الإنسان إلى الكلام في لحظة استعمال اللغة.

ويؤكد الدكتور **عبد الصبور شاهين** على أنَّ "اللغة أولاً وآخراً؛ هي خلقٌ من خلق الله ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** ﴾ [الروم : 22]. فاللغة تعبير مدهش عن قدرة الله تعالى التي لا تتماهى، فنواة اللغة هي: صوت الإنسان، وأعضاؤه النطقية، والصوت مساحته محدودة، وإمكانات النطق محدودة أيضاً، فهي تنتج عدداً معيناً من الأصوات نعبّر عنه بالحروف الهجائية،

وهي في اللغة العربية تسعة وعشرون حرفاً (رمزاً مكتوباً)، وإنْ كان واقع النطق ينتج في العربية ما يزيد على أربعين صوتاً، وهذا العدد يقل في اللغة الانجليزية والفرنسية التي لا تزيد أبجديتها الكتابية على ستة وعشرين رمزاً كتابياً، وأكثر أصواتهما مشترك بين لغات أوربية كثيرة، إلى جانب أن أكثر هذه الأصوات موجود في الأبجدية العربية".[1]

ويرى **عبد السلام المسدِّي** في كتاب **"التفكير اللساني في الحضارة العربية"** أن القدامى قد احتاطوا حين ركّزوا على أن التوقيف وقع على لغة واحدة في أول الأمر، ثم كان التوقيف بعد الطوفان في أولاد نوح حين تفرقوا في الأرض.

من جانبه؛ قال الشيخ **محمد متولي الشعراوي** : "إنَّ اللسان الذي نتكلم به لا يرتبط بالجنسية، لأنَّ اللغة ابنة المحاكاة".

وإذا كان **عبده بدوي** يرى أن "جماع الأمر؛ أنَّ اللغات ترجع إلى الأنبياء الذين تلقَّوها بوحي". لكنه يؤكد أن الرأي الذي كان سائراً في المسيرة العربية؛ هو الرأي القائل بـ(التوفيق) بين الرأيين، وأنه كان وراء ذلك النص القرآني. فمع إيمانهم بتطور اللغة، كانوا يؤمنون بسماوية النص القرآني، ثم إن اللغة كانت غالبة لغلبة الدِّين، والدِّين إنما يستفاد من الشريعة، وهي بلسان العرب، على حد تعبير ابن خلدون في "المقدمة".[2]

أمَّا (**الفريق الآخر**) القائل بالاصطلاح؛ فيبدو أنَّ له -أيضاً- جذوراً تاريخية، ومرجعية ضاربة في القِدم؛ فمثلاً نجد (**ديمقريطس**) يرى "أن اللغة ظاهرة يتفق عليها البشر، يعني اجتماعية وليست سماوية، فيصطلحون عليها، وتتطور بتطورهم، وعلى هذا؛ فلا يقودنا علم الأسماء إلى علم الأشياء.

وقد ذهب بعض المعتزلة، وبعض اللغويين وبعض الفلاسفة إلى مثل هذا الرأي. فـ**"أبو إسحاق الاسفراييني"** قال: "إن الابتداء وقع بالاصطلاح، وأن التتمة كانت من الله".

و**"أبو هاشم الجُبَّائي"** يرى أن "الإلهام لا يكون إلاَّ بعد التواضع على صيَغ بعينها".

في حين أنَّ **"الفارابي"** وصل في هذه المسألة إلى ما سمّاه "جماعة المُدبِّرين".

---

(1) **العربية لغة العلوم والتقنية** (سابق).

(2) **أهمية تعليم اللغة العربية** (سابق).

وإذا كان "**السيوطي**" كان قد شبَّه قضية الاصطلاح بحال الوالدات مع الأطفال؛ فإنَّ "**ابن خلدون**" ركَّز على ما سمّاه "الملَكة"، ليسوِّغ وجود الفعل وتكراره، حتى يصبح ملَكةً راسخة.

وينتهي آخرون إلى أنَّ اللغة عُومِلتْ من منظور الفكر العربي معاملة الكائن الحي، فهي تعيش وتنمو بحكم سلطان القوى الضاغطة على مجالها الحيوي، وبحكم الأبنية العلوية في حياة الشعوب، كما أنها تخضع لنواميس الحياة، ضعفاً وموتاً، في ضوء مقولة ابن حـزم التي ترى "أن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم، أو باختلاطهم".

أوْ كما يقول ابن الراوندي "إن اللغة من طبيعة الإنسان، ولها نظيرها في أصوات الحيوان، والطفل يتعلم اللغة من أهل بيئته المحيطة به، وتلك عملية لا مبدأ لها".

ولعلَّ هذا السؤال الذي يقول : هل اللغة توقيفٌ وإلهام، أوْ مواضعة واصطلاح"؟، كان وراء إشكالية "خَلْق القرآن" التي قال بها المعتزلة.

فالقول بخلق القرآن ـ وهو كلام ـ يستوجِب القول بأن الأصل في اللغة هو المواضعة والاصطلاح، وبالعكس يقتضي القول بعدم خلق القرآن الميْل إلى أن اللغة توقيف وإلهام، وهؤلاء يمثلهم أهل السنَّة والأشاعرة.

من هنا نرى أن القول بالمواضعة والاصطلاح كان ضارب الجذور في صُلب التفكير العربي. لكن الكثرة الكاثرة من المفكرين الإسلاميين قد لجأوا إلى أسلوب جديد خاص بهم، وهو ما يسمّى بـ(**التوفيـق**) وقد كان وراء الوقوف إلى جانبي ظاهرة التوفيق؛ وجود القرآن الكريم باعتباره نصاً مُوحَى به، وموثَّقاً في الوقت نفسه.

فمثلاً؛ **ابن جِنِّـي** في "**الخصائص**" يقول : (إن أصل اللغة لابدَّ فيه من المواضعة، وذلك بأنْ يضع حكيمان أو ثلاثة لكل واحدٍ من الأشياء سمةً ولفظاً).

كذلك؛ نجد **فخر الدين الرازي** انتهى إلى القول بما يمكن أن يُسمّى (تكافؤ الأدلة).

وقد سار على هذا الطريق **الغزالـي** في "**المستصفى**"، و**الطبري** في "**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**". وحتى القاضي عبد الجبار المعتزلي، بعد أن ألقى على القضية أكثر من ضوء، فقال: "لا يمكن القطع". وهناك من قال "بتجويز الأمريْن"، ومن قال بأنَّ الإنسان أُلهِم أصول المواضعة، ولمْ يُلهَم أصول اللغة نفسها".

وفي العصر الحديث؛ سار التفكير إلى القول بالاصطلاح؛ ابتداءً من القرن التاسع عشر، حين خضع علم اللغة للتأثير الاجتماعي والنفسي والفلسفي والتاريخي.

وفي القرن العشرين؛ ظهر الميل إلى دراسة اللغة على ما هي عليه، حين وقفتْ عند حد وصف المظاهر، فركَّزتْ على الصوت والشكل والتركيب، ومن الذين برزوا في هذا المجال، "مدرسة براغ" التي دعتْ إلى ما يسمَّى بـ"التحالف اللغوي"، بالإضافة إلى دور الماركسيين الذين قالوا : إن اللغة ظاهرة اجتماعية طبقية، ودور الأمريكيين الذين برزت فيهم مفاهيم "إدوار سابير"، و"ليونارد بلومفيلد"، ولا يخفى دور "تشومسكي" الذي ركَّز على الإبداعية اللغوية، و"دوسوسير" الذي قال باستقلالية علم اللغة، ودراسة العناصر والصلات اللغوية، وما بينها من علاقات بمعزل عن أيّ تأثيرات خارجة عنها.

وفي هذا الوقت ما سُمِّيَ **"قحط اللغة"** إزاء المشاعر الإنسانية، فكانت هناك عدة وقفات عند صلة الفكر باللغة، في ضوء ما ركَّز عليه الأدباء من القول بأزمة اللغة، وقصورها إزاء الفكر. وكان لهذا صداه في العالم العربي، كما ظهر في مقولة **جبران خليل جبران** : (لكم لغتكم وليَ لغتي)، وفيما كتبه ميخائيل نعيمة في كتاب **"الغربال"**، فقال : "ولقد كان كل هذا يدور في إطار التعامل مع اللغة كاصطلاح لا توقيف".

ويرى **عبده بدوي؛** أنه كان وراء هذه الآراء والظواهر عوامل كثيرة يجيء في مقدمتها أن التوراة والإنجيل يعتبران توراةً وإنجيلاً في أيّ لغة مترجمة، أمَّا القرآن فلا. والله أعلم.

وظائف اللغـة

من كمال قدرة الله ومشيئته، وعنايته بعباده ورحمته بهم؛ أن قدر اختلاف ألسنتهم لئلاَّ يقع التشابه فيحصل الاضطراب وتفوت المقاصد والمطالب؛ وليكون ذلك آيةً دالةً على ما جعله اللَّهُ فِي غَرِيزَةِ البشَرِ مِن اختِلَاف التفكِير وتنويع التصرف فِي وَضع اللغات، وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ** ﴾ [سورة الروم: 22]

فاللغة رموز صوتية مكتسبةٌ، بها تستطيع الجماعات أن يتفاهموا ويتفاعلوا اجتماعياً وثقافياً، وأن يعبِّروا عن مشاعرهم وأفكارهم وانفعالاتهم المختلفة، وليست اللغة مجرد وعاء لفظي يحلّ فيه الفكر، كما كان يعتقده التصوّر الفلسفي الأفلاطوني القديم؛ وإنما الفكر نشاط ذهني غير مستقل عن اللغة، فالفكر هو الوجود الداخلي للغة، واللغة هي الوجود الخارجي للفكر، فهما وحدتان متماسكتان بشكل يجعل كلا منهما محتوياً للآخر وملازماً له. أوْ بتعبير آخر: الفكر كلام صامت، واللغة تفكير صائت، فلا يمكن إدراك الفكر بمعزل عن اللغة، ولا توجد لغة بدون فكر؛ فهما بمثابة ورقة نقدية، يشكِّل فيها الفكر الوجه، وتشكِّل اللغة الظهر، فمن المستحيل أن يُقْطَعَ وجه الورقة دون أن يُقْطع ظهرها، ولذلك فإنَّ اليونان قد أصابوا عندما أطلقوا لفظة **اللُّوغُوسْ Logos** على اللغة والعقل معاً.

واللغة نافذة مشرعة على تجارب وخبرات الأمة الواحدة، وعلى تجارب وخبرات الأمم الأخرى، فهي التي تحفظ للأمة تراثها الأدبي والديني والعلمي، وفي الوقت ذاته تطلع أبناءها على تراث الأمم الأخرى.

واللغة أداة مهمّة من أدوات التعلّم والتعليم، وعليها يعول في تعليم التلاميذ المواد التعليمية المختلفة في جميع مراحل دراسته.

واللغة أداة من أدوات التفكير، إذْ إن الإنسان يفكر باللغة، ويتمثل ذلك في نتاج ذلك التفكير والذي يكون على صورة تراكيب ملفوظة، أو مكتوبة، وبدونها يعسر على المرء أن يعبّر عن الأفكار أو عما يشاهده أو يحس به، ويعسر عليه حتى التعبير عن الحاجات العادية.

واللغة وسيلة يستطيع المرء بواسطتها أن يعبّر عن عواطفه من فرح وحزن وإعجاب وغضب وغير ذلك، كما يستطيع أن يجد في الآثار الأدبية التي تعالج العواطف الإنسانية ما ينفس به عن مشاعره إنْ لم يكن قادراً على تصويرها أو نقلها بطريقة مؤثرة، وإنِّ أظهر الوظائف التي تؤديها اللغة في حياة الفرد والجماعة، هي: (الوظيفة الاجتماعية، الوظيفة الثقافية، الوظيفة الفكرية، الوظيفة النفسية).

الوظيفة الاجتماعية

وتتمثل في الفهم والإفهام ـ التفاهم ـ وأبرز مظاهرها :

- التعبير عن الآراء المختلفة: السياسية ، الدينية ، الاجتماعية ...الخ.
- التعبير عن الأحاسيس والمشاعر تجاه الآخرين.
- المجاملات الاجتماعية في المواقف المختلفة.
- التعبير عن الحاجات التي يحتاجها الإنسان في حياته الاجتماعية.
- التأثير في عواطف وعقول الجماهير في المواقف والأغراض المختلفة.

الوظيفة الثقافية

- وتتمثل في حفظ التراث الأدبي والديني والعلمي للأمة، ونقله من جيل إلى آخر لتتصل حلقاته وتتم معايشة أبناء الأمة له، والإفادة منه.
- نقل أفكار وتجارب الأمم الأخرى، والاطلاع على آثارهم المختلفة وأنماط تفكيرهم؛ قصد الاستفادة منها.
- كون اللغة وسيلة تعلم وتعليم، يتمكن الدارس عن طريقها من تعلم مواد الدراسة المختلفة، وبها يستطيع المدرسون تعليم الطلبة هذه المواد في مختلف مراحل الدراسة.
- تمرين المرء على أن يتعلم كل جديد لم يخطر في مراحل الدراسة التي مرَّ بها، وأن يتزود بمنابع الثقافة والمعرفة ويتصل بالعالم من حوله.

الوظيفة الفكرية

وتتمثل في الصلة الوثيقة بين اللغة والتفكير، ومن أمثلة ذلك :

- قدرة المرء على تعليل أمر يطرح عليه، ومكونات التعليل صورة ذهنية ترتب على شكل ألفاظ وتراكيب تبدو مقنعة.

- قدرته على نقض فكرة معينة، مع بيان أسباب هذا النقض، وما يرافق ذلك من مواكبة الألفاظ للأفكار التي تخرج على شكل لغة.
- القدرة على تسلسل الأفكار والتي ترتبط فيها صور الأفكار الذهنية بالمفردات والتراكيب وتترجم في النهاية بهذه المفردات والتراكيب.

الوظيفة النفسية

تعدّ اللغة وسيلة من وسائل تصوير المشاعر الإنسانية والعواطف البشرية التي لا تتغير بتغير الأزمان؛ فالحب والسرور ونشوة النصر والحزن والشعور بالظلم؛ مشاعر تلازم الإنسان منذ بدء الخليقة، وهي مستمرة ما استمرت حياة على الأرض.

وعن طريق اللغة استطاعت الآثار الأدبية الإنسانية أن تنتقل من جيل إلى آخر، وأن تنمو نمواً مستمراً بما يضيفه الأدباء إليها في العصور اللاحقة من لوحات إنسانية خالدة. وهذه الآثار تمثل صوامع شعور وهياكل تطهير يلجأ إليها كل ذوي الإحساس والشعور، وفي أفنائها وأروقتها يطلقون العنان لهذه المشاعر المشابهة فيفرغون شحناتهم السالبة، حيث عجزوا عن أن يعبِّروا عنها بالطريقة التي عبَّر بها هؤلاء الأدباء -إذْ لا يعقل أن يكون كل إنسان أديباً- مما يشعرهم بالعزاء والسلوان.

وهكذا تتمثل الوظيفة النفسية للغة؛ في قدرتها على الوفاء بالتعبير الدقيق والحي عن الحاجات النفسية والشعورية، فتسعف من يقدر على التعبير عنها بالصور والتراكيب، بحيث يضيف إلى هذه الآثار الجميلة آثاراً لا تقل عنها روعة في دقة تصويرها وصدقها وتأثيرها، فتظل اللغة نبعاً ثراً لعرض العواطف والأحاسيس الإنسانية وتفريغها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في جميع العصور.

وإنْ كانت اللغة بالنسبة لأيّ أمَّة هي أداة تَواصُل، وطريقة تفكير، ورمزُ عزةٍ، وكل ما ذكرناه آنفاً؛ فإن (العربيَّـة) هي بالنسبة للعرب كلُّ هذا، وتَزِيد عليه أنها لغةُ دين وكتاب مُوحى به، وهي لغة عبادات وشعائر، فهي لغةٌ مُقدَّسَة، مأجورٌ مَن يتعلَّمها، مُثابٌ مَن يعلِّمها، ثم هي لغةٌ محفوظةٌ بحفظ الله للكتاب الذي نزل بها. وذكِّر فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين.

المجامع اللغوية

في هذا العصر؛ أصيبَ العربُ بالخوف على لغتهم، فتسابقوا في إنشاء **«المجامع اللغوية»** مثل: (مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مجمع اللغة العربية بدمشق، المجمع العلمي العراقي، المجمع العلمي اللبناني، مجمع اللغة العربية الأردني، مجمع اللغة العربية في حيفا، مجمع اللغة العربية السوداني، مجمع اللغة العربية الليبي، المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، أكاديمية المملكة المغربية، مؤسسة بيت الحكمة في تونس).

وقد انحصرت أهداف هذه المجامع اللغوية، فيما يلي :

- إغناء اللغة العربية، بجعلها مواكبة لمتطلبات العصر.
- توحيد المصطلحات العلمية وألفاظ الحضارة.
- تشجيع الترجمة والتعريب؛ لزيادة ثروة اللغة العربية وتنمية طاقاتها التعبيرية.
- وضع المعاجم التي تواجه حاجات العصر.
- تيسير قواعد تعليم العربية، سواء من ناحية النحو أو الصرف أو الكتابة.
- إحياء التراث، وتحقيق أمهات الكتب العربية القديمة في شتى المجالات.

ما هي «المجامع اللغوية»؟

إنها عبارة عن مؤسسات علمية بحثية، تعنى بالمصطلح، وشؤون التعريب في جميع مجالات المعرفة الإنسانية. وقد حاول البعض تقصِّي جذور المجامع اللغوية ونشأتها، فرجعوا بها إلى المجامع العلمية في المشرق القديم. وذهب آخرون إلى مجالس سقراط وأفلاطون المعروفة باسم **«أكاديموس»** نسبة إلى البطل الأسطوري اليوناني الذي كان يعدّ حامي أثينا. وتعكس تلك المجالس القديمة والمجامع العلمية، مظاهر العناية التي توليها الشعوب لنقل العلوم والمعارف والحضارات إلى لغاتها؛ لتحقيق النهضة، وتشجيع الإبداع والتأليف.

ولعلّ الأقرب إلى الواقع؛ أن ننظر إلى ما حصل بالنسبة للعرب -في صدر الإسلام- حين خرجوا من جزيرتهم لنشر الدعوة الإسلامية، فنشأت عن ذلك أوضاع جديدة أمام العربية، وكان عليها أن تواجه منذ عهدٍ مبكر، قضايا متعددة، سواء فيما يتصل بتعريب

مؤسسات الدولة، أو نقل العلوم والمعارف، أو حتى تعليم العربية نفسها. ويمكن اعتبار المحاولات الأولى لإقامة مؤسسات تواجه هذه المتطلبات الجديدة، أقدم نواة لمجامعنا اللغوية. وأقدم هذه المؤسسات: لجنة الترجمة التي أنشأها خالد بن يزيد (85 هـ) في دمشق، وذلك لترجمة الكتب الكيميائية ونحوها من اليونانية إلى العربية.

وقد لاقت فكرة تلك المؤسسة رواجًا في العهود الإسلامية اللاحقة، فإذا بالخلفاء يولون الترجمة عناية فائقة، مثلما فعل الخليفة العباسي المنصور، وهارون الرشيد الذي وضع أسس (بيت الحكمة) الذي يمثل أول مجمع للغة العربية وفق المفهوم المعاصر للمجامع اللغوية. تلك المؤسسة التي وصلت إلى ذروتها في عصر المأمون.

وقد أدى احتكاك العربية بلغات وحضارات العالم الحديث، خاصة الإنجليزية والفرنسية والألمانية، إلى ظهور المجامع اللغوية المعاصرة، رغبة في نقل العلوم والمعارف الغربية إلى الشعوب العربية، وبغية الحفاظ على العربية من أيّ شوائب تشوِّه ملامحها أوْ تغيِّر قواعدها.

أجل. لقد تبين للمجامع اللغوية والعلمية في وقت مبكر، أن الحاجة ماسة لوضع مصطلحات للعلوم تحقق ما تتطلبه الدراسات الحديثة في النواحي العلمية، وما تتطلبه حاجة الدارسين والباحثين العرب كذلك، وقد كانت اجتماعات تلك المجامع ومؤتمراتها ومجلاتها وبحوثها العلمية، توجه اهتماماً خاصاً لموضوع التعريب، وصدر عنها العديد من المعاجم التي احتوت عشرات الآلاف من المصطلحات العلمية الجديدة، كما أوصت بنشر عدد من المعاجم الاصطلاحية التي وضعها أفراد أوْ هيئات أخرى.

وقد كانت منهجية المجامع في وضع المصطلحات، مبنية على قواعد منهجية علماء العربية القدماء، فقد أجمعت عند وضع المصطلح العلمي؛ على ضرورة إحياء القديم قبل التعجيل بابتكار الجديد، وعلى ضرورة اللجوء إلى اللغة العربية في مصادرها المختلفة قبل اللجوء إلى تعريب المصطلح الأجنبي. لكن هذه المجامع على الرغم من الأعمال الكبيرة التي قامت بها في مجال المصطلحات العلمية، إلاَّ أنها لم تستطع أن تقوم بدور فاعل في إشاعة المصطلح وتوحيده على نطاق الأقطار العربية.

وإنَّ الجهد الذي تقوم به المجامع اللغوية والعلمية في وضع المصطلحات وتعريبها، سيؤول إلى الضياع إذا ظلت هذه المصطلحات حبيسة الأوراق والمجلدات دون أن تتداولها الألسن والأقلام، بلْ حتى لو نقلت تلك الجهود إلى معاجم منظمة، فإنَّ الحال ستظل كما هي، ما لمْ توجد وسائل لترويج تلك المصطلحات وشيوعها.

ولعلَّ أهم عوامل شيوع المصطلح العلمي ورواجه؛ أن يكون قد روعيَ في وضعه مواصفات المصطلح الجيد، من حيث الدقة والوضوح والسهولة والواقعية، وأن تكون المصطلحات المتعددة المتضاربة قد وحدت، أوْ حصرت أفضل اختياراتها.

وقد صدر انتقاد من إحدى المنظمات العلمية نحو أداء **«مجامع اللغة العربية»**، جاء فيه : «إن هذه المجامع تهتم بالأمور اللغوية البحتة، وبعيدة عن الواقع الراهن والمستقبلي والثقافي، وكذلك العلمي. لذا فإنَّ وضع المصطلحات من قِبل هذه المجامع غالباً ما يأتي متأخراً، في حين أن مستخدمي المصطلحات يحتاجون إليها بسرعة لا تسمح بالانتظار الطويل، وذلك بسبب تسارع التقدم العلمي، ومن ثمَّ زيادة المفاهيم والمصطلحات المتأتية عنها».

«كما أن هذه المجامع تتسم بطابع الإقليمية وكذلك المصطلحات الصادرة عنها. وإن التنسيق فيما بين هذه المجامع ضعيف، على الرغم من وجود (اتحاد المجامع اللغوية)، وكذلك نجد أن ما يصدر عنها، ويقر بطرق علمية سليمة، ضعيفاً إلى حد ما».

ومع أنها تحاول تحقيق نشر المصطلحات وتوحيدها بالوسائل المختلفة كالترجمة والتعريب والاجتهاد أحياناً، فإنها لم تستطع عملياً إغناء اللغة بالمصطلحات الملائمة».

على صعيد آخر؛ يمكن القول -بدون مواربة-: إن الجهود العظيمة التي قام بها علماء اللغة، بصرفها، ونحوها، وفقهها، وما قام به علماء أصول الفقه، من البحث في دلالات الألفاظ، وما قام به علماء الإعجاز والمفردات القرآنية، لحراسة اللغة وحمايتها، والمحافظة على معهود العرب، وحماية النص الإلهي من التحريف والتأويل الفاسد، هذه الجهود يمكن أن تعدّ ثمرة لخلود اللغة، وحفظها بحفظ الذكر الْمُنَزل من الله بها، إذْ لا يمكن أن يتحقق حفظ النص الذي تعهد الله بحفظه، ويُحمى من التحريف والتأويل، بدون حفظ لغته.

لكن المشكلة؛ أنَّ هذا الحفظ بكل مدلولاته الشكلية، والموضوعية، سوف ينتهي إلى الجمود والتجميد، إذا توقف عن الإنتاج الحضاري والتقني، والإبداع العلمي، في ضوء المرجعية الشرعية واللغوية، ذلك أن علوم اللغة جميعاً هي من علوم الآلة، أوْ من علوم الوسائل، التي يبذل فيها الجهد لتحقيق المقاصد والأهداف .. وكم ستكون المشكلة صعبة، ومعقدة، من الناحية الفكرية والثقافية، إذا انقلبت الوسائل إلى أهداف، وتعطلت الآلة عن التشغيل، ودخلت الجهود اللغوية مرحلة التكرار، والشرح، وشرح الشرح، والاختصار، واختصار الاختصار،

والاجترار، وغياب استخدام اللغة للإبداع والإنتاج العلمي، والتقني، والحضاري. وإذا كان ما تقوم به المجامع اللغوية، من إصدار معاجم حديثة نسبياً بما تتضمنه من مصطلحات منحوتة، حديثة، ومعربة، وإصدار بعض المطبوعات التراثية الجديدة والمحققة، وما توصي به سنوياً من ضرورة الاهتمام بتعريب التعليم، وتعريب العلوم، فإنَّ ذلك يعني فقط حماية اللغة، والمحافظة عليها، لكن يبقى الأمر الأهم: المحافظة على حياة اللغة، واستمرارها، وتجاوز مسألة الحفاظ على المفردات في التعبير عن المعاني والمدلولات العلمية والتكنولوجية الجديدة، وعدم الاقتصار على حمايتها، من الأمور الأساس في البناء الفكري والحضاري للأمة. لكن تصبح عملية الحفاظ هذه مشكلة، إذا توقفنا عند حدودها، ولم نتجاوزها إلى تذليل وتطوير عملية تعليم اللغة، والإفادة من التقنيات الحديثة والمعملية في تعليم اللغات، وتقديم الإبداع العلمي والثقافي والحضاري، وتقديم المعالجات الناجعة للمشكلات الإنسانية، التي تغري الآخرين بتعلم اللغة العربية.

ونقول ـ مع شديد الأسف ـ : إنَّ الكتاب العربي اليوم، بما يقدم من التكرار، والتقليد، والإعادة، وغياب الإبداع والابتكار، لا يغري بتعلم العربية. فما قيمة أن نتكلم عن قدرة العربية، ونفكر ـ في الوقت نفسه ـ بعقول غيرنا، ونعبّر بلسان غيرنا؟.

لقد انتهى العربي اليوم للجوء إلى تعلم اللغات الأخرى، للاطلاع على ما وصلت إليه الحضارة من الإبداع والإنجاز ـ الذي أصبحت معرفته ضرورة عصرية ـ وذلك بسبب التخاذل اللغوي الذي يعيشه، وتوقف لغته عن الاستمرار في الإبداع، والإنتاج الحضاري.

وقد تكون المشكلة الفكرية والثقافية، فيمن يقفون عند حدود علوم اللغة (**علوم الآلة، وعلوم الوسائل**) في أنهم يتعلمون ليقرأوا، ويقفون عند حدود تعلُّم الوسيلة، دون القدرة على القراءة المبصرة، والعطاء المأمول، بينما قد يكون المطلوب أنْ يقرأوا ليتعلَّموا، ويبدعوا.

لا جرم أنَّ "**علم الوسائل**"[1] يشكِّل حماية، وحراسة، وحفاظاً على اللغة، لكن إذا لم يتم تفعيله بالإنتاج والإبداع، سوف ينقلب إلى قوالب تجميد وجمود للغة، فتنقلب الألفاظ، لتصبح قبوراً للمعاني، بدل أن تكن أوعية لحملها ونقلها، وتحقيق الانفعال بمعناها، والتنمية لإنسانها.

---

(1) **في شرف العربية** (مرجع سابق).

وفي اعتقادنا؛ لو أننا اجتزأنا قدراً من مواقفنا الدفاعية عن اللغة، وقدرتها، ومرونتها، وخلودها... الخ، لإنجاز بعض البحوث في تطويرها وتذليل تعليمها، لغير الناطقين بها، وإبداع بعض العلوم والفنون التي لا تتحصل إلاَّ بتعلمها، لتغيَّرت الحال، ولدبَّت فيها الحياة. وقد لا يكون مستغرباً ونحن على هذه الحال من التخلف والتخاذل الفكري، وبعد مضي عقود على حركة الوعي الإسلامي الحديثة؛ لم نقدم بعد جهداً مشكوراً في تطوير تعليم اللغة، أو تخديم التقنيات الحديثة لمصلحتها، وقد بلغ تطور اللغات الأخرى شأواً بعيداً، وأصبح لكل فن من فنون القول، وكل علم أوْ فن من العلوم والفنون، طريقة، بلْ طرقاً لتعلمها وتعليمها.

قضية التعريب

لقد كان نزول **«القرآن الكريم»** بالعربية؛ محل إعجاز وتحدٍّ، ليس على مستوى الأسلوب والصياغة فقط، وإنما على مختلف الأصعدة، وهذا يعني أنَّ **«العربية»** أوْ اللسان العربي، يمتلك من الخصائص والصفات والقدرات التعبيرية، ما لا تمتلكه أية لغة أخرى، أوْ أيّ لسان آخر، فاختيار العربية لغة للتنزيل، هو بلا شك تشريف لها من بين سائر اللغات، وتكليف لها بأداء وتوصيل الخطاب الإلهي للناس بما هي أهلٌ له. فلولا الأهلية، لما كان الاختيار.

وإنَّ اللغة التي وسعت كتاب الله بأحكامه وتشريعاته، وأعجزت الأولين والآخرين؛ أقدر على التعبير من غيرها في مختلف العلوم والفنون والآداب.

العجيب؛ أنْ تتسع اللغة (**الصينية**) للإنجاز والإنتاج الحضاري، على الرغم من صعوبتها، وأنْ تتسع (**اليابانية**) لكل المنجزات العلمية، على الرغم من عقم أبجديتها، ومحدودية مفرداتها، وأنْ تُحيا (**العبرية**) بعد اختفائها منذ ألفي عام، وتُسترد من بطون المقابر، والمتاحف، وتُنفَخ فيها الروح، لتصبح لغة العلم، والدِّين، والسياسة، والتعبير عن أدق المصطلحات والمبتكرات العلمية، في الفيزياء والرياضيات الحديثة، وتُنشَر بها البحوث والدراسات، وتصدر المجلات المتخصصة، ويضطر المعنيُّون بهذه الموضوعات، من أبناء الأديان واللغات الأخرى، إلى تعلمها للاطلاع على إنتاجها، في الوقت الذي تنحسر فيه اللغة (**العربية**) بانحسار أهلها، ونكوصهم الحضاري، إلى درجة يحاول معها بعضهم أن يخرجها من ساحة العلم نهائياً، ويحاصرها في المتاحف والمعابد. فالعربية في رأيهم لا تصلح أن تكون لغة العلم والمعرفة، فليُقتصر فيها على الترتيل لآيات القرآن.. ولتعزل عن الحياة، وتفصل عن الدولة، ومعاملاتها الرسمية، ومدارسها، ومعاهدها، وجامعاتها ومناهجها، لأنها ليست لغة العلم، ولا الحضارة. وشيئاً فشيئاً تصير كالسريانية، وغيرها من اللغات البائدة، بحجة أنها لغة متخلِّفة.

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما الذي جعل «العربية» بالأمس صالحة لأنْ تكون لغة العلوم التي أشرقت شمسها على العالَم حينذاك، وغير صالحة اليوم للقيام بالدور ذاته؟.

ولماذا تدرس كلُّ جامعات الدنيا العلوم المتقدِّمة بلُغاتها القومية، إلاَّ نحن في جامعاتنا؟.

وهل اللغة البولندية ـ مثلاً ـ أكثر قدرة على استِيعاب مصطلحات الطب والهندسة من العربية؟. ولماذا لا نستَفِيد من التجارِب الرائعة للجامعات السورية في محافظتها على العربية في تدريس الطب، وتخريجها شريحةً من أفضل الأطبّاء العرب وأكثرهم نجاحًا حتى في المجتمعات الغربية التي يعملون بها؟.

وهل يرتَبِط التقدُّم العلمي بالدراسة باللغة الأجنبية؟، أوْ بدراسة اللغة الأجنبية والاستفادة منها؟.

لقد نسِيَ هؤلاء المغفَّلون من الأعراب أنه لا توجد لغة متخلِّفة، ولغة متقدِّمة .. إنما توجد أُمم متخلِّفة، وأُمم متقدِّمة. وتناسوا أنَّ التعليم باللغة القومية؛ تَوطِين للعلم وتأكيد للهُويَّة.

من هنا؛ فلا قيمة للمزاعم التي يرددها قباقيب الغرب بأنَّ «العربية غير قادرة على مسايرة العلوم الحديثة».

انظر ـ مثلاً ـ إلى (فرنسا) التي شرَّعت في عام 1994م عقوبة للذي يستخدم غير الفرنسية، في الوثائق والمستندات، والإعلانات المسموعة، والمرئية، وكافة مكاتبات الشركات العاملة على الأرض الفرنسية، وبوجه خاص المحلات التجارية، والأفلام الدعائية، التي تبث عبر الإذاعة والتلفزيون، ونصَّت على عقوبة السجن أو الغرامة المالية، التي تصل إلى ما يعادل ألفي دولار. وهذا القرار، جاء في مواجهة هجمة اللغة الإنجليزية، التي أوصلتها الأقمار الصناعية إلى بيوت الفرنسيين، في محاولة لاستنقاذ التراث الفرنسي المهدد بالإغراق اللغوي.

فأين هذا من معاناتنا اللغوية، أوْ مأساتنا اللغوية، في مدارسنا، وجامعاتنا، ومحلاتنا التجارية، والعمالة في بيوتنا، ودوائرنا الرسمية، التي تمارس علينا، أو تفرض علينا عملية التعجيم، وتكسير موازين اللغة العربية وقواعدها؟ إنهم يعجموننا، بدل أن نعربهم.

من هنا؛ فإنَّ الدعوة إلى (**التعريب**) باتت ضرورة علمية وإسلامية في آنٍ واحد.

المقصود بـ(**التعريب**) النقلُ إلى اللغة العربية من لغةٍ أخرى. أيْ صبغ الكلمة (المُصطَلح) بصبغة عربية عند نقلها بلفظها الأجنبي إلى اللُغة العربية. وهي سياسةٌ تَتبَعُها الدَولةُ لتشجيع أن تكون «العربية» لغة العلم والعمل والفكر والإدارة.

ويعرّف «**المعجمُ الوسيط**» التعريب؛ بأَنّه ترجمة النصوص من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وإِنما يكون التركيز هنا على ترجمة المعاني بما يكفل أن يحافظ النص الأصلي على خصائصه قدر الإمكان.

وقد عالج «**ابن خلدون**» هذا الموضوع في مقدمته، فقال : «ولمَّا كان كتابنا مشتملاً على أخبارِ البربر وبعضِ العجمِ، وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعضِ كلماتهم حروفٌ ليست من لغةِ كتابنا ولا اصطلاح أوضاعنا، اضطررنا إلى بيانهِ ولم نكتفِ برسمِ الحرفِ الذي يليه كما قلنا، لأنُّه عندنا غير وافٍ للدلالةِ عليه، فاصطلحتُ في كتابيَ هذا على أن أضعَ ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفينِ الذينِ يكتنفانه ليتوسط القارئ بالنطقِ بين مخرجي ذينك الحرفينِ فتحصلُ تأديتهُ».

جدير بالذكر؛ أنَّ (التعريب) ليس نشاطاً حديث العهد، فقد قام العرب منذ فجر الحضارة العربية الإسلامية بنقل النصوص العلمية إلى العربية.

لكن ـ من أسف ـ في أيامنا هذه يجري جدل واسع حول إشكالية (التعريب في التعليم الجامعي). وبمجرد أن يطرح هذا الموضوع للبحث والمناقشة؛ ترتفع أصوات المعارضين للتعريب، والكارهين للعربية، وإخوانهم من الرضاعة.

فما هي حجج المؤيدين، وحجج المعارضين؟.

المؤيدون؛ يرون أن أغلب الطلاب، لنْ يلموا باللغات الأجنبية بالقدر الذي يسمح لهم بالاطلاع على المراجع الأجنبية وفهمها بيسر؛ وأن التعليم باللغات الأجنبية يمكن أن يخلق عند الإنسان ازدواجية في الشخصية، ويؤدي إلى انقطاعه عن ثقافته الأم؛ بينما التعليم بـ«اللغة الأم» يوفر الكثير من الجهد الذي يُهدَر على فهم النص الأجنبي بحد ذاته، ويوجه الجهود إلى فهم المادة العلمية نفسها؛ وأن العربية قادرة على استيعاب العلوم الحديثة؛ وأن المفاهيم العلمية الأساس أكثر ثباتًا، ولا ينكرون ضرورة الإلمام باللغات الأجنبية للاطلاع على المستجدات.

أمَّا **المعارضون**؛ فيرون أن العالم العربي حاليًا لا يسهم في العلوم الحديثة، لذا من الأفضل أن يتم التدريس بالإنجليزية، لكيْ يعتاد المتعلمون على قراءة أحدث المواد العلمية باللغة التي تمَّ نشرها بها؛ وأن سرعة التطور العلمي لا يترك للغة العربية مجالاً لاستيعاب المصطلحات الحديثة؛ وأن حركة الترجمة لا يمكن أن تلحق بسرعة التطور العلمي.

إنَّ المعارضين لفي ضلالٍ مبين.

إذْ لا يزالون يرددون مزاعم المستعمرين القدامى، ويحذون حذوهم، ويطالبون بمطالبهم، ويصلّون وراءهم، ويؤمِّنون خلف دعائهم.

فقد أجبر (الإنجليز) المصريين سنة 1889م بقرار رسمي ينص على: أن تكون لغة التعليم بمصر في جميع مراحله بالإنجليزية.

وفي الجزائر؛ أصدر وزير الداخلية الفرنسي **«كامبل شوتو»** في 3/8 /1936م قراراً باسم الحكومة الفرنسية باعتبار العربية لغة أجنبية في الجزائر، ولا تعامل على قدم المساواة مع بقية اللغات الأجنبية كالألمانية والإنجليزية والإيطالية والإسبانية.

ترى؛ لماذا يعجز أبناء العربية المخلصون عن تعريب العلوم في العصر الحاضر، على الرغم من جهود بعض الجهات العلمية العربية؛ كمجامع اللغة العربية، وغيرها؟.

لا جرم أنَّ سبب العجز؛ راجع إلى أولئك المرجفين، بمعاونة القوى الخفية؛ التي تقف حاجزاً منيعاً بين الإصلاحيين الغيورين، وبين بلوغهم الهدف المنشود.

لقد تناسى هؤلاء المغفَّلون أن العربية انحدرت ـ في العصر الحديث ـ بفعل القوى الاستعمارية؛ بأجهزتها الثقافية والإعلامية؛ بسبب جنوح أهلها إلى التخلف.

الحقَّ أقول : إنَّ المشكلة ليست في اللغة، إنما هي مشكلة الناطقين بها. ومن ثمَّ: فإنَّ علاج القضية يكمن في علاج أهلها أولاً؛ بإقناعهم بأنَّ تعليم «العربية» وتعريب العلوم؛ هي قضية الساعة التي يجب أن تحسم بأسرع وقت ممكن؛ وذلك بإقناع أهلها بالدور الحضاري لهم كعرب ومسلمين في مسيرة الحضارة المعاصرة، وإقناعهم بأنَّ العامل الحضاري عامل فعَّال في حياة اللغات. عندئذٍ؛ سيعلم أولئك المنبهرون بالغرب؛ أنهم في ضلال بعيد.

لا جرم أنَّ هذا الوضع المتخلف الذي تعانيه العربية بين أهلها، وداخل أوطانها؛ سيستمر طالما بقيت العربية مبعدة عن مجالات العلم والتكنولوجيا، وطالما اتخذ العلماء العرب لغات الآخرين كوسيلة لتدريس العلوم بجامعاتنا، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

إنَّ القضية في حاجة إلى قرار سيادي يلزِم بتعريب العلوم .. فالتعريب في صدر الإسلام لم يكتمل ويترسخ إلاّ بقرارات سياسية، على ما كان للعربية من قوة وسيادة ومنعة بفضل انتشار الإسلام، وشيوع القرآن الكريم في أرجاء الدولة الإسلامية بلسانه العربي المبين.

لم يترك القادة والحكّام الأوائل المسألة لهذه الاعتبارات وحدها، فقد رأى **«عمر بن الخطاب»** أنه لابدَّ من اتخاذ القرار ببدء التعريب، ثمَّ احتاج الأمر إلى قرارٍ جديد من عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين، أيْ تعريب جهاز الدولة، ثمَّ احتاجَ الأمر إلى قرارٍ ثالث من الرشيد، ومن بعده المأمون؛ بإنشاء (بيت الحكمة) ودفعِ حركة الترجمةً، واستحضار كتب المعارف من الأمم الأخرى، وتعريبها بوزنها ذهباً. وهذه أضخم عملية تعريب شهدتها الأمَّــة.

إذن؛ كلها قرارات سياسية متتابعة ومتكاملة، اتخذت على أعلى المستويات، من تعريب الحياة العامة، إلى تعريب جهاز الدولة، إلى تعريب المؤسسات العلمية. فالقرار السياسي مسألة حتمية في إنجاز التعريب[1]. فإنَّ الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

على صعيدٍ آخـر؛ فقد أظهرت الحقبة الماضية؛ أنَّ الاهتمام العالمي بالعربية يتزايد مع تزايدً الاهتمام السياسي بالمنطقة العربية، على الرغم من حالة التراجع التي تشهدها الأمة. فالعربية تشهد حالة صحوة، وتكتسب مساحات أكبر من التأثير والوجود علي ساحات الإعلام العالمي في مختلف المجالات، حيث ساهم التعريب في الإعلام الدولي في التأثير المتبادل ونقل المعارف المختلفة، ولم تتوقف الظاهرة عند الغرب فقط، وإنما امتدت إلى الشرق الآسيوي أيضًا. مع إيماننا بأنَّ الاهتمام العالمي بالعربية يأتي لأسباب سياسية وفكرية واقتصادية.

وقد تطور استخدام العربية في وسائل الإعلام عبر عدد من المراحل؛ فبدأ أولاً عبر البث الإذاعي من خلال إذاعات متخصصة بالعربية، مثل : راديو لندن، ثمَّ البث المعرب خلال ساعات محددة لراديو مونت كارلو وصوت أمريكا.

ثم أعطى **"الإنترنت"** دفعة قوية للعمل الإذاعي، وزاد من التعريف بالتعريب الإذاعي مما ساهم في توسيع مجال البث؛ إذْ لجأت الإذاعات إلى "الإنترنت" وأنشأت نوافذ إلكترونية معربة تبث من خلالها الأخبار بالنص العربي. مثل: راديو لندن، مونت كارلو، راديو كندا، إذاعة الصين، راديو كوريا الدولي، راديو اليابان الدولي، صوت روسيا، وإذاعة يوغسلافيا. ثمَّ توسعت حركة التعريب مع الطفرة التي حدثت في البث الفضائي، التي أحدثت نقلة نوعية في انتشار القنوات التي تهتم بالبث باللغة العربية.

---

(1) **تعريب التعليم الجامعي ضرورة**، السيد أحمد فرج، رابطة الجامعات الإسلامية، 1993م.

أجل. إنها ظاهرة جديرة بالرصد؛ وهي تنمو بشكل متسارع، وقد بدأت مؤسسات صحفية دولية كبرى تصدر طبعات معرَّبة من مطبوعاتها، وصدرت خلال الأعوام الأخيرة، طبعات عربية لصحف أجنبية، كمجلات: نيوزويك، فورين بوليسي، بيزنس ويك، فوربس، لوموند ديبلوماتيك، وإيكونوميست، وغيرها من مجلات ودوريات العالم الغربي.

ومع توسع الاهتمام بالعربية؛ بدأت دول العالم ترصد المزيد من الأموال من أجل تعلُّمها، حيث تقرر في الميزانية الأمريكية للعام 2006، تخصيص 114 مليون دولاراً لتعلم العربية، ثمَّ تضاعفت هذه الميزانية مرات ومرات. وفي ذات الاتجاه شرعت الجامعات الأمريكية أخيرًا في تدريس العربية لخدمة الطلاب الراغبين في الحصول على وظائف في المجال العسكري والدبلوماسي. بلْ إنَّ جامعة "مينيسوتا" الأمريكية أعلنت عن توسيع مجال تدريس العربية، وسبقتها جامعتا و"يسكونسين"، و"إلينوي".

من هنا؛ يمكن القول : إن (**العربيـة**) بدأت في العودة إلى خريطة الفكر والثقافة العالمية؛ بعز عزيز، أوْ بذل ذليل.

لا جرم أنَّ سعي الإعلام الدولي نحو التعريب لنشر ثقافة الدول والشعوب التي ينتمي إليها؛ يفرض على العرب والمسلمين مسئولية مبادلة الرسالة برسالة أخرى إيجابية تتناسب والتحديات الحضارية التي تواجهها.

فلم يعد من المقبول أن ننتظر ما يصل إلينا من أفكار أوْ ما يتصدَّق به الآخرون علينا، دون بذل الجهد لدفع حركة التعريب إلى الإمام، واسترداد عافيتنا الثقافية والفكرية.

الخلاصـة؛ أن «التعريب» قد فرض نفسه علي الساحة العالمية في مجالات عديدة. لذا؛ أصبح ضرورة لنا للتعرف على الثقافات الأخرى، ووسيلة لتوفير المعارف والعلوم بشكل ميسر لعموم الأمة.

وفوق كل ذلك؛ فإنَّ الاهتمام بالعربية يزيد من اعتزاز الأمة بهويتها، كما أنَّ التعريب يساهم في مستقبل أفضل للعربية في ظل الصراع الحضاري المحتدم. والله غالبٌ على أمره.

من أخبار العربية

عن ابن عباس؛ أن آدم كان لغته في الجنَّة العربية، فلمَّا أكل من الشجرة؛ سُلِبها فتكلَّم بالسريانية، فلمَا تاب ردها الله تعالى عليه".[1]

(**حكاية**) "العربية إحدى اللغات التي علَّمها آدم عليه السلام، وكان يتكلم بها وبغيرها. وقيل: إنَّ العربية هي أولى اللغات التي علَّمها آدم وإنَّ كل لغة سواها حدثت بعدها إمَّا توفيقاً أوْ اصطلاحاً. وقيل: نزل القرآن الكريم بالعربية، وهو كلام الله عزَّ وجل".[2]

(**حكاية**) "كان لسان جميع من ركب السفينة مع نوح عليه السلام سريانياً (وهو منسوب إلى أرض سورية، وهي أرض الجزيرة) يشاكل اللسان العربي إلاَّ رجل واحد هو (جرهم) فإنه كان لسانه العربي الأول".[3]

(**حكاية**) "كان اللسان العربي في إرم بن سام ـ الذي تزوج من بنات جرهم ـ وصار بعد ذلك في ولده عوص أبي عاد وعبيل وجائر أبي ثمود وجديس".[4] و"العربي" منسوب إلى عربة ، وهي ناحية دار إسماعيل" عليه السلام.

(**حكاية**) قال ابن دحية : العرب ثلاثة أقسام[5]:

الأول : عاربة وعرباء وهم الخلص وهم تسع قبائل من ولد إرم بن سام بن نوح، وهي عاد وثمود وأميم وعبيل وطسم وجديس وعمليق وجرهم ووبار ومنهم تعلم "إسماعيل عليه السلام" العربية.

الثاني : المتعربة، قال في الصحاح: وهم الذين ليسوا بخلص، وهم بنو قحطان.

الثالث : المستعربة وهم الذين ليسوا بخلص أيضاً، وهم بنو إسماعيل عليه السلام وهم ولد معد.

---

(1) **الدر المنثور**، ج1، جلال الدين السيوطي.

(2) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، للإمام الألوسي، جزء 12.

(3) **روح المعاني**.

(4) **روح المعاني** .

(5) **روح المعاني**.

وقال ابن دريد في (**الجمهرة**) : "العرب العاربة، سبع قبائل: عاد وثمود وعمليق وطسم وجديس وأميم وجاسم".

(**حكاية**) قال كعب الأحبار : "أول من نطق بالعربية جبريل عليه السلام، وهو الذي ألقاها على لسان نوح عليه السلام، فألقاها نوح على لسان ابنه سام، وهو أبو العرب. وأول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل عليه السلام، وهو ابن أربع عشرة سنة. وقيل: إنَّ أول من انعدل لسانه عن السريانية إلى العربية يعرب بن قحطان"[1].

(**حكاية**) قيل: إن الفراعنة "المصريين القدماء" من بقايا العمالقة، كانوا يتكلمون بالعربية. واستدلوا على ذك بقصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون"[2].

(**حكاية**) عن ابن عباس، أنَّ رسول الله ﷺ، قال: "أحبُّوا العرب لثلاث لأنّي عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنَّة عربي"[3].

(**حكاية**) عن عمر بن الخطاب، أنه قال : يا رسول الله؛ مالك أفصحنا، ولمْ تخرج من بين أظهرنا؟. قال ﷺ : كانت لغة إسماعيل قد دُرِستْ، فجاء بها جبريل؛ فحفَّظنيها فحفظتها".[4]

(**حكاية**) "كان للعرب في لغتهم بعض مخالطة لأهل سائر الألسنة في أسفارهم، فعلقت من لغاتهم ألفاظ غيرت بعضها بالنقص من حروفها، واستعملتها في أشعارها ومحاورتها، حتى جرت مجرى العربي الفصيح ووقع بها البيان"[5].

(**حكاية**) كل الألفاظ عربية صرفة، ولكن لغة العرب متسعة جداً، ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الأجلَّة، وقد خفي على ابن عباس معنى فاطر وفاتح. لذا؛ قال الإمام الشافعي في الرسالة: "لا يحيط باللغة إلا نبيّ"[6].

(**حكاية**) "العربية أوفر اللغات مادة، وأقلها حروفًا، وأفصحها لهجة، وأكثرها تصرفاً في الدلالة على أغراض المتكلم، وأوفرها ألفاظاً، وفيها من الدقائق واللطائف لفظا ومعنى ما يفي بأقصى ما يراد من وجوه البلاغة"[7].

---

(1) **روح المعاني**.

(2) **روح المعاني**.

(3) أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي، وآخرون.

(4) **روح المعاني**.

(5) **روح المعاني**.

(6) **روح المعاني**.

(7) **التحرير والتنوير**، الطاهر بن عاشور [جزء 1].

(**حكاية**) حكمة وقوع الألفاظ غير العربية في القرآن الكريم أنه حوى علوم الأولين والآخرين، ونبأ كل شيء، فلابدَّ أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات؛ لتتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب[1].

(**حكاية**) قال المطران أبو داود ـ المتخصص في العربية والسوريانية ـ : "إذا نُقلت الألفاظ الحسنة إلى السوريانية قبُحتْ وخسّتْ، وإذا نُقل الكلام المختار من السوريانية إلى العربية، ازداد طلاوةً وحُسناً، وهذا ما يخبر به أهل كل لغة عن لغتهم حال مقارنتها مع العربية".

(**حكاية**) كان أبو اسحق الصابي ـ وهو غير مسلم ـ يقرأ سورة من القرآن الكريم قبل أن يأخذ نفسه بالنظم والإنشاء.

(**حكاية**) قال البيروني : "لأنْ أُهجَى بالعربية، أحبّ إليَّ من أن أُمدح بالأعجمية".

(**حكاية**) قال القاضي أبو بكر العربي : "علوم القرآن خمسون وأربعمائة وسبعة آلاف وسبعون ألف عِلمٍ (77450) على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، لأنَّ لكل كلمة ظهراً وبطناً، وحداً ومطلعاً، وهذا في المفردات. أمَّا إذا اعتبرنا التراكيب وما بينها من روابط، فإنه يكون ما لا يحصى من العلوم". [2]

(**حكاية**) روى ابن الأثير؛ أنَّ يهودياً ذُكِرتْ عنده اللغة العربية، وما تمتاز به من جمال، وأنها سيدة اللغات، وأنها أشرفهنَّ مكاناً، وأحسنهنَّ وضعاً، فقال: "وكيف لا تكون كذلك، وقد جاءت آخراً، فنفتْ القبيح من اللغات التي قبلها، وأخذت الحسن، ثم إن واضعها تصرف في جميع اللغات السالفة، فاختصر ما اختصر، وخفف ما خفف، فمن ذلك اسم "الجمل" فإنه عندنا في اللسان العبراني "كُوميل" ممالاً على وزن فُوعيل، فجاء واضع اللغة العربية، وحذف منها الثقيل المستبشع، وقال بدلاً منها "جمل" فصار خفيفاً حسناً".

قال **الإمام الشافعيّ** : إنّ على الخاصَّة التي تقومُ بكفاية العامة فيما يحتاجون إليه لدينهم، الاجتهاد في تعلّم لسان العرب ولغاتها، التي بها تمام التوصُّل إلى معرفة ما في الكتاب والسُّنن والآثار، وأقاويل المفسّرين من الصحابة والتابعين، من

(1) **روح المعاني**.

(2) **الإتقان في علوم القرآن**، للسيوطي.

الألفاظ الغريبة، والمخاطبات العربيّة، فإنّ من جَهِلَ سعة لسان العرب وكثرة ألفاظها، وافتنانها في مذاهبها، جَهِلَ جُملَ علم الكتاب، ومن علمها، ووقف على مذاهبها، وفَهِم ما تأوّله أهل التفسير فيها، زالت عنه الشبه الدَّاخلةُ على من جَهِلَ لسانها من ذوي الأهواء والبدع. (1)

قال **الزمخشري** في كتابه **"الكشَّاف"**: "إن تنزيل القرآن بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك، تنزيل له على قلبك، لأنك تفهمه وتُفهِّمه قومك. ولوْ كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها، ولا تعيها".

قال **ابن قيّم الجوزيّة:**" وإنَّما يعرف فضل القرآن منْ عرف كلام العرب، فعرف علم اللغة وعلم العربية، وعلم البيان، ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها في مواطن افتخارها، ورسائلها ... "

قال المؤرخ البريطاني **إرنولد توينبي** عن أتاتورك : «إنَّ هذا الرجل لم يفعل كما فعل النازيون مع الكتب في الساحات العامة، وذلك في ليلة برلين الشهيرة سنة 1938م، أوْ كما فعل ملك إسبانيا "فيليب" مع الثقافة العربية، بلْ قام بما هو أدهى وأمر؛ فقتل الحرف العربي دون أن يلمسه، حين قلب الحرف التركي من العربي إلى اللاتيني، وترك بقية المهمة إلى غبار الرفوف كيْ تلتهم خمسة قرون من التراث العثماني المخطوط بالحرف العربي، الذي يحتوي على آلاف المجلدات».

قال الشَّاعر والفيلسوف/ **محمد إقبال** : "مَن أراد أن يكتب وثيقة ويدفنها في الأرض فيقرأها الناس بعد ألف جيل، فليكتبها باللغة العربية، فهي لغة الخلود من القرآن الخالد".

قال **عبد الوهاب عزام** : "العربية لغة كاملة محببة عجيبة، تكاد تصور ألفاظها مشاهد الطبيعة، وتمثل كلماتها خطرات النفوس، وتكاد تتجلى معانيها في أجراس الألفاظ، كأنما كلماتها خطوات الضمير ونبضات القلوب ونبرات الحياة".

قال **طه حسين** : "إنَّ المثقفين العرب الذين لم يتقنوا لغتهم ليسوا ناقصي الثقافة فحسب، بلْ في رجولتهم نقص كبير ومهين أيضاً".

---

(1) التهذيب، للأزهري 1/ 5 (المقدمة).

قالت الدتورة عائشة عبد الرحمن (**بنت الشاطئ**) : "حين تمتحن أمة بسرقة لسانها، تضيع، وتمسخ شخصيتها القومية، وتبتر من ماضيها وتراثها وتاريخها، ثم تظل محكوماً عليها بأن تبقى أبداً تحت الوصاية الفكرية والوجدانية للمستعمر، حتى بعد أن يجلو عن أرضها. وبمضي الزمن يغدو هذا الاستعباد القهري ولاء فكرياً لمن كان لها بالأمس عدواً".

قال الدكتور **زكي نجيب محمود** : "إذا دبَّ خلل في اللغة؛ دبَّ خلل في التفكير".

قال **د. عبد العزيز بن عثمان التويجري** : "اللغة العربية قضية وجود، وقاعدة كيان، ودعامة النظام العربي الإسلامي".

علماء اللغة .. ومؤلفاتهم

ترى؛ مَن هؤلاء (العلماء) الذين تكلمنا عنهم كثيراً كَثيراً في هذا الكتاب؟.

مَن هؤلاء (الأعلام) الذين شغلوا صفحات الكتاب، ولمْ نعرف عنهم الكثير؟.

مَن هؤلاء (الأكابر) من اللغويين، والنحاة، والبلاغيين، والعروضيين؟.

مَن هؤلاء (الأئمة) الذين يؤمِّن الناس خلفهم، ويقتدون بهم في كل خطابٍ ومقال؟.

مَن هؤلاء (القدوات) الذين لا يسبقهم أحد في الكلام، ولا يرفع صوتٌ فوق أصواتهم؟.

من هؤلاء (العباقرة) الذين ملأوا الدنيا بعلومهم، وشغلوا الناس بآرائهم ومسائلهم؟.

من هؤلاء (العظماء) الذين أبدعوا، وتألَّقوا، وأتوا بما عجز عنه السابقون واللاحقون؟.

من هؤلاء (الأفذاذ) الذين ألَّفوا المعاجم، وقعَّدوا القواعد، ووضعوا أصول اللغة والبيان؟.

من هؤلاء (الجهابذة) الذين أقاموا الدنيا ولم يقعدوها بفنونهم الرفيعة، وآدابهم الرفيعة؟.

من هؤلاء (السابقون السابقون) في نصرة "العربيـة" وآدابها، وفنونها؟.

من هؤلاء (الرواد) الذين مازالت الدنيا كلها عالة على منجزاتهم الإبداعية؟.

من هؤلاء (السادة) الذين تتطامن أمامهم الأعناق، وتنحني لهم الهامات؟.

من هؤلاء (الأساتذة) الذين عزَّتْ بهم لغة الضاد وتباهت بهم الأيام؟.

من هؤلاء (الرجال) الذين شرفتْ بهم الأمة، وتفاخرت بهم الأجيال؟.

من هؤلاء (الكرام) الذين من ثمرة نبوغهم وعطائهم؛ نشأت الفِرق والمذاهب وفُتِحت المعاهد والجامعات، وأُلِّفت الكتب والقصائد والروايات، وعُقِدت الامتحانات، ومُنِحت الدرجات، ونشأت الوظائف والترقيات ووزِّعتْ الجوائز والنياشين؟.

أجل؛ مَن الخليل بن أحمد، وسيبويه، والكسائي، وابن جِنِّي، وابن فارس، والجوهري، والثعالبي، وابن سيده، وابن منظور، والفيروزآبادي؟.

من أيّ الأوطان جاءوا؟ وفي أيّ البلاد أقاموا؟ وفي أيّ حقبة عاشوا؟ وما هي أشهر مؤلفاتهم؟ وبماذا تميزوا عن غيرهم؟ وماذا قال عنهم معاصروهم، والذين جاءوا من بعدهم؟.

هذا الذي سنعرفه ـ بتوفيق الله ـ في الصفحات التالية. فإلـى التفاصيـل.

الخليل بن أحمد الفراهيدي

الخليل بن أحمد الفَرَاهِيدي (100-170 هـ). كان مولده في العام المتمّ مائة من الهجرة (100هـ) في زمن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز.

قال ابن أبي خيثمة : "أول من سُمِّي في الإسلام أحمد (بعد رسول الله)، الخليل بن أحمد".

عاش في البصرة متقشفًا متعبدًا، وكان يقول : "إني لأغلق عليَّ بابي فما يجاوزه همي".

وليس أدل على ذلك مما حكاه عنه تلميذه النضر بن شميل، قال : "أقام الخليل في خُصٍّ من أخصاص البصرة، لا يقدرُ على فَلْسَيْنِ، وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال". ورُوِي له في الزهد :

وقبلك داوى الطبيبُ المريضَ فعاش المريض ومات الطبيـب.

وفوق زهده وتقواه وعلمه، فقد كان رجلاً ظريفًا متواضعًا؛ ومما ذُكر في ذلك أنه اشتغل عليه رجل في العروض وكان بعيد الفهم، فأقام مدةً، ولم يعلق على خاطره شيء منه، قال الخليل: فقلت له يومًا: كيف تقطِّع هذا البيت؟.

إذا لم تستطع شيئًا فدعـه وجاوزه إلى ما تستطيـع

قال الخليل : "فشرع معي في تقطيعه على قدرِ معرفته، ثم إنه نهض من عندي فلم يعُدْ إليَّ، وكأنه فهم ما أشرت إليه". وهنا يتجلَّى أدب الخليل وحسن خُلُقه مع تلامذته، وكيف كان يستعمل منهجًا تربويًّا فريدًا في تعليمه إياهم.

ومن أفضل ما عُلم عن تواضع الخليل؛ ما حكاه أيوب بن المتوكل، قال: "كان الخليل إذا أفاد إنسانًا شيئًا لم يُره أنه أفاده، وإنْ استفاد منِ أحدٍ شيئًا أراه بأنه استفاد منه". وفي ذلك ما فيه من سموٍّ نفسي وإنكارٍ للذات، فضلاً عن احترام المعلم والإقرار بفضله على المتعلم.

تتلمذ "الخليل" على أكثر من شيخ، منهم: أيوب البصري، وعاصم الأحول البصري، والعوام بن حوشب، وغالب القطان البصري، وأبو عمرو بن العلاء، وعثمان الأزدي، وغيرهم.

أمَّـا عن تلاميذه؛ فقد كانوا من الكثرة والنجابة بمكان، أبرزهم (سيبويه) حُجَّة العربية، والأصمعي، وحماد بن يزيد، وأيوب بن المتوكل البصري القارئ، وبَدَل بن المحبَّر، وداود بن المحبر، وعلي بن نصر الجهضمي الكبير، وعون بن عمارة، والمُؤَرِّخ بن عمرو السدوسي، وموسى بن أيوب، والنضر بن شميل، وهارون بن موسى النحوي، ووهب بن جرير بن حازم، ويزيد بن مرة الذَّارع، والليث بن المظفر.

ولعلَّ من أكبر أسباب شهرة الخليل بن أحمد؛ تلميذه "سيبويـه" في مؤلَّفه الشهير (**الكتـاب**)؛ إذْ عامَّة الحكاية فيه عن الخليل.

وإنَّ من أهم ما طيَّر اسم "الخليل" وأذاع شهرته في الآفاق، هو كتابه ومعجمه البِكْر من نوعه في مصنفات العربية: (**كتاب العين**)، ولم يكن (العين) هو مصنَّفه الوحيد، وإنما له كتب أخرى، مثل: كتاب (**فائت العين**)، وكتاب (**العروض**)، وكتاب (**الشواهد**)، وكتاب (النقط والشكل)، وكتاب (**النغم**)، وكتاب في (**معنى الحروف**)، وكتاب في (**العوامل**)، وكتاب (**الإيقاع**)، وكتاب(**تصريف الفعل**)، وكتاب (**التفاحة في النحو**)، وكتاب (**جملة آلات الإعراب**)، وكتاب (**شرح صرف الخليل**)، وكتاب (**الجمل**)، وكتاب (**المُعَمَّى**)، وغيرها.

منهج الخليل في كتاب العين

لقد رتَّب الخليل في (**العين**) الحروف العربية على مخارجها من الحلق على النظام التالي، كما جاء في مقدمته لكتاب العين: ع، ح،هـ، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ث، ذ، ر، ل، ن، ف، ب، م، و، ا، ي، همزة.

وإذا كان "الخليل" قد عدَّ العين أقصى الحروف مخرجًا، فإنَّ سيبويه يذكر أنَّ الهمزة أقصى الحروف مخرجًا. غير أن ابن كيسان يروي أن الخليل، قال: "لم أبدأ بالهمزة؛ لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء الكلام ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مُبْدَلَةً، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفيَّة لا صوت لها، فنزلتُ إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء، فوجدتُ العين أنصع الحرفين؛ فابتدأت به ليكون أحسنَ في التأليف".

وقد بسط الخليل في **(العين)** الكلام في هذه الحروف ومخارجها، فعدَّها تسعة وعشرين حرفًا، جعل منها خمسة وعشرين حرفًا صحاحًا لها أحياز ومدارج، كما جعل منها أربعة هوائية. ولقد وَسَم الخليل كتابه المعجم هذا بأول حرف اعتمده، وهو العين.

ولمَّا كان الخليل أول واضعٍ للكلم العربي في صورة معجمية، كان عليه أن يستقصي الكلمات بعد أن اختارَ الترتيب، وكان اعتماده على ما ساقه الصرفيون قبله من حصرٍ لأبنية الكلمة، وجعلها إمَّا ثنائية أوْ ثلاثية أوْ رباعية أوْ خماسية. وعلى هذا وجد الخليل أن مبلغ عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل على مراتبها: الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي من دون تكرار، اثنا عشر ألف ألف وثلاثمائة ألف وخمسمائة آلاف وأربعمائة واثنا عشر (12305412):

الثنائي : سبعمائة وست وخمسون (756).

الثلاثي : تسع عشرة ألفًا وستمائة وست وخمسون (19656).

الرباعي : خمسمائة ألف وأحد وتسعون ألفًا وأربعمائة (591400).

الخماسي: إحدى عشرة ألف ألف، وسبعمائة وثمانٍ وثلاثون ألفًا وستمائة (11738600).

لقد اعتمد الخليل في هذا الإحصاء على تنقّل الحرف في بنيته من الكلمة، فالحرف في الكلمة الثنائية ينتج عن تنقله صورتان يكون أولاً ويكون ثانيًا، والحرف في الكلمة الثلاثية، ينتج عن تنقله صور ثلاث يكون أولاً وثانيًا وثالثًا، والحرف في الكلمة الرباعية ينتج عن تنقله صور أربع، وفي الكلمة الخماسية صور خمس. ولا شك أن هذا الاستقصاء ثم الاستصفاء اقتضى من الخليل جهدًا حثيثًا، وفكرًا كبيرًا.

وقد أثنى العلماء على الخليل، وأنزلوه المكانة اللائقة به، حتى قال عنه حمزة بن الحسن الأصبهاني في كتاب **(التنبيه على حدوث التَّصحيف)**: "وبعد، فإنَّ دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم تكن لها أصول عند علماء العرب من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من **"علم العروض"** الذي لا عن حكيم أخذه، ولا على مثال تقدَّمه احتذاه، وإنما اخترعه من ممرّ له بالصَّفَّارين من وقع مطرقة على طست، ليس فيهما حجة ولا بيان يؤديان إلي غير حليتهما أوْ يفيدان عين جوهرهما، فلو كانت أيامه قديمة، ورسومه بعيدة لشكّ فيه بعض الأمم؛ لصنعته ما لم يضعه أحد منذ خلق الله الدنيا من اختراعه العلم الذي قدمت ذكره، ومن تأسيسه بناء كتاب **(العين)** الذي يحصر فيه لغة كل أمة من الأمم قاطبة، ثم من إمداده سيبويه في علم النحو بما صنَّف كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام".

وقال عنه سفيان بن عُيَيْنة : "من أحبَّ أن ينظرَ إلى رجلٍ خُلِق من الذهب والمسك، فلينظر إلى الخليل بن أحمد".

ويُروى عن تلميذه النضر، أنه قال : "كنا نُمَيِّل بين ابن عونٍ والخليل أيهما نقدِّم في الزهد والعبادة؟". ويقول: "ما رأيتُ رجلاً أعلم بالسُّنَّة بعد ابن عونٍ من الخليل بن أحمد". وكان يقول:" أُكِلَت الدنيا بأدَب الخليل وكُتُبِه وهو في خُصٍّ لا يُشْعَر به. وكان من الزهّاد العارفين".

وقال السيرافي: "كان الغاية في تصحيح القياس، واستخراج مسائل النحو وتعليله". وقال ابن حبان في كتاب (**الثقات**) : "كان الخليل من خيار عباد الله في العبادة"..

سيبويه

أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قمبر، الملقب بـ**"سيبويه"** (140هـ/ 756م) إمام النحاة، حجَّة العرب، وأول من بسط علم النحو، وصاحب **"الكتاب"** حجة العربية ودستورها. بلْ هو علم الأعلام، إمام كل إمام، مالك أزِمّة الأدب، وملك علوم العرب.

لقبه (**سِيبَوَيْهِ**) الذي اشتهر به حتى غطى على اسمه وكنيته، وهو لقب فارسي معناه بالعربية **"رائحة التفاح"**، ولد "سيبويه" بشيراز، وقدم البصرة وهو غلام صغير؛ ليقترب من مراكز العلم ومشعل الحضارة، بعد أن أفسحت الدولة العباسية المجال للفرس بتولِّي أرفع المناصب.

تتلمذ (**سيبويه**) على عديد من العلماء، منهم أربعة من علماء اللغة، أولهم: عبقري العربية وإمامها الخليل بن أحمد، وهو أكثرهم تأثيراً فيه، فقد روي عنه سيبويه في (**الكتاب**) 522 مرة، ثانيهم: أبو الخطاب الأخفش، ثالثهم عيسى بن عمرو، ورابعهم: أبو زيد النحوي. ومات سيبويه رحمه الله، وجُلّ شيوخه على قيد الحياة.

توجه سيبويه إلى إمام العربية وشيخها "الخليل بن أحمد"، لينهل من علمه، فصار يلازمه كالظل حتى ظهر تأثره الكبير بشيخه على صفحات كتابه الشهير. لمْ يملّ سيبويه مجالسة الخليل، حتى قال ابن النطاح: كنتُ عند الخليل؛ فأقبل سيبويه، فقال الخليل: مرحباً بزائر لا يمل. وقال أبو عمر المخزومي - وكان كثير المجالسة للخليل: ما سمعتُ الخليل يقولها لأحد إلاَّ لسيبويه. ولأجل هذا؛ فقد قيل: إنه نجم من أصحاب الخليل أربعة : سيبويه، والنضر بن شميل، وأبو فيد مؤرج العجلي، وعلي بن نصر الجهضمي، وكان أبرعهم في النحو سيبويه، وغلب على النضر بن شميل اللغة، وعلي مؤرج العجلي الشِّعر، وعلى ابن نصر الحديث. ولم يكتف سيبويه بشيخه الخليل، بلْ تتلمذ أيضاً على يد أبي الخطاب المعروف بالأخفش الأكبر، وعيسى بن عمر، ويونس بن حبيب، وأبي زيد النحوي، وغيرهم.

ظهر علم "سيبويه" وطغى على من في البصرة كلهم، حتى كان يستشهد به الرجل العادي في شئون حياته، ومما يروى في ذلك؛ ما حدّث به محمد بن سلام، حيث قال: كان سيبويه جالساً في حلقته بالبصرة فتذاكرنا شيئاً من حديث قتادة،

فذكر حديثاً غريباً وقال: لم يروِ هذا إلاَّ سعيد بن أبي العروبة، فقال بعض ولد جعفر بن سليمان: ما هاتان الزائدتان يا سيبويه؟. فقال: هكذا يقال؛ لأن العروبة هي الجمعة، ومن قال ابن عروبة، فقد أخطأ. قال ابن سلام: فذكرتُ ذلك ليونس فقال: أصاب لله درّه.

وقد شهد لسيبويه القاصي والداني، حتى قال معاوية بن بكر العليمي، وقد ذكر عنده سيبويه: رأيته وكان حديث السن، وكنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل، وقد سمعته يناظر في النحو، ونظرتُ في كتابه فقلمه أبلغ من لسانه. فما هو كتابه هذا الذي كان قلمه فيه أبلغ من لسانه رغم تفوقه به في مناظراته؟.

كتاب سيبويه

ذكر صاعد بن أحمد الجياني ـ من أهل الأندلس ـ في كتابه قال: لا أعرفُ كتاباً أُلِّفَ في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم، وأحاط بأجزاء ذلك الفن، غير ثلاثة كتب، أحدها: المجسطي لبطليموس في علم هيئة الأفلاك، والثاني: كتاب أرسطاطليس في علم المنطق، والثالث: كتاب سيبويه البصري النحوي؛ فإنَّ كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شيء إلاَّ ما لا خطر له. فقد كان بمثابة خزانة للكتب، وأصبح المصدر الفريد لعلمي النحو والصرف وعلم الأصوات.

وإنَّ العجب لا يكمن فقط في أنه ـ كما قال الجاحظ ـ كتاب لم يكتب الناس في النحو مثله، وجميع كتب الناس عليه عيال، بلْ إنَّ العجب في اسمه ورسمه؛ فقد درج كل العلماء والمؤلفين على أن يضعوا أسماء لمؤلفاتهم ومصنفاتهم، إلاَّ أن سيبويه في كتابه هذا قد شذَّ عن تلك القاعدة، ولم يضع لكتابه اسمًا، بل لمْ يضع حتى مقدمة أوْ خاتمة، فأطلق عليه العلماء اسم (الكتـاب) حتى صار لشهرته وفضله علماً عند النحويين، فكان يقال: قرأ فلان الكتاب مجردًا من أيّ وصف، فيعلم أنه كتاب سيبويه، وقرأتُ نصف الكتاب ولا يشك في أنه كتاب سيبويه.

وأغلب الظن أنَّ القدر لم يمهل سيبويه كيْ يخرج الكتاب في شكله المتعارف عليه إلى أيامنا هذه؛ حيث توفي - رحمه الله -في ريعان شبابه، قبل أن يخرج الكتاب إلى النور، فأخرجه تلميذه أبو الحسن الأخفش، دون وضع اسم له.

مكانة (الكتاب) وأهميته

بلغ كتاب سيبويه القمة فيما وصلت إليه الدراسات النحوية في أواخر القرن الثاني الهجري، بعد أن صنع فيه مؤلفه أعظم ما يصنع عالم لموضوعه، إذْ آتاه

حقه من التقصي والاستيعاب، ومن الدرس والنقد، وجهد ما أسعفه الجهد الكبير، والعقل المستنير لتحرير المسائل وترتيب الموضوعات، حتى استحقَّ كتابه في النحو والصرف أن يكون "الكتاب"، واستحقَّ هو به أن يكون في النحويين "الإمام".

وإنَّ مكانة كتاب سيبويه لتبرز في هذا النص الذي يرويه الجاحظ، حيث يقول: «أردتُ الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات -وزير المعتصم- ففكرتُ في شيء أهديه له، فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه، فلما وصلت إليه، قلت له: لم أجد شيئاً أهديه لك مثل هذا الكتاب، وقد اشتريته من ميراث الفرَّاء، فقال: والله ما أهديتَ لي شيئاً أحبَّ إليَّ منه».

وقد كان "محمد بن يزيد المبرِّد" إذا أراد مريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه، يقول له: هل ركبتَ البحر؟. تعظيماً له واستصعاباً لما فيه. وقال ابن كثير: وقد صنَّف سيبويه في النحو كتاباً لا يلحق شأوه، وشرحه أئمة النحاة بعده فانغمروا في لجج بحره، واستخرجوا من درره، ولم يبلغوا إلى قعره. وليس هناك أبلغ من قول المازني: "من أراد أن يعمل كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي".

وعن الأمانة العلمية فيه؛ قال أبو عبيدة: لمَّا مات سيبويه قيل ليونس بن حبيب: إنَّ سيبويه قد ألَّف كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل، قال يونس: ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل؟. جيئوني بكتابه، فلما نظر فيه رأى كل ما حكى، فقال: يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل في جميع ما حكاه، كما صدق فيما حكاه عني.

منهج سيبويه في الكتاب

كثيرًا ما يوضح الكتَّاب مناهجهم في بداية كتبهم، لكن سيبويه لم يتمكن من وضع مقدمة لكتابه، لذلك بقي منهج الكتاب لغزًا عصيًّا على الإدراك، حتى مضى بعض الباحثين إلى أن سيبويه لم يكن يعرف المنهج، وإنما هو قد أورد مسائل الكتاب متتابعة دون أيّ نظام أو رباط يربط بينها. ولو كان مؤلف الكتاب شخصًا آخر غير سيبويه، لجاز أن يسلم بهذا الرأي على ضعفه، أمَا والمؤلف سيبويه، فمن الواجب أن ننزهه عن هذا.

يقول المحقِّقون : إنَّ نهج سيبويه في دراسة النحو منهج الفطرة والطبع، يدرس أساليب الكلام في الأمثلة والنصوص؛ ليكشف عن الرأي فيها صحة وخطأ، أو حسنًا وقبحًا، أو كثرة وقلة، لا يكاد يلتزم بتعريف المصطلحات، ولا ترديدها بلفظ واحد، أو يفرع فروعًا، أو يشترط شروطًا، على نحو ما نرى في الكتب التي صنفت في عهد ازدهار الفلسفة واستبحار العلوم.

فهو في جملة الأمر؛ يقدم مادة النحو الأولى موفورة العناصر، كاملة المشخصات، لا يكاد يعوزها إلاَّ استخلاص الضوابط، وتصنيع الأصول على ما تقتضي الفلسفة المدروسة والمنطق الموضوع، وفرق ما بينه وبين الكتب التي جاءت بعد عصره، كفرق ما بين كتاب في الفتوى وكتاب في القانون، ذاك يجمع جزئيات يدرسها ويصنفها ويصدر أحكامًا فيها، والآخر يجمع كليات ينصفها ويشققها لتطبق على الجزئيات.

ويمكن أن يقال على الإجمال : إنه كان في تصنيف الكتاب يتجه إلى فكرة الباب كما تتمثل له، فيستحضرها ويضع المعالم لها، ثم يعرضها جملة أو آحادًا، وينظر فيها تصعيدًا وتصويبًا، يحلل التراكيب، ويؤول الألفاظ، ويقدر المحذوف، ويستخلص المعنى المراد، وفي خلال ذلك يوازن ويقيس، ويذكر ويعد، ويستفتي الذوق، ويستشهد ويلتمس العلل، ويروي القراءات، وأقوال العلماء، إمّا لمجرد النص والاستيعاب، وإمَّا للمناقشة وإعلان الرأي، وربما طاب له الحديث وأغراه البحث، فمضى ممعنًا متدفقًا يستكثر من الأمثلة والنصوص. واللغة عنده وحدة متماسكة، يفسِّر بعضها بعضًا، ويقاس بعضها على بعض، وهو في كل هذا يتكئ في ترتيب أبواب الكتاب على فكرة العامل أولاً وأخيرًا.

وعن **"الكتاب"** بإجمال؛ قال محمد بن يزيد : "لم يُعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه؛ وذلك أن الكتب المصنّفة في العلوم مضطرة إلى غيرها، وكتاب سيبويه لا يحتاج مَنْ فَهِمَه إلى غيره".

لمْ يمهل القدر سيبويه، حيث توفي في ريعان شبابه. ولم يكن له تلاميذ كثيرون، وكان من أبرز من تتلمذوا على يديه: أبو الحسن الأخفش، وهو الأخفش الأوسط، وقطرب المستنير.

قال أبو العباس : كان الأخفش أكبر سناً من سيبويه، وكانا جميعاً يطلبان. قال: فجاءه الأخفش يناظره بعد أن برع، فقال له الأخفش: إنما ناظرتك لأستفيد لا لغيره، أترأني أشك في هذا.

وأغلب الظن أن وفاة سيبويه لم تكن طبيعية؛ فإنه حين علم أنهم (بعد مناظرة الكسائي) تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائي، خرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى عليه، وقصد بلاد فارس، ولم يعرج على البصرة، وأقام هنالك مدةً إلى أن مات كمداً.

الكِسَائِي

عالِم القراءات والنحو، الإمام : أبو الحسن علي بن حمزة بن فيروز، الكوفي، (**الكسائي**) سُمِّيَ بذلك؛ لكساء كان يلتف فيه أيام تلاوته على حمزة.

ولد في الكوفة، وتعلم بها، وتنقل في البادية، وسكن بغداد، وتوفي بالريّ، عن سبعين عاماً.

قال الجاحظ : كان أثيراً عند الرشيد، حتى أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين. أصله من أولاد الفرس. وأخباره مع علماء الأدب في عصره كثيرة.

له تصانيف كثيرة، منها «**معاني القرآن**»، و«**المصادر**»، و«**الحروف**»، و«**القرآت**»، و«**النوادر**»، و«**المتشابه في القرآن**»، و«**ما يلحن فيه العوام**»، و«**ما تشبه من ألفاظ القرآن**»، و"**مختصر في النحو**»، وغيرها.

وقد جاء في (**مراتب النحويين**) : «حمل الكسائي إلى أبي الحسن الأخفش خمسين دينارا، وقرأ عليه كتاب سيبويه سرًا».

وقد حدَّث عن جعفر الصادق، والأعمش، وسليمان بن أرقم. واختار قراءة اشتهرت، وصارت إحدى السبع. وجَالَسَ في النحو الخليل، وسافر في بادية الحجاز مدةً للعربية.

قال الشافعي : من أراد أن يتبحر في النحو، فهو عيال على الكسائي.

قال ابن الأنباري : اجتمع فيه أنه كان أعلم الناس بالنحو، ووأحدهم في الغريب، وأوحد في علم القرآن، كان يجمع الناس، ويتلُو وَهُم يضبطون عنه حتى الوقوف.

وعن خلف، قال: كنتُ أحضر بين يدي الكسائي وهو يتلو، وينقطون على قراءته مصاحفهم.

تلا عليه : أبو عمر الدوري، وأبو الحارث الليث، ونصير الرازي، وقتيبة الأصبهاني، وأحمد بن أبي سريج، وأحمد بن جبير الأنطاكي، ويحيى الفراء، وأبو عبيد، وخلف البزار، وآخرون.

جاء "**الكسائي**" على كبر عند "الهباريين"، وهم أهل فصاحة، فسمع منهم سبب اللحن، وطريق النطق الفصيح؛ فتعلم الفصيح من الكلام، وإصلاح عجمة اللسان؛ وقد لازم "معاذ الهراء"، فتبعه حتى أنفد ما عنده. ثم توجه إلى البصرة؛ ليلقى إمامها الخليل، فعاتبه رجل قائلا: "تركتَ أسد الكوفة وتميمها وعندها الفصاحة، وجئتَ إلى البصرة، فقال للخليل: من أين أخذتَ علمك هذا؟. فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة؛ فخرج ورجع وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ.

رجع صاحبنا إلى البصرة ثانية يقصد الخليل، فعلِمَ بموته؛ فجلس يستمع لتلميذه: يونس بن حبيب، لكنه هذه المرة لم يكن مجرد طالب علم؛ فقد ضمَّ بين جنبيْه عِلم "معاذ الهراء"، ونقَّحه بما أخذ عن الخليل، كما عاشر أعراب البادية؛ فعرف طبائع الفصحاء في الكلام، وحفظ عنهم ما حفظ، ودوَّن عنهم ما دون، فوقف " موقف النظير من يونس بن حبيب، ودارت بينهما مسائل ومناظرات؛ أقرَّ له يونس فيها، وصدَّره موضعه.

وقد كُتِبَ للكسائي أن ينتشر علمه، فهيئتْ له الأسباب؛ فقد أتى به الخليفة المهدي (أبو الرشيد) ليعلِّمه، ثم صار مؤدباً لابنيْ الرشيد ـ بعد ذلك ـ الأمين والمأمون.

قال الكسائي : «صلَّيتُ بهارون الرشيد فأعجبتني قراءتي فغلطتُ في آية ما أخطأ فيها صبي قط؛ أردت أن أقول (لعلهم يرجعون) فقلت (لعلهم يرجعين)؛ قال: فو الله ما اجترأ هارون أن يقول لي أخطأت، ولكنه لمَّا سلمت قال لي: يا كسائي أيّ لغةٍ هذه، قلت: يا أمير المؤمنين قد يعثر الجواد؛ فقال: أمَّا هذا فنعم.

انظر، وتأمل؛ مَن كان بالأمس القريب يوجَّه من الهباريين للفصاحة؛ صار معلماً للفصاحة، ومَن كان بالأمس متهماً باللحن والخطأ؛ صار حجَّةً على الفصيح والغريب والجائز والواجب والممتنع، وهذا هو صنيع العلم بأهله.

وقد كان بعضهم يحسد الكسائي على مكانته التي كان يحظى بها عند الرشيد؛ فيروى أن القاضي أبا يوسف؛ كان يقع في الكسائي، ويقول: إنما يحسن شيئاً من كلام العرب؛ فبلغ الكسائي ذلك؛ فالتقيا عند الرشيد، فسأله الكسائي: ماذا تقول في رجل قال لامرأته أنتِ طالق طالق طالق؟. قال: واحدة. قال: فإنْ قال لها: أنتِ طالق أوْ طالق أوْ طالق؟ قال: واحدة. قال: فإنْ قال لها: أنت طالق ثمَّ طالق ثمَّ طالق؟ قال: واحدة. قال: فإنْ قال لها: أنتِ طالق وطالق وطالق؟ قال: واحدة. قال الكسائي: يا أمير المؤمنين؛ أخطأ يعقوب في اثنتين، وأصاب اثنتين.

أراد "الكسائي" أنْ يبرهن للقاضي أبي يوسف أن القضاء الذي هو صنعة أبي يوسف لا يستقيم أمره إلاّ بالنحو، فالسؤال الذي وجهه الكسائي في الفقه والقضاء، ولا جواب له إلاَّ بالنحو، وكانت هذه عادة صاحبنا في مناظراته مع القاضي أبي يوسف، إلى أن جعل أبا يوسف يمدح العربية والنحو.

طفق الكسائي بعد أن لاحظ خطأ أبي يوسف؛ يحلل له المسائل التي سأله فيها تحليلاً نحوياً دلالياً، فقال: «أمَّا قوله: أنت طالق طالق طالق فواحدة، لأنَّ الثنتين الباقيتيْن تأكيد كما يقول: أنت قائم قائم قائم، وأنتَ كريم كريم كريم، وأمَّا قوله: أنت طالق أوْ طالق أوْ طالق فهذا شك، فوقعت الأولى التي تتيقن، وأمَّا قوله: طالق ثمَّ طالق ثمَّ طالق فثلاث لأنه نسق، وكذلك طالق وطالق وطالق.

لقد حصّل "الكسائي" خلال ارتحاله عِلماً كثيراً، وقد كان نقد الهباريين في لحنه؛ فاتحة خير عليه لم ينقطع، فقد ألمَّ بعلوم شتى، ولم يكتفِ بالوقوف عند حد النحو.

ويدلنا على ذلك ما رواه صاحب (وفيات الأعيان) عن السجستاني، إذْ يقول: "حدثنا أبو حاتم قال: وفد علينا عامل من أهل الكوفة ولمْ أرَ في عمال السلطان أبرع منه، فدخلتُ عليه مسلَّماً، فقال لي: يا سجستاني، مَن علماؤكم بالبصرة قلت: الزيادي أعلمنا بعلم الأصمعي، والمازني أعلمنا بالنحو، وهلال الرأي أفقهنا، والشاذكوني من أعلمنا بالحديث، وأنا ـ رحمك الله ـ أُنسب إلى علم القرآن، وابن الكلبي من أكتبنا للشروط.

قال : فقال لكاتبه : إذا كان غدًا فاجمعهم إليَّ، قال: فجمعنا، وسأل: أيكم المازني، فقال أبو عثمان: ها أنا ذا، قال: هل يجزي في كفارة الطهارة عتق عبد أعور؟ قال المازني: لستُ صاحب فقه، أنا صاحب عربية، قال: يا زيادي، كيف يكتب بين بعل وامرأة خالعها على الثلث من صداقها؟. قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم هلال الرأي، قال: يا هلال، كم أسند ابن عون عن الحسن قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم الشاذكوني، قال: يا شاذكوني، من قرأ: (تثنوني صدورهم). قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم أبي حاتم، قال: يا أبا حاتم، كيف تكتب كتابًا إلى أمير المؤمنين تصف خصاصة أهل البصرة، وما أصابهم في الثمرة، وتسأله لهم النظر والنَّظِرة قلت: لستُ صاحب بلاغة وكتابة، أنا صاحب قرآن؛ قال: ما أقبح الرجل يتعاطى العلم خمسين سنة لا يعرف إلاَّ فنًّا واحدًا حتى إذا سئل عن غيره لم يَجُل فيه ولم يمُر، لكن عالمنا بالكوفة (الكسائي) لوْ سئل عن هذا كله لأجاب.

لمْ تقف مناظرات "الكسائي" عند القاضي أبي يوسف أو يونس بن حبيب البصري، بلْ إنَّ له مناظرات ممتعة مع كثير من العلماء، منها: مناظرته مع سيبويه التي عُرِفَتْ

بالمسألة الزنبورية في النحو. كما كانت له مناظرات مع اليزيدي، وصولات وجولات اتسمت بالتنافس القوي الذي كان مرده إلى أنَّ الكسائي قد آل به الأمر إلى أن يؤدِّب الأمين، وأن يؤدِّب اليزيدي المأمون.

ومن المناظرات التي دارت بينهما ما روي من أن الرشيد جمع بين الكسائي، وأبي محمد اليزيدي، يتناظران في مجلسه، فسألهما الكرماني عن قول الشاعر: من مجزوء الرمل:

ما رأينا خَرِبًا يَنقر عنه البَيضَ صَقْرُ   لاَ يَكُونُ العَيرُ مُهرًا لا يكون؛ المُهْر مُهرُ

فقال الكسائي : يجب أن يكون المهر منصوبًا على أنه خبر كان، ففي البيت على هذا إقواء. فقال اليزيدي: الشِّعر صواب؛ لأنَّ الكلام قد تمَّ عند قوله: لا يكون الثانية، ثمَّ استأنف، فقال: المهر مهر، ثم ضرب بقلنسوته على الأرض، وقال: أنا أبو محمد. فقال له يحيى: أتكتني بحضرة أمير المؤمنين؟، فقال الرشيد: واللّه، إنَّ خَطَأَ الكسائي مع حسن أدبه لأحبَّ إليَّ من صوابك مع سوء أدبك؟ .

وما كان التنافس ليحمل اليزيدي على بغض الكسائي، بلْ كان يعرف له قدره ويجلُّه، وقد رثاه بعد أن خرج "الكسائي" مع هارون الرشيد إلى الري، وكان بصحبتهما محمد بن الحسن القاضي صاحب أبي حنيفة، فمات القاضي، ومات الكسائي في بلدٍ واحد، وهو قرية "رنبويه" بالري، وكانا متوجهيْن مع الرشيد إلى خراسان، سنة 189هـ.. فقًال الرشيد: (دفنَّا الفقه والنحو بالري)؛ وباغت الخبر اليزيدي فأحزنه، وحرك أشجانه، فقال :

تصرَّمت الدُّنْيَا فَلَيْسَ خلودُ   وَمَا قد يُرَى من بهجةٍ سيبيدُ

أَسِيتُ على قَاضِي الْقُضَاة محمدٍ   فأذريتُ دمعاً والفؤادُ عميدُ

وقلتُ إذا مَا الخطبُ أشكلَ مَنْ لنا   بإيضاحه يوماً وَأَنت فقيدُ

فأوجعني موت الْكِسَائي بعده   وكادت بِي الأرضُ الفضاءُ تَمِيدُ

هما عالِمان أوديا وتخرَّما   وَمَا لَهما فِي العالمين نَدِيدُ

فحزني إنْ تخطر على القلب خطرة   بذكرهما حتى الممات جديدُ

قَالَ الرشيد : أحسنتَ يَا بصريّ، ظلمته فِي حَيَاته وأنصفته بعد مَوته.

بهذا نختم هذه الرحلة الممتعة التي تجولنا من خلالها حول الكوفة والبصرة، وبوادي الحجاز ونجد وتهامة وبغداد والري؛ مع عالِم القراءات واللغة والنحو (الكسائي) عالم الكوفة، بلْ عالِم الإسلام والمسلمين أجمعين، رضي الله عنه، ونفعنا بعلمه وأدبه.

ابن جِنِّــي

أبو الفتح، عثمان بن جِنّي الموصلي(330-392هـ) من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف، وصاحب التصانيف المتداولة في اللغة. ولم يتكلم أحد -كما قال ياقوت- في التصريف أدق كلامًا منه.

أبوه (**جِنِّي**) كان عبدًا روميًّا، ولم يُعرف عنه شيء قبل مجيئه الموصل، وإلى هذا أشار ابن جني نفسه، بقوله في جملة أبيات :

فـإنْ أصبـح بـلا نسـبٍ	**فعلمـي في الـورى نسـبي**
فعلمـي في الـورى نسبـي	**قـرومٍ سـادة نجـب**
قيـاصـرة إذا نطقـوا	**أرَمّ الدهـر ذو الخطـب**
أولاك دعـا النبـيُّ لهـم	**كفـى شرفـاً دعـاء نبـي**

أقام "**ابن جنِّي**" بعد الموصل ببغداد، وظل يدرس بها العلم إلى أن توفي، وقد صحب أبا علي الفارسي أربعين سنة، ولمّا مات شيخه تصدر ابن جنِّي في مجلسه ببغداد.

وقد كان لابن جنِّي علاقة خاصة بأبي الطيب المتنبي، فقد صحبه دهراً طويلاً، وقرأ عليه ديوانه، ثم شرحه بعد ذلك، ونبه إلى معانيه وإعرابه، قال ابن خلكان: "ورأيتُ في شرحه قال: سأل شخص أبا الطيب المتنبي، عن قوله:

بادٍ هواك صبرت أمْ لم تصبرا *** ....

فقال : كيف أثبت الألف في (تصبرا) مع وجود (لـمْ) الجازمة، وكان من حقه أن يقول "لم تصبر"؟. فقال المتنبي: لو كان (ابن جني) هنا لأجابك، وهذه الألف هي بدل من نون التأكيد الخفيفة، كان في الأصل "لم تصبرن"، ونون التأكيد الخفيفة إذا وقف الإنسان عليها أبدل منها ألفًا. كقول الأعشى :

ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا *** ....

وكان الأصل "فاعبدن" فلمّا وقف أتى بالألف بدلاً". فكان المتنبي يحترم ابن جنِّي كثيرًا، ويجلُّه ويقدِّره، وكان يقول عنه: "هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس".

ولتمكُّن ابن جنِّي من شِعر أبي الطيب، قال عنه أبو الطيب: "ابن جنِّي أعلم بشعري".

أسوة بأستاذه وشيخه أبي علي الفارسي؛ فقد كان ابنِ جني بصرياً، يجري في كتبه ومباحثه على أصول المدرسة البصرية، ولا يألو جهداً في الدفاع عنها، على أنه كان يأخذ العلم أياً كان مصدره، وبغض النظر عن مذهب أهله، ولهذا نجده كثير النقل عن سيبويه والأخفش والأصمعي والمازني وأبي زيد والفراء والمبرد والخليلِ وثعلب والكسائي وأمثالهم، وهو حين يذكرهم في كتبه يثني عليهم، فيقول مثلاً: "باب في قلب لفظ إلى لفظ بالصنعة والتلطف لا بالإقدام والتعجرف"، وكان هذا الرجل كبيرًا في السداد والثقة عند أصحابنا"، يعني الكسائي.

وإنَّ من آرائه النحوية: تجويزه إظهار متعلق الظرف الواقع خبرًا في الكون العام، نحو "زيد عندك"، قال ابن يعيش: "وقد صرح ابن جني بجواز إظهاره".

وهو يُجيز أيضًا أن يقال: مررتُ بزيد وعمرًا، بعطف عمرًا على محل زيد المجرور بالحرف، وهذا لا يُجيزه النحويون؛ لأنَّ شرط العطف على المحل عندهم ظهور الإعراب المحلي في فصيح الكلام.

لمْ يكن ابن جنِّي إمامًا في النحو والصرف فحسب، ولم يكن من العلماء الذين يقتصرون على مجالس العلم والتعليم، أو حتى التأليف، إنما كان كمن يريد أن يملك نواصي اللغة، وهو الأمر الذي جعل "الثعالبـي" ينعته في (**يتيمة الدهر**) بقوله: "إليه انتهت الرياسة في الأدب". وقال الباخرزي في (**دمية القصر**) موضحًا: "ليس لأحدٍ من أئمة الأدب في فتح المقفلات، وشرح المشكلات ما له؛ فقد وقع عليها من ثمرات الأعراب، ولا سيّما في علم الإعراب".

وكان يقرض الشِّعر وينظمه بما يعبِّر عن حسن تأتِّيهِ في الصنعة على طريقة شعراء دهره، وقد قال الثعالبي: "كان الشعر أقلّ خلاله لعظم قدره، وارتفاع حاله".

وقال الباخرزي في (**دمية القصر**) : "فوربيّ، إنّه كشف الغطاء عن شعر المتنبّي، وما كنتُ أعلم به أنّه ينظم القريض، أو يسيغ ذلك المتنبّي، وما كنتُ أعلم به أنّه ينظم القريض، حتّى قرأت له مرثيّته في المتنبّي، أوَّلها :

غاض القريض وأودت نضرة الأدب وصوّحت بعد ريٍّ دوحة الكتـــب.

كتاب "الخصائص"

ما إنْ يذكر "**ابن جني**" حتى يشرد الذهن إلى كتابه الشهير (**الخصائص**). وبالمثل إذا كان الحديث عن "الخصائص" فإنه يذهب إلى مؤلفه ابن جني، والخصائص هذا هو أجلّ تآليف ابن جنِّي التي أبر بها على المتقدمين وأعجز المتأخرين، والتي عناها في بائيته، بقوله :

تناقلها الرواة لها	**على الأجفان من حدب**
فيرتع في أزاهرها	**ملوك العجم والعرب**
فمن مغن إلى مدنٍ	**إلى مثنٍ إلى طرب**

وهو كتاب في أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه، احتذى في مباحثه النحوية منهج الحنفية في أصول الفقه، وقد بناه على اثنين وستين ومائة بابا، تبدأ بباب "القول على الفصل بين الكلام والقول"، وتنتهي بباب في "المستحيل وصحة قياس الفروع على فساد الأصول".

وإنْ كان الكتاب يبحث في خصائص اللغة العربية وفلسفتها ومشكلاتها، إلاَّ إنه اشتمل أيضاً على أبواب من شأنها أن تخرج عن هذا النطاق، وذلك كبحثه في الفرق بين الكلام والقول، وبحثه في أصل اللغة: إلهام هي أمْ اصطلاح؟ وغيرها، وفي ذلك يقول ابن جني: "... وليكون هذا الكتاب ذاهبًا في جهات النظر؛ إذْ ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجرّ والجزم؛ لأنَّ هذا أمر فُرِغَ منه في أكثر الكتب المصنَّفة فيه، وإنما هذا الكتاب مبنيّ على إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي...".

ومما يُعدُّ من النوادر في كتابه: الباب الخامس والأربعون بعد المائة في "القول على فوائت الكتاب لسيبويه"، والباب الحادي والخمسون بعد المائة في "ما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية"، والباب الثامن والخمسون بعد المائة في "سقطات العلماء".

مؤلفات ابن جنِّي

(**الخصائص، التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله السكري**، سر الصناعة، **تفسير تصريف المازني، شرح المقصور والممدود لابن السكيت، تعاقب العربية، تفسير ديوان المتنبي الكبير، اللمع في العربية، مختصر التصريف، مختصر العروض والقوافي، الألفاظ المهموزة، المتقضب، المحتسب في شرح الشواذ، تفسير أرجوزة أبي نواس، مقدسات أبواب التصريف،**

النقض على ابن وكيعٍ في شعر المتنبي وتخطئته، المغرب في شرح القوافي، الفصل بين الكلام الخاص والكلام العام، الوقف والابتداء، الفرق، المعاني المجردة، الفائق، الخطيب، الأراجيز، شرح الفصيح، شرح الكافي في القوافي، رسالةٍ في مد الأصوات ومقادير المدات، المذكر والمؤنث، المنتصف، تفسير "العلويات" وهي أربع قصائد للشريف الرضي، تفسير المذكر والمؤنث ليعقوب ...) إلخ.

ابن فارس

أبو الحسين؛ أحمد بن فارس، القزويني، المعروف بالرازي المالكي اللغوي (المتوفى سنة 395هـ) صاحب (**المجمل**) في اللغة. كان كريمًا جوادًا لا يُبقِي شيئًا، وربما سُئل فيهب ثيابه وفرش بيته. كان أديبًا بارعًا، وشاعرًا مجيدًا؛ من شِعره يخاطب طلاب العلم :

فــإذا كان يؤذيك حر الصيـف	**وكرب الخريف وبرد الشتا**
ويُلهِيك حسن زمان الربيع	**فأخذك العلم قل لي متـى؟.**

بعد أن استوطن "الرَّيَّ"؛ انتقل من مذهب الإمام الشافعي إلى مذهب الإمام مالك في الفقه، وحين سُئل عن ذلك؟ أجاب: "أخذتني الحميَّة لهذا الإمام المقبول على جميع الألسنة أن يخلو مثل هذا البلد من مذهبه؛ فإنَّ "الرَّيَّ" أجمع البلاد للمقالات والاختلاف".

يقول عبد السلام هارون: "ابن فارس يلم بالحياة الأدبية في عصره، ولا يتزمَّت كما يتزمت كثير من اللغويين الذين ينصرفون عن إنتاج معاصريهم، فهو يصغي إلى نشيدهم، ويروي لكثير منهم، وينتصر للمحسن منهم".

تتلمذ ابن فارس على كثير من العلماء؛ فقد سمع بقزوين أباه فارس بن زكريا، وعلي بن إبراهيم بن سلمة القطان، وعلي بن مهرويه، وسليمان الفامي، وأحمد بن علان. وكان من شيوخه أيضًا: عبد الرحمن الجلاب، وابن حميد الهمذانيين، وأبو الحسن صاحب أبي عبيد القاسم بن سلام، وقد روى عنه ابن فارس كتابَيْ أبي عبيد: **غريب الحديث**، و**مصنف الغريب**.

كما رحل إلى زنجان فأخذ عن أبي بكر الخطيب راوية ثعلب، وأخذ عن أبي عبد الله المنجم، وسمع ببغداد من محمد بن عبد الله الدُّوري. وكان من شيوخه أيضًا: أبو بكر الأصفهاني، وعلي بن أحمد الساوي، وأبو القاسم سليمان الطبراني.

في ذات الوقت؛ تتلمذ على يديه كثير، من أشهرهم: بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات. وأبو طالب بن فخر الدَّولة البويهي، والصاحب ابن عبَّاد. كما روى عنه حمزة بن يوسف الجرجاني، والقاضي الصميري، وأبو سهل بن زيرك، وأبو منصور الصوفي، وابن المحتسب، وأبو ذر الهروي، والقاضي أبو زرعة الرازي، وأبو العباس

الغضبان، والقاضي الديباجي، وعلي بن القاسم الخياط المقرئ، وقد قرأ عليه كتابه **(أوجز السير لخير البشر)**.

آراء العلماء في مؤلفات ابن فارس

قال تلميذه "**الصاحب بن عبَّاد**" عن مؤلفاته: "**شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف، وأمِنَ فيه من التصحيف**". وحين كان ياقوت يستعرض مؤلفات ابن فارس في معجمه، جاء عند **(المقاييس)** فقال: "وهو كتاب جليل، لم يصنَّف مثله".

وعن كتاب **(المقاييس)** يقول عبد السلام هارون: "ابن فارس بلغ في كتاب **(المقاييس)** الغاية في الحذق باللغة، وتكنُّه أسرارها، وفهم أصولها؛ إذْ يردُّ مفرداتِ كلِّ مادة من مواد اللغة إلى أصولها المعنوية المشتركة فلا يكاد يخطئه التوفيق، وقد انفرد من بين اللغويين بهذا التأليف، لم يسبقه أحدٌ ولم يخلُفْه أحد".

قال الذهبي: "وكان رأسًا في الأدب، بصيرًا بفقه مالك، مناظرًا متكلمًا على طريقة أهل الحق، ومذهبه في النحو على طريقة الكوفيين، جمع إتقان العلم إلى ظرف أهل الكتابة والشعر". ويقول القاضي عياض: "وكان أديبًا شاعرًا مجيدًا في ذلك. وقد ذكره الثعالبي في يتيمته في جملة شعراء أهل الجبل من كتابه".

وقال الزنجاجي: "كان ابن فارس من أئمة اللغة، محتجًّا به في جميع الجهات، غير منازع".

لابن فارس من التصانيف: كتاب المجمل، متخير الألفاظ، فقه اللغة، غريب إعراب القرآن، تفسير أسماء النبيّ، مقدمة نحو، دارات العرب، حلية الفقهاء، الفرق، مقدمة في الفرائض، ذخائر الكلمات، شرح رسالة الزهري إلى عبد الملك بن مروان، كتاب الحجر، سيرة النبيّ، كتاب الليل والنهار، كتاب العم والخال، كتاب أصول الفقه، كتاب أخلاق النبيّ، (الصاحبي) صنَّفه لخزانة الصاحب، (جامع التأويل في تفسير القرآن) أربع مجلدات، كتاب الشِّيات والحِلَى، كتاب خلق الإنسان، كتاب الحماسة المحدثة، كتاب (مقاييس اللغة) وهو جليل لم يصنَّف مثله، وكفاية المتعلمين في اختلاف النحويين، وغيرها.

منهج ابن فارس في المجمل والمقاييس

من بين كتب المعاجم التي وضعت في اللغة؛ انفرد "ابن فارس" في معجميْه **(المجمل)** و**(المقاييس)** بطريقة خاصة. يقول عبد السلام هارون: "جرى ابن فارس

على طريقة فذَّةٍ بين مؤلفي المعجم في وضع معجميه: المجمل والمقاييس؛ فهو لم يرتِّب موادهما على أوائل الحروف وتقليباتها كما صنع ابن دريد في الجمهرة، ولم يطردها على أبواب أواخر الكلمات كما ابتدع الجوهري في الصحاح، وكما فعل ابن منظور والفيروزآبادي في معجميهما، ولم يَنْسُقْها على أوائل الحروف فقط كما صنع الزمخشري في أساس البلاغة، والفيومي في المصباح المنير، ولكنه سلك طريقًا خاصًّا به، لم يفطن إليه أحد من العلماء ولا نَبَّه عليه".

وعن هذا النظام الجديد، يقول عبد السلام هارون: "وكنتُ قد ظننتُ أنه لم يلتزم نظامًا في إيراد المواد على أوائل الحروفِ، وأنه ساقها في أبوابها هَمَلاً على غير نظام، ولكنه بتتبُّع المجمل والمقاييس ألفَيْته يلتزم النظام الدقيق التالي:

1. فهو قد قسَّم مواد اللغة أوَّلاً إلى كُتُب، تبدأ بكتاب الهمزة وتنتهي بكتاب الياء.
2. ثم قسَّم كل كتاب إلى أبواب ثلاثة: أوَّلها باب الثنائي المضاعف والمطابق، وثانيها أبواب الثلاثي الأصول من المواد، وثالثها بابُ ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرفٍ أصلية.
3. والأمر الدقيق في هذا التقسيم أن كل قسم من القسمين الأوَّلين قد التُزم فيه ترتيب خاص، هو ألاَّ يبدأ بعد الحرفِ الأوَّل إلا بالذي يليه؛ ولذا جاء بابُ المضاعف في كتاب الهمزة، وباب الثلاثي مما أوله همزة وباء مرتبًا ترتيبًا طبيعيًّا على نسق حروفِ الهجاءِ.

ولكن في (باب الهمزة والتاء وما يثلثهما) يتوقع القارئ أن يأتي المؤلف بالمواد على هذا الترتيب: (أتب، أتل، أتم، أتن، أته، أتو، أتى)، ولكن الباء في (أتب) لا تلي التاء بل تسبقها؛ ولذلك أخَّرها في الترتيب إلى آخر الباب، فجعلها بعد مادة (أتى).

وفي باب التاء من المضاعف يذكر أوَّلاً (تخ) ثم (تر) إلى أن تنتهي الحروف، ثم يرجع إلى التاء والباء (تب)؛ لأن أقرب ما يلي التاء من الحروفِ في المواد المستعملة هو الخاء.

وفي أبواب الثلاثي من التاء لا يذكر أولاً التاء والهمزة وما يثلثهما، بل يؤخر هذا إلى أواخر الأبواب، ويبدأ بباب التاء والجيم وما يثلثهما، ثم باب التاء والحاء وما يثلثهما، وهكذا إلى أن ينتهي من الحروف، ثم يرجع أدراجه ويستأنف الترتيب من باب التاء والهمزة وما يثلثهما؛ وذلك لأن أقرب ما يلي التاء من الحروفِ في المواد

المستعملة هو الجيم. وتجد أيضًا أن الحرفَ الثالث يراعى فيه هذا الترتيب، ففي باب التاء والواو وما يثلثهما يبدأ بـ (توي) ثم (توب) ثم (توت) إلى آخره؛ وذلك لأن أقرب الحروفِ التي تلي الواو هو الياء.

وفي باب الثاء من المضاعف لا يبدأ بالثَّاء والهمزة ثم بالثَّاء والباء، بل يُرْجِئ ذلك إلى أواخر الأبواب، ويبدأ بالثَّاء والجيم (ثج)، ثم بالثَّاء والراء (ثر) إلى أن تنتهي الحروف، ثم يستأنف الترتيب بالثَّاء الهمزة (ثأ)، ثم بالثَّاء والبَاء (ثب).

وفي أبواب الثلاثي من الثَّاء لا يبدأ بالثَّاء والهمزة وما يثلثهما ثم يعقِّب بالثَّاء والباء وما يثلثهما، بل يدع ذلك إلى أواخر الأبواب؛ فيبدأ بالثَّاء والجيم وما يثلثهما إلى أن تنتهي الحروف، ثم يرجع إلى الأبواب التي تركها. وتجد أيضًا أن الحرف الثَّالث يراعى فيه الترتيب، ففي باب الثَّاء واللام وما يثلثهما يكون هذا الترتيب (ثلم، ثلب، ثلث، ثلج،...) إلخ.

وفي باب الجيم من المضاعف يبدأ بالجيم والحاء (جح) إلى أن تنتهي الحروف (جو)، ثم ينسقُ بعد ذلك (جأ، جب).

وفي أبوب الثلاثي من الجيم يبدأ بباب الجيم والحاء وما يثلثهما إلى أن تنتهي الحروف، ثم يذكر باب الجيم والهمزة وما يثلثهما، ثم باب الجيم والباء، ثم الجيم والثاء، مع مراعاة الترتيب في الحرف الثالث، ففي الجيم والنون وما يثلثهما يبدأ أولاً بـ (جنه) ثم (جني)، ويعود بعد ذلك إلى (جنأ، جنب، جنث) إلخ".

رحم الله "**ابن فـارس**" الذي تضرَّع إلى مولاه ـ قبل وفاته بيوميْن ـ قائلاً:

يا ربِّ إنَّ ذنوبي قد أحطتَ بها	**علمًا وبي وبإعلاني وإسـراري**
أنا الموحِّـد لكني المقـرُّ بهـا	**فهبْ ذنوبي لتوحيدي وإقراري.**

الجوهـــري

أبو نصر، إسماعيل بن حمَّاد الجوهري، أحد أركان اللغة، أخذ العربية عن خاله إبراهيم بن إسحاق الفارابي، صاحب (**ديوان الأدب**).

ولد (**الجوهري**) في فاراب من بلاد الترك بآسيا الوسطى، ثم سافر إلى العراقَ، وقرأ علم العربية على شَيْخَيْ زمانه: أبي علي الفارسي، وأبي سعيد السيرافي. بعدها سافر إلى الحجاز، ومنها إلى نيسابور، فلم يزل مقيمًا بها على التدريس والتأليف، وكتابة المصاحف والدفاتر، حتى آخر حياته.

وهو من أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنةً وعلمًا. وصفه الذهبي بقوله: "وكان من أذكياء العالم". وقد برع في علم اللغة والأدب، حتى صار أحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة.

ولم يقف نبوغ الجوهري عند حدِّ علوم اللغة وآدابها فقط، بل إنه تطرق أيضًا إلى فنون وعلوم أخرى، كان أبرزها ما كان من جودة خطِّه وحسنه وجماله، حتى عُدَّ في الخط المنسوب مع ابن مُقْلة، وابن البوَّاب، ومهلهل، واليزيدي.

ذكره أبو الحسين الباخرزي، فقال: "هو صاحب صحاح اللغة، لم يِتأخر فيها عن شرط أقرانه، ولا انحدر عن درجة أبناء زمانه". وقال ابن بَرِّي: "الجوهري أَنْحَى اللغويين".

وقال الثعالبي في (**يتيمة الدهر**) : "الجوهري من أعاجيب الدنيا، وهو إمام في علم لغة العرب، وخطه يضرب به المثل في الحسن، وله كتاب الصحاح".

قال عنه ياقوت الحموي: "هو إمام في علم اللغة والأدب". كما وصف -الحموي- كتابه "**الصحاح في اللغة**"، فقال: "وهذا الكتاب هو الذي بأيدي الناس اليوم، وعليه اعتمادهم، أحسن تصنيفه، وجوَّد تأليفه، وقرَّب متناوله، وأبرَّ في ترتيبه على من تقدَّمه، يدل وضعه على قريحة سالمة، ونفس عالمة؛ فهو أحسن من الجمهرة، وأوقع من تهذيب اللغة، وأقرب متناولاً من مجمل اللغة". وفيه يقول ابن عبدوسٍ النيسابوري:

هذا كتابُ الصِّحاح سيِّدُ ما ... صُنِّف قبل الصحاح في الأدبِ
تَشْمَلُ أبوابـهُ وَتَجْمَعُ مـا ... فُرِّق في غيره مـن الكُتُـبِ.

منهج الجوهري في كتابه (الصحاح)

يعدُّ "**الجوهري**" في صحاحه هذا مبتكرًا ومطورًا في ترتيب المعاجم العربية، وهو مبدع من أعلام اللغة، وقد أدرك بوعيه ما يقاسيه الباحث في معجم العين، وكذا في جمهرة ابن دريد التي أراد بها صاحبها أن يخفف عن قارئها فأثقل عليه ولم يوفَّق في مرماه، وكذلك الأزهري لم يغيِّر كثيرًا عن نهج من سبقه؛ فكانت مسألة اللغة عالقة بين هذه المعاجم، لا يتمكن القارئ بسبيلٍ سهل إلى إدراك مبتغاه والوصول إلى ضالته.

من هنا، فقد صبَّ الجوهري جهده في وضع معجمه، بحيث يتمكن المطَّلِع من الوصول إلى ما يريد بما لا ينقص ولا يزيد.

وقد اهتم فيه بإيراد كل صحيح من كلام العرب مقتصرًا عليه، يقول السيوطي ـ بعد أن قام بسرد طائفة من كتب اللغة المشهورة ـ "وغالب هذه الكتب لم يلتزم فيها مؤلفوها الصحيحَ، بل جمعوا فيها ما صحَّ وغَيْرَه، وينبهون على ما لم يثبت غالبًا، وأولُ مَن التزمَ الصحيح مقتصرًا عليه الإمامُ أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد الجَوْهَري؛ ولهذا سمَّى كتابه بالصحاح".

وفي مقدمته قال الجوهري: "قد أوْدَعْتُ هذا الكتاب ما صحَّ عندي من هذه اللغة التي شرَّف اللَّه منزلتها، وجعل عِلْم الدِّين والدنيا مَنُوطًا بمعرفتها، على ترتيبٍ لم أُسْبَق إليه، وتهذيبٍ لم أُغلبْ عليه في ثمانية وعشرين بابًا، وكل باب منها ثمانية وعشرون فصلاً على عدد حروف المعجم وترتيبها، إلا أن يهمل من الأبواب جنس من الفصول، بعد تحصيلها بالعراق روايةً، وإتقانها درايةً، ومُشافهتي بها العربَ العاربة في ديارهم بالبادية، ولم آلُ في ذلك نُصْحًا، ولا ادَّخَرتُ وسعًا".

ومن خلال مقدمته تلك، فإنَّ الجوهري يفيد أنه قسَّم كتابه الصحاح إلى ثمانية وعشرين بابًا بحسب أواخر الكلم، ثم نظر كَرَّةً ثانيةً إلى أوائل الكلم فجعل في كل باب فصوله، بعد أن يجرِّد المادة من حروف الزيادة في أوَّلها وآخرها. فمثال المزيد: الأرنب، والأزيب، والأنبوبة؛ لأنَّ الكلمة إذا كان في أولها ألف وبعدها ثلاثة أحرف فأكثر، تكون زائدة لا تُعَدّ من الأصول، فيقال: في أرنب وزنه أفعل، وفي أنبوبة أفعولة، فالحروف المقابلة للفاء والعين واللام هي الأصول، وتأسيسًا على هذا الشرح، فإنه يذكر هذه الألفاظ الثلاثة في فصل الراء والزاي والنون من باب الباء.

وكذلك ما بعد الحرف الأول، رتَّبه على ترتيب حروف المعجم، فإذا قال: باب الباء، بدأ فيه بفصل الألف، وجاء فيه بحروف الوسط على الترتيب حتى يصل إلى الألف

التي تليها الواو، فيقدِّمها على ما تليها الهاء، وهكذا في كل فصل، يقدِّم فصل الواو من كل باب على فصل الهاء، ويؤخِّر الياء بخلاف الأبواب، فإنه قدم فيها باب الهاء قبل الواو ليجعلها مع الياء في باب واحد، فصارت الحروف التي بوَّب لها سبعة وعشرين، إلا أنه لما كانت الألف على قسمين مهموزة ولينة، جعل الأولى في أول الأبواب، وعقد للثانية اللينة غير المنقلبة عن واو أو ياء، فكملت الأبواب ثمانية وعشرين بابًا.

في وصف عام لكتاب الصحاح، قال أبو زكريا الخطيب التِّبريزي اللغوي: "كتاب الصِّحاح هذا كتابٌ حسنُ الترتيب، سَهلُ المطلبِ لِما يُراد منه، وقد أتى بأشياءَ حسنة، وتفاسير مشكلات من اللغة، إلاَّ أنه مع ذلك فيه تصحيفٌ".

وللجوهري مؤلفات أخرى مفيدة غير الصحاح الذي يقع في جزءين، فله كتاب في (**العروض**)، وهو كتاب جيد، سمَّاه (**عروض الورقة**)، وله كتاب (**المقدمة في النحو**).

عن وفاة الجوهري وردت قصة غريبة، أجمعت عليها مختلف المصادر التاريخية؛ مؤداها: أنه صنع جناحيْن من خشب وربطهما بحبل، ثم انتقل إلى الجامع القديم بنيسابور، فصعد إلى سطحه وقال: أيُّها الناس، إني عملتُ في الدنيا شيئًا لم أُسْبَق إليه، فسأعمل للآخرة أمرًا لم أسبق إليه. وضمَّ إلى جنبيه مصراعي بابٍ وسَّطَهما بحبلٍ، وصعد مكانًا عاليًا من الجامع، وزعم أنه يطير، فوقع فمات. وكان ذلك في سنة ستٍّ وتسعين وثلاثمائة من الهجرة.

الثعالبي

عبدالملك بن محمد بن إسماعيل(350-429 هـ) يُعرف **بأبي منصور الثعالبي النيسابوري**، أحد أدباء العربية ونوابغها، صاحب الكتاب الشهير (**يتيمة الدهر**).

كان كثير الحفظ، فعرف بحافظ نيسابور، وأوتي حظاً من البيان بزّ فيه أقرانه، فلقب بجاحظ زمانه، وعاش بنيسابور حجّة فيما يروي، ثقة فيما يحدِث، مكيناً في علمه، ضليعاً في فنه، فقصد إليه القاصدون، يضربون إليه آباط الإبل، بعد أنْ سار ذكره في الآفاق سير المثل.

في شبابه؛ عمِلَ (فرَّاء) يخيط جلود الثعالب؛ فنُسِبَ إلى صناعته، ثمَّ انتقل من حياكة الفراء إلى دراسة اللغة والأدب والتاريخ، فنبغ واشتهر. بلْ كان قِبلة أنظار المؤلفين بعده، فاحتذى حذوه وسار على نهجه كثير من مشرق العالم الإسلامي ومغربه.

خشي (**الثعالبي**) أن يكون للشعراء السابقين على عصره فضل في الأدب والشِّعر وفنونه ولا يكون لشعراء عصره مثل ذلك، فندب نفسه لهذا، وظهرت براعته في كتابه "**يتيمة الدهر**". وغايته من هذا الكتاب خدمة اللغة العربية عن طريق الشِّعر الذي يرى فيه فضلاً وعلمًا. ولم يقتصر فيه على ترجمة خالصة للشعراء والاستشهاد بالنصوص الشعرية، بلْ أورد آراء نقدية قيمّة، وتعليلات أدبية ممتعة، تنم عن ذوق أدبي رفيع، كما يعمد في كثير من الأحيان إلى المقارنة والموازنة بين من يترجم له وبين غيره من الشعراء، ويكشف ببراعة عن مدى تأثر الشَّاعر بغيره من السابقين والمعاصرين.

وقد شهِد له أعلام الأدب وأقطاب البيان، فقد قال ابن بسَّام: "كان في وقته راعي تلعات العلم، وجامع أشتات النثر والنظم، رأس المؤلفين في زمانه، والمصنفين بحكم أقرانه، طلعت دواوينه في المشارق والمغارب، طلوع النجم في الغياهب، وتآليفه أشهر مواضع، وأبهر مطالع، وأكثر من أن يستوفيها حدّ أوْ وصف، أوْ يوفِّي حقوقها نظم أوْ رصف".

وقال الباخرزي: "هو زبدة الأحقاب والدهور، لمْ ترَ العيون مثله، ولا أنكرت الأعيان فضله، وكيف ينكر وهو المزن يحمد بكل لسان، وكيف يستر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان".

وقال ابن الأنباري في "**نزهة الألباب**" : «وأمَّا الثعالبي فإنه كان أديباً فاضلاً، فصيحاً بليغاً».

وقال إبراهيم الحصري في كتابه "**زهر الآداب**": "أبو منصور فريد دهره، وقريع عصره، ونسيج وحده، وله مصنفات في العلم والأدب، تشهد له بأعلى الرتب".

ولعلَّ الحكاية التي جرت بينه وبين ابن المرزبان؛ تعطي صورة عن شاعرية الثعالبي.

قال الثعالبي : قال لي ابن المرزبان يوماً: إنَّ من الشعراء من شَلْشَل، ومنهم من سَلْسَل، ومنهم من قَلْقَل، ومنهم من بَلْبَل. {يريد بمن شلشل: **الأعشى** في قوله :

وقد أروح إلى الحانوت يتبعني	**شاوٍ مِشَلٌ شَلولٌ شُلْشُلٌ شَـــوِلُ**

وبمن سلسل: مسلم بن الوليد في قوله :

سُلَّتْ وسُلَّتْ ثم سُلَّ سَليلهـــا	**فأتى سَليلُ سَليلها مَسْلـــولا**

وبمن قلقل: المتنبِّـي في قوله :

فقَلْقَلْتُ بالهمِّ الذي قَلْقَل الحَشا	**قَلاقـل عيسٍ كلهـن قَلاقِـــلُ**

فقال الثعالبي :

"إنِّي أخاف أن أكون رابع الشعراء؛ أراد قول القائل: الشعراء فاعلمنّ أربعة: فشاعر يجري ولا يُجرى معه، وشاعر من حقه أنْ ترفعه، وشاعر من حقه أنْ تسمعه، وشاعر من حقه أنْ تصفعه. مما جعلني أُنشِدُ قائلاً :

وإذا البلابل أفصحت بلغاتهـــا	**فانفِ البلابل باحتساء بَلابِـــلِ**

فكان بهذا رابع فحول أصحاب القدم الثابتة في الشِّعر: (الأعشى، ومسلم بن الوليد، والمتنبي).

وفي هذا الصدد؛ نذكر بعضاً من شِعر الثعالبي، فقد أنشد الأمير أبي الفضل الميكالي، قائلاً :

لكَ في المفاخر معجزات جمَّة	**أبدا لغيرك في الورى لم تُجمَعِ**
بحران بحر في البلاغة شابه	**شِعر الوليد وحسن لفظ الأصمعي**
وتَرَسُّل الصابي يزين عُلوَّه	**خط بن مقلة ذو المقام الأرفعِ**
كالنور أوْ كالسحر أو كالبدر أو	**كالوشي في برد عليه موشَّعِ**

وإذا تَفَتَقَ نورُ شِعرك ناضِراً فالحسن بين مصرَّعٍ ومُرَصَعِ
أرجلت أفراس الكلام ورُضتَ أفراس البديع وأنت أمجد مبدعِ
ونقشت في مغنى الزمان بدائعاً تُـزري بآثـار الربيـع المُمــرعِ

ويعدُّ (الثعالبي) ممن أسهموا في ازدهار نهضة القرن الرابع الهجري، حيث قدم للعربية عددًا **كبيرًا** من المؤلفات التي شملت أغراضًا مختلفة في الآداب، واللغة والفكر... فقد مات تاركاً ما يُربو على ثمانين مؤلفاً، لا غِنى عن كتابٍ واحد منها؛ لمن أراد أن يتثقَّف، ويفهم مرامي العربية وأسرارها، منها: كتاب أجناس التنجيس، أحاسن المحاسن، أحسن ما سمعت، الأحاسن من بدائع البلغاء، الأدب مما للناس فيه من أرب، إعجاز الإيجاز، غرر أخبار ملوك فارس، برد الأكباد في الأعداد، أفراد المعاني، الاقتباس، الأمثال والتشبيهات، أنس الشعراء، الأنيس في غزل التجنيس، بهجة المشتاق، تحفة الوزراء، التحسين والتقبيح، ترجمة الكاتب في آداب الصاحب، تفضل المقتدرين وتنصل المعتذرين، التمثيل والمحاضرة في الحكم والمناظرة، الثلج والمطر، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، سحر البيان، لطائف المعارف، المتشابه لفظاً وخطا، منادمة الملوك، نسيم السحر، يواقيت المواقيت، مدح الشيء وذمه، مرآة المروآت، مفتاح الفصاحة، المُلَح والطُرَف، النوادر والبوادر، سِحر البلاغة وسر البراعة، خصائص الفضائل، صفة الشِّعر والنثر، طبقات الملوك، عنوان المعارف، الفرائد والقلائد، الفصول في الفضول، الكشف والبيان، الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب، العقد النفيس في نزهة الجليس؛ فقه اللغة وسر العربية، وغيرها.

رحِمَ الله **«أبا منصور الثعالبي»** مفخرة الأدباء، وقِبلة البلغاء، وجزاه خيراً عمَّا قدَّمه لأمته.

ابن سيده

أبو الحسن علي بن إسماعيل، الأندلسيّ ـ المعروف بابن سيده (398-458 هـ) إمام اللغة وآدابها، وأحد من يضرب بذكائه المثل. كان أبوه من النحاة من أهل المعرفة والذكاء، والعجب ليس في أن أباه كان ضريرًا، بلْ إنَّ الابن أيضًا (ابن سيده) كان ضريرًا مثل أبيه، ولكنه كان نيّر القلب كأبيه، رزقه الله ذهنًا متوقدًا، وذكاءً حادًّا.

بعد وفاة والده النحوي الضرير، اشتغل بنظم الشِّعر مدة، وتلقى اللغة على يد شيخه صاعد بن الحسن اللغوي البغدادي، وكان من الوافدين على الأندلس، وقرأ أيضًا على أبي عمر الطلمنكي، ثم انقطع للأمير مجاهد العامري صاحب دانية (شرقيّ الأندلس) وعنده أدرك ابن سيده أمانيه، وألف أعظم كتبه. كما يقول صاحب "**نفح الطيب**".

بذاكرته اللاقطة التي منَّ الله بها عليه؛ استطاع (**ابن سيده**) أن يُلمّ بعلوم العربية، وينبغ في آدابها، فكان ـ كما قال الحميدي ـ إمامًا في العربية حافظاً للغة، وله في الشِّعر حظ وتصرف، وقد وصفه القاضي الجياني ـ وكان معاصرًا له ـ فقال: "لم يكنٍ في زمنه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بعلومها، وكان حافظا".

يبدو أنَّ (**ابن سيده**) لم يقتصر في تحصيله للعلوم وتأليفه فيها على علوم العربية وحدها؛ فكان أيضًا متوفرًا على علوم الحكمة والمنطق، تلك التي كانت ذائعة الصيت في ذلك الوقت. وقد قال عنه القاضي الجياني في ذلك: "كان مع إتقانه لعلم الأدب والعربية متوفرًا على علوم الحكمة، وألف فيها تأليفات كثيرة". وقد وصفه صاعد اللغوي بأنه من حُذّاق المنطق. وقال ابن قاضي شهبة في طبقاته: "ومن وقف على خطبة كتاب المُحْكَم علم أنه من أرباب العلوم العقلية، وكتب خطبة كتاب في اللغة، إنما تصلح أن تكون خطبة لكتاب الشفاء لابن سينا".

أمَّا ما أُثر عنه من مصنفات، فكان منها : كتاب "**المحكم والمحيط الأعظم**"، وكتاب "**المخصص**" وسنعرج عليهما بعد قليل؛ إذْ هما اللذانِ طيّرا شهرة ابن سيده وأنزلاه بين صانعي المعاجم العربية منزلة رفيعة، باعتباره واحداً من صنَّاعها العظام.

وله كتاب "**شرح إصلاح المنطق**"، و"**الأنيق في شرح الحماسة**"، و"**شرح ما أُشكِل من شعر المتنبي**"، و"**العلام في اللغة على الأجناس**". و"**العالم والمتعلم**"، و"**الوافي في علم أحكام**

القوافي"، و"**شاذ اللغة**"، ويقع في خمس مجلدات، و"**العويص في شرح إصلاح المنطق**"، و"**شرح كتاب الأخفش**"، وغير ذلك.

على الرغم من كثرة مؤلفاته، وأهمية مواضيعها، فإنه لم يصلنا منها إلاَّ ثلاثة منها فقط، هي: المشكل من شِعر المتنبي، والمحكم والمحيط الأعظم، والمخصص.

أمَّا عن باقي تآليفه فهو إمَّا أنه فقد مع ما فقد من مخطوطات التراث، أو أنه ما زال في غياهب دور الكتب والمحفوظات، ولم تمتد إليه بعد أيدي الباحثين.

المحكم والمحيط الأعظم

ألَّف "**ابن سيده**" كتاب "**المحكم والمحيط الأعظم**" على نحو ترتيب الخليل في معجمه "**العين**"، وقد زاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها، فجاء من أحسن الدواوين. وكانت طريقته تقوم على ترتيب الحروف تبعاً لمخارجها مبتعداً بالأعمق في الحلق، ومنتهياً بما يخرج من الشفتين، فاستقام له الترتيب التالي: ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ذ ث ر ل ن ف ب م و ي ا ء، وسمى كل حرف منها كتاباً، مع تقسيم كل كتاب إلى أبواب حسب أبنية الألفاظ من حيث كونها ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية، والأخذ بمبدأ التقاليب، فمثلاً حرف العين الذي استهلَّ به معجمه، يمكن أن يتغير موضعه في البناء الثنائي مرتين، فيأتي أول البناء الثنائي أو ثانيه، وفي البناء الثلاثي يمكن أن يكون العين في أوله أو ثانيه أو ثالثه، وفي البناء الرباعي يكون أربعاً، وفي الخماسي يكون خمساً، فإذا كان الحرف الثاني مع العين في البناء الثنائي باء، فإنه لا يمكن أن يأتي منهما إلاَّ صورتان هما عب وبع، فإذا كانت العين في البناء الثلاثي ومعها حرفان كالباء والدال، أمكن أن يأتي منها ست صور، هي: عبد بعد بدع عدب، دعب، دبع، وترتفع هذه الصور في البناء الرباعي إلى أربع وعشرين صورة، وفي الخماسي إلى عشرين ومائة صورة.

وقد أراد "**ابن سِيده**" أن يجمع في كتابه ما تشتت من المواد اللغوية في الكتب والرسائل، وتصحيح ما ورد فيها من أخطاء، وربط اللغة بالقرآن والحديث، مع العناية بالتنظيم والاختصار في ترتيب المواد، كتقديم المجرد على المزيد والمفرد على الجمع وتحاشي التكرار، وبذلك يكون ابن سيده قد خطا بمناهج تأليف المعاجم خطوة مفيدة إلى الأمام، غير أن طريقة هذه المعاجم في ترتيب موادها كانت تلقى صعوبة في الكشف والاستخدام، الأمر الذي أدى إلى ظهور مدارس أخرى في المعاجم

لتيسير البحث في الكشف عن المواد اللغوية، حتى استقرت إلى ما هو متبع الآن في المعاجم الحديثة، مثل: "**المعجم الوسيط**".

قال ابن منظور عن "**المحكم**": "ولم أجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة للأزهري، ولا أكمل من المحكم لابن سيده، وما عداهما ثنيات الطريق".

(المخصص) أثمن كنوز العربية

يعدّ كتاب "**المخصص**" لابن سيده أضخم المعاجم العربية التي تعنى بجمع ألفاظ اللغة وتكوينها حسب معانيها، لا تبعًا لحروفها الهجائية، فلم يكن الغرض من تأليفها جمع اللغة واستيعاب مفرداتها شأن المعاجم الأخرى، وإنما كان الهدف هو تصنيف الألفاظ داخل مجموعات وفق معانيها المتشابهة، بحيث تنضوي تحت موضوع واحد.

وقد قسَّم "ابن سيده" كتابه إلى أبواب كبيرة، سماها كتبًا تتناول موضوعًا محددًا، ورتب هذه الكتب ترتيبًا منطقيًّا، فبدأ بالإنسان ثم الحيوان ثم الطبيعة فالنبات، وأعطى كل كتاب عنوانًا خاصًّا به، مثل : خلق الإنسان والنساء واللباس والطعام والأمراض والسلاح والخيل والإبل والغنم والوحوش والحشرات والطير والسماء والفلك.

ثم قسَّم كل كتاب بدوره إلى أبواب صغيرة، حسبما يقتضيه المقام إمعانًا في الدقة، ومبالغة في التقصي والتتبع، فيذكر في باب الحمل والولادة أسماء ما يخرج مع الولد أولاً، ثم يذكر الرضاع والفطام والغذاء وسائر ضروب التربية، ويتحدث عن غذاء الولد وأسماء أول أولاد الرجل وآخرهم، ثم أسماء ولد الرجل في الشباب والكبر، وهكذا.

التزم ابن سيده في شرح الألفاظ ببيان الفروق بين الألفاظ والمترادفات وتفسيرها بوضوح، مع الإكثار من الشواهد، وذكر العلماء الذين استقى عنهم مادته.

وقد طُبع (**المخصص**) في سنة ست عشرة وثلاثمائة وألف من الهجرة في سبعة عشر جزءًا، ونشر معهد المخطوطات العربية معجم (**المحكم**) بعناية عدد من كبار المحققين.

ابن منظـور

القاضي جمال الدين أبو الفضل، محمد بن مكرّم الأنصاري الروفعي افريقي، المصري المعروف بابن منظور (630-711 هـ) كان رئيسًا فاضلاً في الأدب، عالمًا في الفقه واللغة، عارفًا بالنحو والتاريخ، وكان مليح الإنشاء، وقد تفرد بالعوالي. وقد أهلته صفاته السابقة؛ لأن يعمل في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم يتولى بعد ذلك منصب القضاء في ليبيا.

سمع ابن منظور من شيوخ كثيرين، منهم: ابن يوسف بن المخيلي، وعبد الرحمن بن الطفيل، ومرتضى بن حاتم، وابن المقير، وطائفة من العلماء، وروى عنه السبكي والذهبي، وقد حدَّث بمصر ودمشق.

لقد غلب على ابن منظور في تواليفه عمل اختصارات للكتب السابقة عليه. وفي هذا يقول ابن حجر: "كان ابن منظور مغرى باختصار كتب الأدب المطولة، وكان لا يمل من ذلك". وقال الصفدي: "لا أعرف في كتب الأدب شيئًا إلا وقد اختصره. وقد أخبرني ولده قطب الدين أنه ترك بخطه خمسمائة مجلدة، قال: ولم يزل يكتب إلى أن عمي في آخر عمره".

ومن أهم مصنفاته، ما يلي: مختار الأغاني الكبير، ومختصر زهر الآداب للحصري، ومختصر يتيمة الدهر للثعالبي، ولطائف الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسَّام، ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ومختصر تاريخ بغداد للسمعاني، ومختصر كتاب الحيوان للجاحظ، ومختصر أخبار المذاكرة ومشوار المحاضرة للتنوخي، وله نثار الأزهار في الليل والنهار في الأدب، وأخبار أبى نواس، وصفوة الصفوة لابن الجوزي، ومفردات ابن البيطار، وكتاب التيفاشي فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب، وسماه: "سرور النفس"، وله أيضًا: تهذيب الخواص من درة الغواص للحريري، وغيرها. وقد جمع بين صحاح الجوهري وبين المحكم لابن سيده وبين الأزهري في سبع وعشرين مجلد.

ويعدّ من أهم وأشهر أعماله وأكبرها، والذي طيّر اسمه في الآفاق هو كتابه **"لسان العرب"**، ذلك الذي جمع فيه أمهات كتب اللغة، فكاد يغني عنها جميعًا.

(لسـان العـرب) أشمل معاجم العربية

يُعد **"لسان العرب"** لابن منظور من أشهر المعاجم العربية وأطولها، كما يُعد أشمل معاجم العربية للألفاظ ومعانيها، وأتم المؤلفات التي صنفت في اللغة بصفة عامة، ومرجع العلماء والعمدة المعول عليه بين أهل هذا اللسان.

لقد جمع ابن منظور في معجمه الخالد هذا؛ بين أمهات المعجمات العربية الخمسة السابقة عليه، فجمع بين "تهذيب اللغة" للأزهري، و"المحكم" لابن سيده، و"الصحاح" للجوهري، و"حاشية الصحاح" لابن بري، و"النهاية في غريب الحديث" لعز الدين بن الأثير، ولم يذكر "جمهرة اللغة" لابن دريد، مع أنه رجع إليها كثيراً.

لقد نهج (**ابن منظور**) نهج الجوهري في الصحاح، وذلك باعتماد الترتيب الهجائي للحروف، بانيًا أبوابه على الحرف الأخير من الكلمة، وأول أبوابه ما ينتهي بالهمزة، وقد صرح في مقدمته بقوله: "ولا أدَّعي فيه دعوى، فأقول: شافهتُ أو سمعت، أو فعلتُ أو صنعت، أو شددتُ الرحال، أو رحلت، أو نقلتُ عن العربِ العرباء، أو حملت، فكل هذه الدعاوى لم يترك فيها الأزهري وابن سيده لقائل مقالاً، ولم يخليا لأحد فيها مجالاً، فإنهما عيّنا في كتابهما عمن رويا، وبرهنا عما حويا، ونشرا في خطبهما ما طويا، ولعمري لقد جمعا فأوعيا، وأتيا بالمقاصد ووفيا، وليس في هذا الكتاب فضيلة أمت بها، ولا وسيلة أتمسك بسببها، سوى أني جمعت فيه ما تفرق في هذه الكتب، وأديت الأمانة في نقل الأصول بالفص، وما تصرفت بكلام غير ما فيها من النص، فليعتد من ينقل عن كتابي أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة".

وقد بلغ عدد المواد اللغوية التي ضمنها لسان العرب ثمانين ألف مادة، وهو ضعف ما في الصحاح، وأكثر بحوالي عشرين ألف مادة من المعجم الذي جاء بعده، وهو القاموس المحيط للفيروزآبادي.

وقد صدّر ابن منظور **"اللسان"** بمقدمة غير قصيرة، افتتحها بالتحميد والتهليل، ثم أخذ في ذكر شرف العربية وارتباطها بالقرآن الكريم، ثم عرّج بعد ذلك على نقد التهذيب والمحكم والصحاح، ثم ذكر السبب الدافع إلى تأليف معجمه، والذي يتمثل في أنه وجد أن الذين سبقوه إمَّا أحسنوا الجمع وأساءوا الوضع والترتيب، وإمَّا أحسنوا الوضع ولكنهم أساءوا الجمع، وقد عنى بذلك؛ أنه أراد الجمع بين صفتي الاستقصاء والترتيب.

وضع ابن منظور بين المقدمة والمعجم بابيْن: الأول؛ في تفسير الحروف المقطعة في أول سور القرآن الكريم. والثاني؛ في ألقاب حروف المعجم وطبائعها وخواصّها.

ثم رتَّب معجمه على نظام الأبواب والفصول، حيث يعالج كل باب حرفًا من حروف الهجاء، وفقًا لآخر جذر الكلمة، ثم يورد في كل باب فصلاً لكل حرف وفقًا لأوائل جذور الكلمات، وهي نفسها الطريقة التي عليها معجم الجوهري "الصحاح".

يُعد **"لسان العرب"** معجمًا موسوعيًّا يتسم بغزارة المادة، حيث يستشهد فيه مؤلفه بكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأبيات الشِّعر، وقد بلغ الشِّعر الذي استشهد به ابن منظور قرابة اثنين وثلاثين ألف بيت، موزعة بين عصور الرواية الشعرية من جاهلي ومخضرم وإسلامي وأموي وعباسي، وذلك إضافة إلى روايته لآلاف من آراء اللغويين والنحويين، وغير ذلك من الأخبار والآثار، مما يعكس كثيرًا من مظاهر حياة اللغة العربية وحياة المجتمع العربي، على نحو يجعله مفيدًا لا في المجال المعجمي فقط، بل وفي مجالات علمية أخرى.

وقد طبع الكتاب بالمطبعة الأميرية بالقاهرة في عشرين جزءًا كبيرًا ينيف كل منها على ثلاثمائة صفحة، حظيت بإعجاب العلماء. وقد استدرك عليها العلاَّمة أحمد تيمور بعض الأخطاء المطبعية التي نشرها في جزء صغير باسم: **"تصحيح لسان العرب"**. كما استدرك عليها الأستاذ عبد السلام هارون أخطاء أخر نشرها في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وقد قامت دار المعارف في مصر بإعادة ترتيب مواد الكتاب تبعًا لأوائل الجذور لا أواخرها، وهو الأسلوب المتّبع في معظم معاجم اللغة العربية الحديثة، وذلك بخلاف ترتيبه الأصلي الذي كان يلتزم طريقة "الصحاح" بالترتيب وفق الحرف الأخير فالأول فالثاني... إلخ، وقد قام بتحقيقه ثلاثة من الباحثين هم: محمد أحمد حسب الله، وعبد الله على الكبير، وهاشم محمد الشاذلي، وخرج الكتاب في ستة أجزاء من القطع الكبير المطبوع بحرف صغير، أعقبته ثلاثة أجزاء هي الفهارس الفنية للكتاب.

الفيروز أبادي

أبو طاهر، محمد بن يعقوب، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي. صاحب التنبيه (729-817 هـ). وُلِد بشيراز، وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند، واليمن حيث استقر بها العشرين عامًا الأخيرة من عمره.

كان حادَّ الذهن، شديد الذكاء، سريع البديهة، ذا فطنة عظيمة، وعن ذلك يقول ابن حجر في (**إنباء الغمر بأبناء العمر**) : "وقد أكثر المجاورة بالحرمين، وحصَّل دنيا طائلة وكتبًا نفيسة، وكان لا يسافر إلا وصحبته عدة أحمال من الكتب، ويُخرِج أكثرها في كل منزلة ينظر فيها، ويعيدها إذا رحل، وكان لا ينام حتى يحفظ مائتي سطر".

في كل بلد دخلها؛ التقى بعلمائها وشيوخها، وأخذ منهم صفوة العلوم والمعارف، مما جعله يبرِّز في علوم كثيرة، كما تتلمذ على يديه كثير من الأعلام، أمثال: الشاعر المؤرخ الصلاح الصفدي، والبهاء بن عقيل، والجمال الأسنوي، وابن هشام النحوي، وابن حجر العسقلاني، وغيرهم.

ولعلَّ من أشهر شيوخ **الفيروز آبادي**: السبكي، وأكثر من مائة شيخ التقاهم بالشام؛ منهم ابن الخبَّاز، وابن القيِّم، وابن الحموي، والمرداوي، والنابلسي، وابن الحداد الحنفي، وغيرهم ببعلبك وحماة وحلب. وبالقدس أخذ من العلائي والبياني والتقي القلقشندي. ثم دخل القاهرة، فكان ممن لقيه بها البهاء بن عقيل، والجمال الأسنوي، وابن هشام النحوي، والعز بن جماعة، والقلانسي، والمظفر العطار، وناصر الدين التونسي، وناصر الدين الفارقي، وابن نباتة، والعرضي، والجزائري. وسمع بمكة من الضياء خليل المالكي، واليافعي، والتقي الحرازي، ونور الدين القسطلاني، وجماعة. وجال في البلاد الشمالية والمشرقية، ودخل بلاد الروم والهند، ولقي جمعًا من الفضلاء وأخذ عنهم العلوم.

قال عنه ابن حجر في "**تقريب التهذيب**" : "كان حافظًا للغة، واسع المعرفة بها".

وقال عنه التَّقِيُّ الكِرْمانيُّ: "كان عديم النظير في زمانه، نظمًا ونثرًا بالفارسي والعربي". وقال الخزرجي في (**تاريخ اليمن**) : "إنه لم يزل في ازدياد من علوِّ الجاه والمكانة ونفوذ الشفاعات والأوامر على القضاة في الأمصار".

وقال المقري : "هو آخر من مات من الرؤساء الذين انفرد كل منهم بفنٍّ فاق فيه أقرانه على رأس القرن الثامن، وهم: الشيخ سراج الدين البلقيني في الفقه، والشيخ زين الدين العراقي في الحديث، والشيخ سراج الدين ابن المُلقِّن في كثرة التصانيف وفن الفقه والحديث، والشيخ شمس الدين الفناري في الاطِّلاع على كل العلوم العقلية والنقلية والعربية، والشيخ أبو عبد الله بن عرفة في فقه المالكية بالمغرب، والشيخ مجد الدين الشيرازي (الفيروزآبادي) في اللغة.

وقال عنه أيضًا : "كان كثير العلم والاطلاع على المعارف العجيبة، وبالجملة كان آية في الحفظ والاطلاع والتصنيف".

وقال عنه الزركلي: "كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير".

للفيروزآبادي مؤلفات عديدة، ورائعة، ومهمة للغاية، منها :

في التفسير (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)، و(تنوير المقياس في تفسير ابن عباس)، و(تيسير فاتحة الإياب في تفسير فاتحة الكتاب)، و(الدر النظيم المرشد إلى مقاصد القرآن العظيم)، و(حاصل كورة الخلاص في فضائل سورة الإخلاص)، و(شرح قطبة الخُساف في شرح خطبة الكشاف).

وفي الحديث والتاريخ : (شوارق الأسرار العلية في شرح مشارق الأنوار النبوية)، و(منح الباري بالشيح الفسيح المجاري في شرح صحيح البخاري)، و(عمدة الحكام في شرح عمدة الأحكام)، و(امتضاض السهاد في افتراض الجهاد)، و(الإسعاد بالإصعاد إلى درجة الجهاد)، و(النفحة العنبرية في مولد خير البرية)، و(الصلاة والبشر في الصلاة على خير البشر)، و(الوصل والمُنَى في فضل مِنَى)، و(المغانم المطابة في معالم طابة)، و(مهيج الغرام إلى البلد الحرام)، و(إثارة الحجون لزيارة الحجون)، و(أحاسن اللطائف في محاسن الطائف)، و(فصل الدرة من الخرزة في فضل السلامة على الجنزة)، و(روضة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر)، و(المرقاة الوفية في طبقات الحنفية)، و(البلغة في تراجم أئمة النحاة واللغة)، و(الفضل الوفي في العدل الأشرفي)، و(نزهة الأذهان في تاريخ أصبهان)، و(تعين الغرفات للمعين على عين عرفات)، و(منية السُّول في دعوات الرسول)، و(التجاريح في فوائد متعلقة بأحاديث المصابيح)، و(تسهيل طريق الوصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول)، و(الدر الغالي في الأحاديث العوالي)، و(سِفر السعادة)، و(المتفق وضعًا والمختلف صنعًا).

وفي اللغـة وغيرها : (اللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب)، و(**القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط**) في جزءين ضخمين، و(مقصود ذوي الألباب في علم الأعراب)، و(تحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين)، أخذه عنه البرهان الحلبي الحافظ، ونقل عنه أنه تتبع أوهام المجمل لابن فارس في ألف موضعٍ، مع تعظيمه لابن فارس وثنائه عليه. و(المثلث الكبير) في خمس مجلدات، و(الصغير)، و(الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف)، و(الدرر المبثثة في الغرر المثلثة)، و(بلاغ التلقين في غرائب اللعين)، و(تحفة القماعيل فيمن يسمى من الملائكة والناس إسماعيل)، و(أسماء السراح في أسماء النكاح)، و(أسماء الغادة في أسماء العادة)، و(الجليس الأنيس في أسماء الخندريس)، و(أنواء الغيث في أسماء الليث)، و(أسماء الحمد)، و(ترقيق الأسل في تصفيق العسل)، و(مزاد المزاد وزاد المعاد في وزن بانت سعاد)، و(النخب الطرائف في النكت الشرائف)، إلى غيرها من المؤلفات التي لازالت مخطوطة.

رسالة إلى الأمة

مادامت (اللغة) من أهم الأركان التي تعتمد عليها الحضارات، ومن أهم عوامل تشكيل هويات الأمم، وهي لحمة التفاعل بين أهلها، وأساس وحدتهم.

ومادامت (اللغة) شعار الأمة، ووعاء فكرها، وهي الصلة بين حاضرها وماضيها. لذا؛ فإنَّ الحفاظ عليها يعني ضمان بقاء المجتمع الذي يستخدمها، وإضعافها هو إضعاف لشخصية الناطقين بها، كما أنَّ الاعتزاز بها ليس اعتزازاً بذات اللغة؛ وإنما هو اعتزاز بالثقافة التي تحتضنها تلك اللغة وبالحضارة التي تمثّلها.

وإنه كلما كانت اللغة أكثر اتصالاً بثقافة الشعوب كانت أقدر على تشكيل هويتها، بلْ لا يمكن أن تكون هناك خصوصية ثقافية لأية أُمَّة دون سيادة لغتها الوطنية، ولا يمكن أن تحقق أُمة تنمية ناجحة بغير لغتها الوطنية، فـ"اليابان" حققت ذلك بلغتها ذات العشرة آلاف مقطع، و"الصين" بلغتها ذات الأربعة والأربعين ألف مقطع؛ مما يؤكّد أن الاستقلال الوطني لا يكون من دون سيادة اللغة الوطنية، وهذه حقائق مُسلَّمة بها تاريخياً وعالمياً.

وقد تنبه المستعمِر إلى ذلك كله؛ فسارع إلى نشر لغته في كل مستعمراته؛ ليضمن ولاء الأجيال المتتابعة، حتى بعد خروجه، كما سارع إلى توجيه ضربات قوية نحو "العربية" التي وحَّدت الأمة الإسلامية على اختلاف أجناسها.

لقد فرض المستعمرون لغاتهم على المسلمين ليقطعوا صلتهم بالقرآن، ويفرِّقوا بينهم، فعملوا جاهدين على إبعاد المسلمين عن "العربية" ليصعب التفاهم بين البلاد الإسلامية؛ لأنَّ انتشار لغة المستعمر أوْ الغالِب فـي بلاد المغلوب، وحلولها محلها، يعدُّ بداية انهيار لروح تلك الأمة وتراثها، وفقدانها لثقافتها، وزوال لهويتها ـ أوْ كما قال ابن خلدون فـي مقدمته: "إنَّ المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسّبب في ذلك أنّ النَّفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، إمّا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لِما تغالط به من أنّ انقيادها ليس لغلب طبيعيّ إنّما هو لكمال الغالب".

إننا في عصر تَلعب فيه (اللغـة) دورًا مهمًّا في حياة الأمم، فاللغات المسيطِرة تحرص على الْتهام اللغات المُنافِسة لها، أوْ إضعافها؛ عملاً بمقولة: (محوتَ لغةً، أبدتَ شعبًا).

والقُوَى الكبرى التي تسعى إلى تحقيق تلك الأهداف؛ تَعرِف أنها لا تُحارِب فقط كلمات وقواعد وتراكيب، وتراثًا ثقافياً، ولكنها تُحارِب ما يَرمُز إليه ذلك كله، وتسعى إلى السَّيْطَرة على مُقَدَّرات أبناء هذه اللغة وثرواتهم؛ لكيْ يكونوا لقمة سائغة في خدمة مطامِع التوسُّع الاستعماري. وذلك هدف أصبح مُعلَنًا على المَلأ لا يخفى على أحد.

نعم؛ إنَّ أشرس أنواع الحروب التي تخوضها دولة غازية ضدّ دولة مغزوّة، وأكثرها نجاعة، هي (الحرب اللغوية) وأعني بها "تفريغ" اللغة المغزوّة "وتسريب" اللغة الغازية .. ومن نتائجها الخطيرة زرع الفكر اللغويّ الغريب في الذهنية المغزوّة، و(الفكر) هو المولّد الأساس للغة، وبالتالي فالفكر المتبنى سيولّد لغة متبناة، بعيدة عن البنوّة الحقيقية، هي أشبه بنطق اللغة الغازية بحروف اللغة المغزوة ورموزها إلى حين استبدال هذه الرموز أيضاً. وقد حاول الأتراك على امتداد خمسة قرون "اغتيال" العربية عن طريق تتريكها. كما ترك الاستعمار البريطاني والفرنسي الأثر البارز على العربية في البلدان التي احتلُّوها.

تعرَّضتْ كثيرٌ من لغات إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية للاجتِياح أمام قوة اللغات الأوروبية الغازية في عصر التوسُّع الاستعماري بعد الثورة الصناعية، مُمَثَّلة في اللغات الإنجليزية والفرنسية على نحو خاص، ومِن ورائها الإسبانية والبرتغالية والألمانية، وأمام هذا الاجتِياح سقطتْ لغات كثيرة، قدَّرَتها منظمة اليونسكو بأكثر من (ثلاثمائة لغة) وضَعُفَتْ أُخرى وتصدَّعت أركانها، وهم يتوقَّعون لها مزيدًا من الضعف الذي قد يؤدِّي إلى السقوط، خاصة إذا ساعدهم أبناء هذه اللغات أنفسهم على تحقيق الهدف.

من هنا نعلـم؛ أن هناك حروباً لغوية مستعرة، وهناك مؤامرات عاتية ضد (العربية) بالذات. ولا أدلّ على ذلك؛ مما تمارسه فرنسا في إفريقيا؛ فعندما أبدى "السود" تمسكهم بـ(العربية)؛ لجأتْ فرنسا إلى القوة والقانون معاً، فبدأت حملة سن تشريعات لجعل سياسة الحصار الثقافي أمراً واقعاً، وكذا شكَّلتْ منابر ثقافية (روابط) ظاهرها سياسي اقتصادي، وباطنها استعمار فكري ثقافي، ومن أشهر تلك الروابط: مجموعة الدول الناطقة بالفرنسية (الْفَرَنْكُفُونيّة la Francophonie) التي أُسِّسَتْ مقابل رابطة الدول الناطقة بالإنجليزية (الْكُومُنْوِلْثَ) وكلتاهما لتثبيت أقدام المستعمرين في مستعمراتهم.

فقد اتخذت فرنسا منظمة (**الْفَرانْكُفُونِيّةَ**) نمط استعمار لغوي ثقافي جديد، يربط الدول الأعضاء بفرنسا سياسياً وثقافياً وفكرياً واقتصادياً، وينشر الفرنسية، ويحارب

اللغات المحلية، وخاصة العربية، ويمارس الغزو الفكري وغسل الأدمغة من خلال إنشاء جامعات وإذاعات وتلفزيونات فرانكفونية. فالاستعمار الغربي، قبل أن يستنزف الثروات والخيرات ويَهلك الحرث والنسل؛ يغيِّر الألسنة، ويمحو الهوية، ويجعل أعزّة القوم أذلّة.

وقد نجحت فرنسا في خطتها بشكل منقطع النظير، فلا يوجد اليوم مجتمع إفريقي ـ من مستعمرات فرنسا ـ إلاَّ وقد اتخذ الفرنسية «لغته الوطنية».

فإلى متى سنستمر في تعلِّم واستعمال لغة المستعمر المتغطرِس؛ الذي أهلك الحرث والنسل، ومشى على تاريخنا مستهزئاً، وأهان تراثنا، ومقدساتنا .. ورفض الاعتذار.

ومن باب إبراء الذمة؛ وامتثالاً للهدي النبوي (الدِّين النَّصيحــة) فإننا ننادي على جميع المسلمين، باختلاف أجناسهم وقومياتهم، أن يتعلموا العربية؛ لأنَّ لكلِّ ثقافة لغة تمثِّلها، ولغة الثقافة الإسلامية هي "العربية" لغة القرآن المجيد، فهي أداة تثقيف المسلم، وعدته في فهم قواعد الدِّين. كما أنَّ العربية تمدُّ المسلم برصيد ضخم من الإمكانات اللسانية وملكات القول البليغ، والخطاب المؤثر في نفوس السامعين.

فالعربية لغة الدِّين الإسلامي ومن يؤمن به، لا لغة قوم معيَّنين، أوْ كما قال ابن تيمية: "اللغة العربية من الدِّين، ومعرفتها فرض واجب، فإنَّ فهم الكتاب والسنَّة فرض، ولا يفهم إلاَّ بفهم العربية، وما لا يتم الواجب إلاَّ به فهو واجب. وهذا معنى ما كتبه عمر إلى أبي موسى الأشعري: "أمَّا بعد: فتفقَّهوا في السُّنَّة وتفقَّهوا في العربية وأعربوا القرآنَ، فإنه عربيٌّ". وفي حديث آخر عن عمر ابن الخطاب، أنه قال: "تعلَّمُوا العربيةَ؛ فإنها من دينكم، وتعلَّمُوا الفرائض فإنَّها من دينكم". وهذا الذي أمر به عمر- من فقه العربية وفقه الشريعة، يجمع ما يحتاج إليه؛ لأنَّ الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنَّة هو فقه أعماله» [**اقتضاء الصراط المستقيم**، لابن تيمية، 1/ 527].

من هنا ينبغي أن تكون (العربية) لغةً رسميةً في جميع الدول التي يُكَوِّنُ فيها المسلمون الغالبية العظمى؛ إذْ الحُكْم للأكثريّة، كما تنصّ الدساتير الديمقراطية المعاصرة.

أليس من العار على "المسلم" أن يُحسن اللغات الأجنبية "لغات المستعمرِين" ـ الذين أذلُّوه واستعبدوا آباءه ـ بلْ ويفاخر بإتقانها، في الوقت الذي لا يتقن لغة دينه الحنيف؟.

اللهـمَّ قد بلَّغت، اللهـمَّ فاشهد. اللهـمَّ قد بلَّغت، اللهـمَّ فاشهد

فـي عالَـم الجمـال

أخيـرًا؛ لقد بذلتُ قدر جهدي وطاقتي، وناديتُ قومي وأُمَّتي، ونصحتُ لكم ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا، وكشفتُ لكم عن مواضع الخلل، وأسباب الهزيمة، وأرشدتُ إلى أسباب النصر والفوز المبين، واحتسبتُ عملي لله الواحد الديَّان.

وبعد هذه الرحلة الممتعة؛ التي تجاوزت حدود الزمان والمكان، وجمعتْ أوائل الأُمَّة بأواخرها، وربطتْ حاضرها بماضيها، وكشفتْ عن همومٍ لغوية وأدبية وفكرية وعقدية وسياسية أيضاً، وشخَّصتْ الداء، ووصفتْ الدواء.

أقـول : لا أجد ما أختم به تلك الرحلة الشاقة؛ أحلى من الاستماع والاستمتاع بباقة من فن العربية الأول (الشِّـعر) الذي أقام العرب من أجله الأسواق، وخصَّصوا له الأعياد، ووصلوا في سبيله الليل بالنهار، ومنحوا من أجله الجوائز والأوسمة، بلْ وعلَّقوه على المعابد، ورصَّعوا به القصور والمتاحف.

إنها مختارات، بلْ روائع مما جادت به قرائح الشَّعراء ـ في القرن العشرين ـ ممن تغنَّوا بفضائل الفصحى، وتباهوا بغرائبها، وتدلَّهوا بعجائبها، وتفاخروا بمحاسنها، وعدَّدوا مناقبها، ونافحوا عنها بأشعارٍ تقطر وجداً، وقصائد مغسولة بالدمع.

العربية تنعي حظها بين أهلها .

للشَّاعر الكبير حافـظ إبراهيـم (*)

رجَعـتُ لنفســي فــاتّهمتُ حَصــاتي	**وناديـتُ قومـي فاحتسـبتُ حيــاتي**
رمَـوْني بعقـمٍ فــي الشـباب وليـتــني	**عقــمتُ فلـم أجـزع لقـول عُداتـــي**
وَلــدْتُ ولـمــا لــم أجـدْ لعـرائسـي	**رجـالاً وأكْفـاءً وأدتُ بناتـــي**
وسـعتُ كتــابَ اللـهِ لفــظًا وغايــةً	**ومـا ضِقـتُ عــن آيٍ بـهِ وعِظـات**

(*) شاعر النيل، وشاعر الوطنية الأشهر، صاحب الروائع الشعرية الخالدة، والمراثي الباكية.

فكـيف أضـيقُ الـيومَ عـن وصفِ آلـةٍ
وتنسـيـقِ أسمــاءٍ لمختــرعات

أنـا البحـرُ فــي أحشـائه الـدرُّ كـامنٌ
فهـل سألــوا الغـوّاصَ عــن صَدَفاتــي

فــيا ويحكـم أبــلى وتبــلَى محاسنــي
ومــنكم وإن عــزَّ الـدواءُ أُســاتي

فـلا تكِلــوني للزمــان فإننـــــي
أخـاف علــيكم أن تحيــنَ وفاتــي

أرى لِرجـالِ الغَـرْبِ عِـزّاً وَمَنعَـةً
وَكَـم عَـزَّ أَقـوامٌ بِعِـزِّ لُغـاتِ

أَتَـوا أَهلَهُـم بِالمُعجِـزاتِ تَفَنُّنــــاً
فَيـا لَيتَكُـم تَأتــونَ بِالكَلِمــاتِ

أَيُطرِبُكُـم مِـن جانِـبِ الغَـرْبِ ناعِــبٌ
يُنـادي بِـوَأْدِي في رَبيـعِ حَيــاتي

وَلَـو تَزجُـرونَ الطَـيرَ يَومـاً عَلِمتُـمُ
بِمـا تَحتَـهُ مِـن عَـثْرَةٍ وَشَـتاتِ

سَـقى اللَـهُ في بَطـنِ الجَزيـرَةِ أَعظُـماً
يَعِـزُّ عَلَيها أَن تَلـينَ قَنــــاتي

حَفِظـنَ وِدادي في البِـلى وَحَفِظتُـهُ
لَهُـنَّ بِقَلـبٍ دائِــمِ الحَسَــراتِ

وَفاخَـرتُ أَهـلَ الغَـرْبِ وَالـشَرْقُ مُطـرِقٌ
حَيـاءً بِتِلـكَ الأَعظُـمِ النَخِــراتِ

أرى كلَّ يــومٍ بـالجــرائد مزلقًــــا
مــن القـبر يُدنيــني بـغير أنــــاة

وَأَسْـمَعُ لِلكُتّـابِ في مِـصْرَ ضَجَّـــةً
فَأَعلَـمُ أَنَّ الصائِحيــنَ نُعـــاتي

أيهجـرني قـومي - عفا اللهُ عنهـــمُ -
إلى لغـةٍ لــــمْ تتّصـل بـــرُواة!

سَرَت لوثَـةُ الإفرِنـجِ فيهـا كَـما سَرى
لُعَـابُ الأَفاعـي في مَسيلِ فُـــراتِ

فَجـاءَت كَثَـوبٍ ضَـمَّ سَـبعينَ رُقعَـةً
مُشَكَّلَـــــةَ الأَلــــوانِ مُختَلِفـاتِ

إلى مَعـشَرِ الكُتّـابِ وَالجَمـعُ حافِـلٌ
بَسَـطتُ رَجـائي بَعـدَ بَسطِ شَكاتــــي

فإمَّـا حيـاةٌ تبعث الـمَيْتَ في البِلـــى
وتُنبـت في تلـك الرمـوسِ رفاتــــي

وإمَّـا ممــاتٌ لا قيــامةَ بعــــده
مـماتٌ لعمـري لمْ يُقَـسْ بممـــات

محاسن اللغة العربيـــة

للشاعر يوسف باخوس(*)

للشّعـرِ فــي خَطَـراتِ الفكـرِ آمـــالُ
وللقصائــــد إعــــراضٌ وإقبـــــالُ

وللعَـروضُ بحــارٌ عــمَّ طالبهـــا
طــوْرًا نداهــا وطــورًا خــاب تَسْآل

وللمعانــي إذا جـــادتْ بهـــا دُرَرٌ
يَزِينُهــا النظـمُ لا فعـلٌ وفعَّـال

(*) شاعر لبنانيٍ (1845-1882م) عاش في لبنان واستانبول، وسردينيا وباريس، درس الفلسفة وكثيراً من اللغات، وعمل معلّماً للبيان والفصاحة في مدرسة الحكمة المارونية، تولى رئاسة تحرير جريدة "**المستقبل**"، بالإضافة إلى تحرير جريدة "**البصير**" في باريس.

بيانُها السِّحرُ من أسراره انكشفَتْ ... غوامضُ الحُكمِ يروي سَعْدَها الفال
نطوي وننشرُ من تدبيجها غُرَرًا ... والطبقُ والجمع والتفريقُ إشكال
حلَّت عقود معاليها بتوريةٍ ... حلَّتْ بها الذوق والتشبيهُ سَلْسال
عزَّتْ فلا وصْلَ إلا من مكارِمِها ... يُرجَى وبالفضل للآمال آجال
تُلقي المدائحَ إسنادًا بمُسنِدها ... وتستقلّ بها في الحمد أقوال
عن حُسنها غُرَرُ الأشعار قد قَصُرَتْ ... وصْفًا وبالقَصْرِ إحسانٌ وإجمال
أنعِمْ بها فهْي إعرابيَّةٌ سفَرَتْ ... واسْعَد بطلعتها فالسّعدُ إقبال
تفرَّدتْ بين أبكار اللُّغَى وعلَتْ ... قدْرًا وعزَّت بها بالفخر أجيال
صحَّت بإعلالِها الأفهامُ واعتصَمَتْ ... حكمًا وفي صِحَّة الأحكامِ إعلال
وقد نحَتْ نحوَها الأفكار وارتفعَتْ ... بنَصْبِها منصبَ التفضيلِ إبطال
تنازعَتْها معاني الوصفِ واشتغلَتْ ... بنَعْتِ عامِلها الموصوفِ أشغال
وكم رجالٍ أفاض الدهرُ شهرتَهم ... براية المجد في مضمارها جالوا
هيهاتَ هيهاتَ إدراكٌ لشوطهم ... فدون ذلك أخطارٌ وأهوال
وكل علمٍ وفنٍّ ظلَّ ينشدهم ... بدائع الشكر تقريظًا لما نالوا
لا زال يزهو سناهم كلما خطرتْ ... للشعر في خطرات الفكر آمالُ

يَا أُمَّ اللُّغَاتِ

للشَّاعر الكبير خليل مطران

سَمِعْتُ بِأُذْنِ قَلْبِي صَوْتَ عتْبٍ ... لَهُ رقْرَاقُ دَمْعٍ مُسْتَهَل
تَقُولُ لأَهْلِهَا الفُصْحَى أَعَدْلٌ ... لِرَبِّكُمْ اغْتِرَابِي بَيْنَ أَهْلِي
أَلَسْتُ أَنَا الَّتِي بدَمِي وَرُوحِي ... غَذَتْ مِنْهُمْ وَأَنْمَتْ كُلَّ طِفْل
أَنَا الْعَرَبِيَّةُ المشْهُودُ فَضْلِي ... أَأَغْدُو الْيَوْمَ وَالمَغْمُورُ فَضْلِي؟
إِذَا مَا القَوْمُ بِاللُّغَةِ اسْتَخَفُّوا ... فَضَاعَتْ، مَا مَصِيرُ الْقَوْمِ قُل لِي؟
وَمَا دَعْوى اتِّحَادٍ فِي بِلَادٍ ... وَمَا دَعْوَى ذِمَارٍ مُسْتَقِل؟
فَسَادُ القَوْلِ فِيهِ دَلِيلُ عَجْزٍ ... فَهَلْ مَعَهُ يَكُونُ صَلَاحُ فِعْلِ؟
بُنَيَّاتِ الْحِمَى أَنْتُنَّ نَسْلِي ... فَإِنْ تَنْكِرْنَنِي أَتَكُنَّ نَسْلِي؟
وَيَا فِتْيَانَهُ إِنْ أَخْطَأَتْنِي ... مَبَرَّتُكُمْ فَإِنَّ الثُّكْلَ ثَكْلِي
يُحَارِبُنِي الأُولَى جَحَدُوا جَمِيلِي ... وَلَمْ تَرْدَعْهُمُ حُرُمَاتُ أَصْلِي
وَفِي الْقُرْآنِ إِعْجَازٌ تَجَلَّتْ ... حِلَايَ بِنُورِهِ أَسْنَى تَجَلِّ

وَلِلْعُلَمَاءِ وَالأُدَبَاءِ فِيمَا ... نَأَت غَايَاتُهُ مَهَّدْتُ سُبْلِي
إِذَا مَا كَانَ فِي كَلِمِي صِعَابٌ ... فَلاَ تَأْخُذْ كَثِيرِي بِالأَقَلِّ
وَهَلْ لُغَةٌ قَدِيماً أَوْ حَدِيثاً ... تُعَد بِوَفْرَةِ الحَسنَاتِ مِثْلِي؟
فيَا أُمَّ اللُّغاتِ عَدَاكِ مِنا ... عُقُوقُ مَسَاءَةٍ وَعُقوقُ جَهْلِ
لَكِ العَوْدُ الحَمِيدُ فأَنتِ شمْسٌ ... وَلم يَحْجبْ شُعاعَك غيْر ظِلِّ
دَعَوْتِ فهَبَّ مِن شَتَّى النوَاحِي ... مَيَامِينٌ أُولُو حَزْمٍ وَنُبْلِ
بِرَأْيٍ فِيكِ يَكْفُلُ أَنْ تُرَدِّي ... مُكَرَّمَةً إِلى أَسْمَى مَحَلِّ
يُنَوِّرُ شِعرُهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ ... وَيُزْهِرُ نَثْرُهُمْ فِي كُلِّ

فخر العرب

للشَّاعر مصطفى صادق الرافعي(*)

أمٌّ يكيد لها من نسلها العقب ... ولا نقيصةُ إلا ما جنى النسبُ
كانت لهم سبباً في كل مكرمة ... وهم لنكبتها من دهرها سبب
لا عيب في العرب العرباء إنْ نطقوا ... بين الأعاجم إلا أنهم عرب
والطير تصدح شتى كالأنام وما ... عند الغراب يزكى البلبل الطرب
أتى عليها طوال الدهر ناصعة ... كطلعة الشمس لم تعلق بها الريب
ثم استفاضت دياج في جوانبها ... كالبدر قد طمست من نوره السحب
ثم استضاءت فقالوا الفجر يعقبه ... صبح فكان ولكن فجرها كذب
ثم اختفت وعليها الشمس شاهدة ... كأنها جمرة في الجو تلتهب
سلوا الكواكب كم جيل تداولها ... ولم تزل نيّراتٍ هذه الشهب
وسائلوا الناس كم في الأرض من لغة ... قديمة جددت من زهوها الحقب
ونحن في عجب يلهو الزمان بنا لم ... نعتبر ولبئس الشيمة العجب
إن الأمور لمن قد بات يطلبها ... فكيف تبقى إذا طلابها ذهبوا
كان الزمان لها واللسنُ جامعة ... فقد غدونا له والأمر ينقلب
وكان من قبلنا يرجوننا خلفاً ... فاليوم لو نظروا من بعدهم ندبوا
أنترك الغرب يلهينا بزخرفه ... مشرق الشمس يبكينا وينتحب
وعندنا نهر عذب لشاربه ... فكيف نتركه في البحر ينسرب

(*) أحد أدباء القرن العشرين المشاهير، وواحد من أصحاب الأساليب، من أشهر مؤلفاته النثرية «أوراق الورد» و"وحي القلم".

وأيما لغة تنسي امرأً لغةً ... فإنها نكبةٌ من فيهِ تنسكب

لكم بكى القول في ظل القصور على ... أيامِ كانت خيام البيد والطنب

والشمس تلفحه والريح تنفحه ... والظل يعوذه الماء والعشب

فهل نضيع ما أبقى الزمان لنا ... وننفض الكف لا مجدٌ ولا حسب

إنَّا إذاً سبّة في الشرق فاضحةٌ ... والشرق وإن كنا به خرب

هيهات ينفعنا هذا الصياح فما ... يجدي الجبان إذا روّعته الصخَب

ومن يكن عاجزاً عن دفع نائبة ... فقصر ذلك أن تلقاه يحتسب

إذا اللغات ازدهت فقد ضمنت ... للعرب أيّ فخارٍ بينها الكتب

وفي المعادنِ ما تمضي برونفه ... يد الصدا غير أن لا يصدأ الذهب

ابنة العربِ

للشَّاعر علي الجارم(*)

مَاذَا طَحَا بِكَ يَا صَنّاجَةَ الأَدَبِ ... هَلاّ شَدَوْتَ بِأَمْدَاحِ ابْنَةِ العَرَبِ؟

أَطَارَ نَوْمَكَ أحْدَاثٌ وَجَمْتَ لَهَا ... فبِتَّ تَنْفُخُ بَيْنَ الهَمّ وَالْوَصَبِ

وَالْيَعْرُبِيَّةُ أَنْدَى مَا بَعَثْتَ بِهِ ... شَجْوًا مِنَ الْحُزْنِ أَوْ شَدْوًا مِنَ الطّرَبِ

يَا جِيرَةَ الْحَرَمِ المَزْهُوِّ سَاكِنُهُ ... سَقى العُهُودَ الْخَوَالِي كُلُّ مُنسكِبِ

لِي بَيْنكُمْ صِلَةٌ عَزّتْ أوَاصِرُهَا ... لأَنّهَا صِلَةُ القُرآنِ وَالنّسَبِ

أرَى بِعَيْنِ خَيَالِي جَاهِليَّتَكُمْ ... ولِلتّخَيُّلِ عَيْنُ القائِفِ الدَّرِبِ

الدّهْرُ يُسْرِعُ وَالأَيّامُ مُعْجِلَةٌ ... وَنَحْنُ لَمْ نَدْرِ غَيْرَ الوَخْدِ والْخَبَبِ

وَالْمحدَثَاتُ تَسُدُّ الشَّمْسَ كَثْرَتُهَا ... وَلَمْ تَفُزْ بِخَيَالِ اسْمٍ وَلاَ لَقَبِ

وَالتّرْجَمَاتُ تَشُنُّ الْحَرْبَ لاَقِحَةً ... عَلَى الفَصيحِ فَيَا لِلْوَيْلِ والْحَرَبِ

نَطِيرُ للَّفْظِ نَسْتَجْدِيهِ مِنْ بَلَدٍ ... نَاءٍ وَأَمْثالُهُ منّا عَلَى كَثَبِ

كَمُهْرقِ المَاءِ فِي الّصَحْرَاءِ حِينَ بَدَا ... لِعَيْنِهِ بَارِقٌ مِنْ عَارِضٍ كَذِبِ

أَزْرَى بِبِنْتِ قُرَيْشٍ ثُمّ حَارَبَهَا ... مَنْ لاَ يُفَرّقُ بَيْنَ النّبْعِ وَالغَرَبِ

وَرَاحَ فِي حَمْلَةٍ رَعْنَاءَ طَائِشَةٍ ... يَصُولُ بِالْخَائِبَيْنِ: الْجَهْلِ والشَّغَبِ

أَنَتْرُكُ العَرَبِيَّ السّمْحَ مَنْطِقُهُ ... إِلَى دَخيلٍ مِنَ الأَلْفَاظِ مُغْتَرِبِ؟

وَفِي المَعَاجِمِ كَنْزٌ لاَ نَفَادَ لَهُ ... لِمَنْ يُمَيّزُ بَيْنَ الدُّرِّ وَالسُّخُبِ

(*) شاعر مصري كبير، من رواد كلية دار العلوم، هذه القصيدة ألقاها عند إنشاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

كَـمْ لَفْظَـةٍ جُهِـدَتْ مِـمّا نُكَرّرُهَـا حَتّـى لَقَـدْ لَهَثَـتْ مِـنْ شِـدّةِ التّعَـبِ
وَلَفْظَـةٍ سُـجِنَتْ فِي جَـوْفِ مُظْلمَـةٍ لَـمْ تَنْظُـر الشّـمْسُ مِنْهَـا عَـيْنَ مُرتَقِـبِ
يَـا شـيخَةَ الضّـادِ وَالذّكْـرَى مُخَلّـدَةٌ هُنَـا يُؤَسّـسُ مَـا تَبْنُـونَ لِلْعَقِــــبِ

الشبيبةُ واللغـــة

للشَّاعر يوسف فضل الله سلامة(*)

لــيس الــتفرنجُ للأوطـــان مفخـرةً إنْ هانـتِ الضّـاد أو هانـت بهـا العـربُ
أنعضـد الغـير فـــي حـقٍّ يؤيّـده وحقّنـا فــي يـد الأغيـار يُغتصَـب؟
ذي شـيمةُ الـذلّ فـالأخلاقُ قـد فسدت وقــد تـوالــت عــلى إهمالنــا الحقـب
وإنَّ أعــظم عــارٍ أن نـرى لغـة الْــ أعــراب يجتاحهــا الإهــمال والنُّـوب
ولا نقيــم لهــا الـدنيـا ونُقعدهــا ويسـتفزّ حمانــا السّـخط والغضـــب
تضيـق فـي وسعهـا الدنيا على رحـبٍ لأنهــا فــي علاهــا الملجـأ الرّحـــب
فدرسُهــا مفخـرٌ لا يُستهــان بـــه ونبذهــا شــرٌّ عــارٍ مــا بــه رِيَـــب
أمُّ اللغـاتِ وأعـلاهــا وأفضلهـــــا بفضلهــا وعلاهــا يـزدهـــي الأدب
سـلِ الجزيـرةَ عنهــا والعــراقَ وسـلْ مــصرًا ولبنــانَ والفيحــا تُجــبْ خَبَـب
أبنــاءَ يعــربَ حـقُّ الضــاد مهتضَــمٌ ولــيس مــن منكــمُ للحـق يــطّلب
ألســتــمُ العُــرْب أمجــادًا غطــارفةً فــي صون حقّهـمُ الأمثـال قـد ضربـوا
صـونُ اللغـات صِيـان العـرض نحسبـه ألاَ اربـؤوا إنَّ عِـرض الضـاد يُسـتلَب
فهْـي البتــول التـي فَضَّـت بكـارتَهـا أعاجــمُ اللفــظ بئـس الإثـمُ يُرتكَـب
الذنبُ ذنـب طِـلاب العلـم حيث بهـم تمــوت قــوميّةُ الأعــراب والحسـب
بـاهــوا بــدرس لُغـى الأغيـار واجتهـدوا ومــا لأجدادهــم عــابوا ومـا دأبــوا
فــالغيرُ يبنــي عــلى أنقــاض دولتـه ونحــن نهـدم مــا أجدادنـا نصبــوا
والغــيرُ يسـعى ليُعلــي شـأنَ أمتـه ونحــن نسـعى لمـا مـن شـأنه العطب
فــالضادُ تــبرأ ممــن تحـت رايتهـــا يـــدكّ مــن حصنهــا العالــي فينقلب
تَطبّــعُ دونـه الـبهتــان والكـــذب مــا تسـتحبّون في «بــونجورَ» مــن لغـةٍ
كلامِكـم حـصرُه ضـاقت بـه الكتـــب؟ لا بـأسَ مــن درس مـا للغـير مـن لغـةٍ
بُعــيْدَ أنْ لغــةَ الأعــراب تكتسـبوا فإنهــا اللغــة الفصحـى فـلا شقيــت
«أمُّ اللغـات» ولا هــانت بـهــا العـرب «أمُّ اللغـات» ولا هــانت بهــا العـــرب

(*) شاعر من بعلبك (شرقي لبنان) أصدر جريدة «العصر» توفي عام 1951م.

وا رحمتا للضاد

للشاعر علي الزوّاق (*)

قل لي أفي ذاكَ الصُداحِ عزائي — أم كان فيه تفجُّعي وشقائي؟

بالله هل في صوتك الفتّان من — سلوى إلى الغرباء والبؤساء؟

فعسى بشدوكَ أن أهوِّنَ محنتي — فيذوق جفني نشوةَ الإغفاء

إني كمثلك يا هَزارُ متيّمٌ — لا عن غنًى كلا ولا حسناء

هيهات، لا أهوى تموُّهَ دُميةٍ — أبدًا ولا أهوى نعيمَ فناء

وأنا كمثلك أُحسِن التشبيبَ لَـ — ـكِني نبذتُ سفاسفَ الخُلَعاء

فتركت ذاك لمعشرٍ قد أُولعوا — وتشبَّثوا بمطارف الأهواء

حسبوا السعادة في فتاةٍ مُوِّهتْ — ومطارفٍ قُشْبٍ وفي الصهباء

يا ويح َنفسي كم يجرِّعها الزما — نُ وصرفه من علقمِ الأرزاء

أبداً أبِيتُ كثاكلٍ متفجّعٍ — طول الليالي فَتّ في أعضائي

يقضي الأنامُ حياتَهم في غِبطةٍ — وأنا أُقضِّي العمرَ في بأساء

حظي يعاكسه الزمانُ وضاعفت — خطبي همومٌ أحرقتْ أحشائي

لما وقعتُ حيال أطلالٍ أرى — ما شاد قومي من عظيم بلاء

أمست دوارسَ لا أنيسَ حيالها — ما إنْ ترى فيها سوى الأصداء

ولقد شجا نفسيَ مجدٌ قد بنى — شُرفاتِهِ قومٌ همُ آبائي

قومٌ لهم دانَ الزمانُ فأسكنوا — دينَ العروبةِ صهوةَ العلياء

وبنَوا على هام الخلود وأثّلوا — مجدًا يطاول مفرِقَ الجوزاء

فغدوت أرثي مجدَهم وفخارَهم — ونشرتُ عن تلك الطلولِ دمائي

ويضيق بي رحب الوجود إذا أرى — هذي البلادَ فريسةَ الجُشَعاء

وأرى الصحافةَ في حصارٍ دائم — ورجالها في محنةٍ وعناء

والضاد يُمنع والسجون تفتَّحت — تُزجَى لهن معاشرُ الزعماء

وارحمتا للضاد وسطَ بلاده — وارحمتًا لحُماته السجناء

قومي فِداكم ما أعزّ لأنتمُ — أولو النهى وسلالةُ النجباء

آباؤنا يزهو الزمان بذكر ما — تركوا لنا من أسوةٍ سمحاء

(*) شاعر جزائري، من مدينة «البليدة، توفي عام 1947م، نشر أغلب قصائده في مجلة «**البصائر**» الجزائرية.

أُم اللغات هي المُنَى

للشَّاعر حليم دموس (*)

لـوْ لمْ تكـن أُم اللغـات هـي المُنَـى — لكـسرتُ أقلامـي وعِفْـتُ مـــدادي

لغـةٌ إذا وقعـتْ عـلى أسماعنـــا — كانـت لنـا بـرداً عـلى الأكبـــادِ

ستظـــل رابطـــة تؤلـــف بيننـا — فهـي الرجـــاءُ لناطـــقٍ بالضـــادِ

وإذا أراد اللــــه يقظـــة أمـــةٍ — أوحـــى لهـــا يقظـــة الأفـــرادّ

وتقـــارب الأرواح ليـس يضـــيرهُ — بيـــن الديـــار تباعـــد الأجســـادِ

أفـما رأيـت الشـمسَ وهـي بعيـدةٌ — تهـــدي الشعـــــاعَ لأنجُـدٍ ووَهـــادِ

أنـا كيـف سِرْتُ أرى الأنـامَ أحبتـي — والقـوم قومـــي والبـــلاد بـــلادي

بـردى كدجلـة، والفـرات محبـة — والنيـــل كالأردن طـيِّ فـــؤادي

وأرى الرصافـــة في العـراق وكرخهـا — كالصالحيـــة مرقـــد العُبَّـــادِ

والغوطتـيْنِ وكـــرْمَ وادي زحلـــةٍ — كنخيـل مصـــر في ظـلال الـــوادي

وحفيـــف هـــذا الأَرْزِ في لبنانـــه — كحفيـف ذاك النخـــل في بغـــدادٍ

لا تلمنـــي في هواهـــا — أنـا لا أهـــوى ســـواها

لستُ وحـــدي أفتديهـــا — كلنـــا اليـــوم فداهـــا

نزلـــت في كـــل نفـــسٍ — وتمشـــت في دماهـــا

فبِهـــا الأم تغنّـــتْ — وبهـــا الوالـــد فاهـــا

وبهـــا الفـــن تجـــلّى — وبهـــا العلـــم تباهـــى

كلمـــا مـــرَّ زمـــان — زادهـــا مدحـــاً وجاهـــا

لغـــة الأجـــداد هـــذي — رفـــع اللـــه لواهـــا

فأعيـدوا يـــا بنيهـــا — نهضـة تحيـي رجاهـــا

لم يمـت شعـــب تفـــانى — في هواهـــا واصطفاهـــا

(*) شاعر لبناني (1888-1957م) نظم الشِّعر وهو في العاشرة، ومن أعماله: **«ديوانُ حليم»**، ومجموعة شعرية مصورة بعنوان **«المثالثُ والمثاني»**، ومجموعة **«صدى الجنان»**. وملحمة ضمّنها بطولات العرب. وله مؤلفات أخرى مثل: **«قاموس الأعلام»**. وديوان (**يقظة الروح**) أهم دواوينه؛ فقد كتب قصائده متضمنة جميع سور القرآن الكريم.

للغة العربية

للشَّاعر أبو بكر بن البشير (*)

إنِّي أسير غرامها ومتيّمُ ... بفضاء صدري حبُّها يتضرّمُ

سحرتْ فؤادي يا لها فتّانةً ... تسبي العقولَ عيونُها والمبسم

ملكتْ شعوري حين لاح جمالُها ... فإذا الوجودُ بنورها يتبسَّم

طلعتْ طلوعَ البدرِ ليلةَ تِمّهِ ... في ليلةٍ ظَلْما وقومي نُوّم

فإذا السرورُ يهزّني في سرعةٍ ... والشوقُ ينمو والوصال يُسلّم

في خمرة المجنونِ قمتُ مسلّماً ... والقلبُ يخفق والهوى يتكلّم

ناجيتُها بصبابةٍ ومحبّتي ... فإذا الجمالُ بوجهها يتبرَّم

فسألتُها في دهشةٍ عمّا بها ... حتى بدت عن لوعةٍ تتكلّم

وسحائبُ التفكيرِ فوق جبينها ... تشكو الأسى في حُرقةٍ تتألّم

قد روّعتْ قلبي الحزينَ بآهةٍ ... ظلّ الوجودُ لبؤسها يترحَّم

كلُّ الورى عِزّي وفخري غايةٌ ... ونشيدهم هيَّا بنا وتقدّموا

صوتي جهورٌ في الحياة وقد شدا ... بهزيجه مُستعرِبٌ مُستعجم

قلبي فخورٌ في الحياة وقد حوى ... آياتِ حسنٍ شِعرُها يترنَّم

وأنا أنا لغةُ الفضيلةِ والهدى ... عربيّةٌ فتّانةٌ لا تُفح

لغةُ العروبةِ بينهم في حسرةٍ ... كاد الفؤادُ لبؤسها يتحطَّم

قلبي وقلبكَ بالغرام تساويا ... لكنّ قلبي بالأسى مُتجشِّم

لغةٌ بها سدنا وعزَّتْ أمةٌ ... عربيّةٌ ولنا الفَخَارُ الأعظم

وكتابنا قرآنُنا يا لوعتي ... سيحال للاتين وهو مُترجَم

مُدّوا اليمينَ فمَن سعى بحماسةٍ ... لبناء مجدٍ بالخلود يُوَسَّم

حتى نرى الحُفّاظَ من أبنائنا ... لحمايةِ القرآنِ دوماً تخدم

ونشيدُنا في غبطةٍ وسعادةٍ ... إني أسيرُ غرامها ومتيَّم

(*) شاعر تونسي(1918 - 1987م) ولد بمدينة صفاقس، التحق بجامع الزيتونة ونال شهادة التحصيل في العلوم، كما زاول التعليم العالي، واشتغل بالصحافة مراسلاً لجريدة "الأخبار" بصفاقس. كان عضواً نشطاً بعدد من الجمعيات الثقافية. كتب للإذاعة التونسية الكثير من الأعمال الدرامية التاريخية.

أُم اللغــات

للشَّاعر اللبناني نجيب بالوظــة

مــا لِي أراكَ أخـا النّهـى مهـــزولا | يـــنهلُّ دمعــك بكـــرةً وأصيــــلا؟
أفأنــــتَ تعــشقُ غــــادةً عربــيّةً | فيهــــا غــدوتَ متيّمــــاً متْبـــولا
فأجبتُهـا والدمـعُ يشبــهُ خدَّهـــا | لا تحسَبينـــــي عـاشقــــاً عُطْبـــولا
يــا ويـلَ بنــتِ الضّـادِ مِـنْ أبنائِهــا | عــافُوا الفصــيحَ وآثــــروا المبـــذولا
أبنــاءُ يعــربَ والعروبــةُ أمُّهــمْ | هجـروا الصّحيـحَ وواصلــوا المعلـولا
شبّانُهــــمْ وكهولُهــــم وشيوخُهـــم | قــد ضيّعــوا المعقــولَ والمنقـــولا
مــن كانَ حُـرّاً للعروبـــةِ ينتمــي | لم يـرضَ عــن أمّ اللّغـاتِ بديـــلا
روضُ العــروبةِ أيــنعتْ ثمراتُـــهُ | وقطوفُـــه قـدْ ذُلِّلــتْ تذليــــلا
ارجـعْ لأمّـكَ يـا بـنَ يعـربَ نــادمًا | آيــاتُ أمِّـكَ فُصِّلـتْ تفصيـــلا
ســادتْ عــلى أقرانِهـــا ببـــدائعٍ | سمحَ الزَّمـانُ بهــا وكـانَ بخيـــلا
فــاخرْ بهـا مَـنْ شـئتَ غـيرَ مدافَـعٍ | حملـتْ عــلى عـرشِ العُـلا إكليـــلا
سَـلْ إنْ جهلــتَ النـاسَ عــن تاريخِهـا | ســحبتْ عــلى كلِّ اللغـاتِ ذُيـــولا
قــلْ لـلألى جحـــدوا روائــعَ آيهـــا | هــاتوا لنـــا شَبَــهًا لهـا ومثيــــلا

لغــة الفرقــان

للشَّاعر إبراهيـم العلاف (*)

أهــواكِ يــا لغتــي، أحيـاكِ إنسانـا | شـوقًا إليـكِ أجـوس العمـرَ، ظمآنـا
أهــواكِ مــنذ الصبـا، ألتـذّ منسـجمًا | أُحـسّ سـحرَكِ يســري فِيَّ طوفانـــا
فكـم نعمـتُ بدنيـا الشعـرِ مندمـجًا | بيــن الدواويـنِ أطـوي الليـلَ سهرانـــا
وكـــم سعــــدتُ بــــآراءٍ، وأخـــيلةٍ | محلّقـــــاتٍ، مجّـــدتُ حرمانـــــا
وكـم حظيـتُ بــومضاتٍ مشعــشعةٍ | وفلسفــاتٍ، وكـــم أثريـتُ عـرفانــــا
وكـم هفـــوتُ لألفـــاظٍ مُرصّعـــةٍ | وللأساليــــب قــد أعجـزنَ تِبيانـــــا
وكـم تمتّعــــتُ مــن وزنٍ وقـافيـــةٍ | كلاهمـــا خلّـــدا للشعــــر بُنيانـــــا
كـم صاهـرتْ مــن ثقافـاتٍ مُترجمـةٍ | وأنجبـتْ مــن حصيـف الفكـرِ ألـــوانا

(*) شاعر سعودي (1931 - 1991م) درس في كلية دار العلوم بالقاهرة، وشغل وظائف مختلفة بالمملكة العربية السعودية، له خمسة دواوين، منها : «أشواق وآهات»، و«وهج الشباب»، «آفاق وأعماق»، وغيرها.

وكم تَربّصَ مُغترٌّ بغفوتها ... فعاثَ يُوسع تمزيقًا وإثخانا
ثم استفاق على يأسٍ وقهقرةٍ ... مُخيَّبًا، سامه القرآنُ خِذلانا
أفديكِ يا لغتي، أفديك زاخرةً ... دقيقةً تُبطن الإيحاءَ فتّانا
تغلغلتْ في دمي حتى إذا وجدتْ ... مني الصفاءَ استفزّتْ فيَّ فنّانا
نِعم التراثُ وماضيها وحاضرُها ... ونعمَ مستقبَلٌ تلقاه جَذلانا

اللغة والبلبل

للدكتور عبده بدوي(*)

تابعتُ عطركِ في صحراء أجدادي ... ودُرتُ حولكِ في صمتي وإنشادي
مازلتُ أذكرُ حرفاً فيه وسوسةٌ ... من الجِنانِ، ومن تفاحها النادي
وفرحةً من مساحاتٍ مُهدَّلةٍ ... دارت بكلمةِ «بستانٍ» على الوادي
وكيف صارت «غيومُ» كِلْمةً هطلتْ ... وكيف أضحى «نخيلٌ» غُنوةَ الحادي؟
قد كنتِ دوحةَ بالٍ أنبتتْ رَجَزاً ... قُربَ الخيامِ التي شُدَّتْ بأوتادي
وكنتِ هودجَ عشقٍ، فيه زلزلةٌ ... فالحبُّ رغم التأسِّي رائحٌ غادي
وكنتِ قصة فرسانٍ قد انهمروا ... وأصبحوا، والأماني عند ميعادِ
حتى تدفَّقَ فيكِ الوحيُ مبتهِجاً ... فأصبح الكون -كلُّ الكونِ- في الضاد
اللهَ! يا فجرها، فاضتْ قداسته ... بالنورِ في «كعبةٍ» بالشِّعر في «النادي»
لكمْ تمنيْتُ لوْ كانت مُعلَّقتي ... على «القباطي» بركنٍ مُشرِق شادي
ففوق كلِّ مكانٍ كنتِ لؤلؤةً ... قد علَّقتها «قريشٌ» فوق آبادِ
وقد غدوتِ أناقاتٍ وزركشةً ... وطارقٌ مُبحِرٌ في بُعد أبعادِ
.. لمَّا رأيتكِ بين العصرِ عابثةً ... والشوكُ غطى مع البغضاء أمجادي
والصمتُ يُوغِلُ في أعماق عالمِنا ... ويجذبُ الشمسَ عن وردٍ وأحفادي
وللركاكةِ عُرسٌ صاخب ثمِلٌ ... وللفجاجةِ عُقمٌ واضحٌ بادي
قالت حروفك: لنْ أبقى بغير دمٍ ... يُجدِّدُ الخصبَ في خوفي وأورادي
فهوَّمتْ كلُّ أيامي بلا جزعٍ ... على الفروعِ التي جفَّتْ كأعوادِ
قد كان يبسمُ قلبي وهو في ألمٍ ... وكنتِ أنتِ على وعدٍ بميلادِ
فهلِّلي ملءَ هذا الكونِ، وابتهجي ... وغرِّدي للأمانِ الخُضرِ وارتادي

(*) شاعر مصري، أستاذ الأدب والنقد في بعض الجامعات العربية والإسلامية (1927-2007م) ومؤسس مجلة **«الشِّعر»** المصرية ورئيس تحريرها.

اللغة الباكية

للشاعر جبران بن محمد قحل (*)

أنا الفصحى أنوءُ بمُرٍّ دائي … وأبكي في الصّباح وفي المساءِ

وأخشى في الحياة على مصيري … من المرض الخطير على بِنائي

يُهدِّدني عدوٌّي بين أهلي … وفي داري الحصينة بالفناء

عدوٌّي اللّحْنُ لا أخشى سواه … فإنَّ اللحنَ يُفقدني رُوائي

يمزّقني المذيع بفرطِ لحنٍ … فيغضب سيبويهِ، والكسائي

ويفضحني المدرّس في دروسٍ … بلا خجلٍ ويطعن كبريائي

أنا الفصحى وأيْم الحقِّ حَيْرى … فكم عانيتُ من عَنَتِ الشّقاء

أرُوني مَنْ تسبَّب في بلائي؟ … أروني مَنْ تسبَّب في عنائي؟

وأهل الدارِ باتوا من خصومي … فزادوا في بلائي واستيائي

حروف الجرّ عندي لا أراها … كما كانت تجرُّ إلى الوراء

أرى ما بعدها بالنصب يُبنى … ويُرفع تارةً وبلا حياء

فيا أهلَ العروبة ليس عندي … سوى الشكوى إليكم والبكاء

لغة الضاد

للشّاعر عثمان قدري مكانسي (1)

قُلْ لي بربك: هل صادفتَ بستانا … يحوي من الأُكُل الفيّاض ألوانا

فيه الفواكه مما طاب مُغرسها … أو الثمار تدلى فيه أفنانا

أو الينابيع، جلَّ الله باجسها … كدفقة الروح تزجي الخير ريّانا

يهوى النسيم ظلالَ الأنس مائسةً … فيه، يراقص غصنَ الحور هيمانا

أو العصافيرُ سكرى تنثني طرباً … بعطر أنسامها ينساح نشوانا

تبارك الله، هذا الفضل ألهمني … آياتِ درٍّ، بها قد جدت فنانا

أُسبِّح الله، يحدوني لحضرته … قلباً تفجّر حباً، فاض تحنانا

(*) شاعر سعودي، ولد في جيزان(1940-1994م) درس بكلية الشريعة بجامعة الإمام بالرياض، عمل قاضيًا بمحكمة «صبيا»، ثم انتقل إلى حقل التعليم، وكان عضوًا بنادي جيزان الأدبي.

(1) شاعر سوري، من مواليد حلب 1947م. دكتوراه في اللغة العربية من معهد الاستشراق في باكو، له عديد من الدراسات الإسلامية، والأدبية، وعدة دواوين، منها: (**نبضات قلب، وميض قلب، دفقة قلب**).

قـد شـاره مـن لسـان الضـاد مفخـرةً — لمّـــا تشـــرّف بالتنزيــــل قُرآنـــــا
لسـاننا قـد سـرى سحـــراً، يؤلقـــه — معنـى بديـع، ولفـــظ دقّ عِرفانـــا
أمَّـا المعـاني فبحـرٌ زاخـرٌ عَبَـبٌ — واللفـظ فيـه اسـتوى قيعـاً وشـطآنا
نسـعى إليـه نهـالاً مـن مراشـفه — ونصطفـي مـن جميـل الـدر حصبانـا
إنْ رُمْـتَ معنـىً جليـلاً نِلـتَ أوفـره — أو شِـمْتَ لفظـاً لطيفـاً حـزتَ ألحانـا
إنْ كانـت الحَـلْيُ قـد صِيغَـتْ بعسـجدها — فهيّجـــتْ بوميـض المـــال دنيانـــا
فـإنَّ أنـوار آي الضـادِ مـن شـــرفٍ — قـد تيّمـتْ قبـل أهـل العـين عُميانـا
فهـي العرائـس لا تبـلى عـلى قِـــدَمٍ — في كل آنٍ تـرى مـن حسـنها شانـــا
تهديـك كل جديـدٍ مــــن ولائدهـــا — كفلقـة البـدر، بـلْ فاقتـه إحسـانا
وصوغُهـا لصحيـح الفكـر يكسبـــها — فـوق الوضـوح بيانـاً جـلَّ تبيانـــا
والشِّـعْرُ أغـرودة اللهفـان يرسلـــها — نفثـاً يحـرك في الأعمـــاق أشجانـــا
يلقيـه نبضـاً يهيـم السـامعون بـــه — ويلهـب القـوم إحساسـاً ووجدانـــا
يثير فيهـم غـــراس الخــير يانعـــةً — ويدفـع القـوم للميـدان شجعانـــــا
والنـثرُ نسـجٌ حـوى مـن سندسٍ ألَقـاً — فيـه النسـاء، ومـن إسـتبرقٍ زانـــا
يعلـو بـه مَـنْ سـمتْ في قلبـه فِكَـرٌ — جُـلّى تســاوق في الأثمـــان عِقيانـــا
للـه درُّ لســـان الضـــاد منزلـــةً — فيها الهـدى والنـدى والعلـم ما كانـــا

دمـع عبقـــر

للشَّاعر محمَّـد حافـظ (*)

مـن دمـع عبقـر أسـتقي عـبراتي — تأســى لحــرفٍ دائـــم الحســراتِ
أوقفتـــه بـين السطـــور محدثـــا — فبكـــى وأبكـــى أسـطـــر الصفحـــاتِ
مـا إن يـداوِ الدهـر موضـع طعنـةٍ — حتـــى يصـــاب بأشـــرس الطعنـــاتِ

ناديـتُ: إنـــكَ في الفـؤاد متـــوج — وعلى اللســـان الحـــر كالآيـــاتِ
وبقيـت فخـرا للغـات إذا تبـــا — رى القـــوم حـــول ريادةٍ للغـــاتِ
فـإذا النحيـب ينـوب عـن مـردوده: — أو مـا تـــرى فـوق السطور بنـــاتي

(*) شاعر مصري معاصر، عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية. يعمل في حقل التعليم.

درراً مــن الشِّــعر البديــع تناثــرت وفنـون نثـــــر لم تجـــد قنـــواتِ

ويزيــد مــن وجــع الفــؤاد لهيبَــهُ مــا تدَّعيـــــهِ ثلَّــــة لِعُـــــداتي

بالأمــس قالــت: إننــي لغــة عقيـ م ٌ .. ليــس لي بــاعٌ لمخترعـــــاتِ

هــي أحــرف بــادت ومــا عــاد الزمــا ن يريــد لَبْــسَ عبــاءة الأمــواتِ

فــإذا الزمــان يجــود لي بأحبـــــةٍ دمغــوا المزاعــم .. أظهـروا حسنـــــاتي

ويــدور دورتـــه اللئيـــم وينبــــري للطعــن دون تستُّــــر وتُقــــاةِ

تُهَـمٌ تـكال وليـــس لي مـن بينكـــم أحــد يــرد .. عدمــت ردَّ حُمــــاةِ

مــا ذنــبَّ «نــون النســوة» الغــراء في عقـل عقيــم الفهــم واللمحـــــاتِ ؟

مــا ذنــب «واو للجماعــة» إذْ غــدتْ كــفُّ الجماعــة في لهيــب شتـــــاتِ ؟

لِــمَ كلــما ســقطوا أراهــم علَّقــوا فــوق القواعــد محنـــــة السـقطاتِ ؟

هــلاَّ استشــاروا مــن تخصَّــص كيْ يــرى خــير الوســائل في متــون نُحـــــاةِ

إنَّ الشــعوب مــع اللغــات إذا ســمت ســمت الشــعوب عــلى ســموِّ لغــاتِ

يــا أحرفــاً ســالت عــلى خــد السـطو ر تحسُّـــــراً في أزمــنٍ نَحسَـــــاتِ

ســيجيء دورك في الحيــاة لتبـــــدئي عهــد التقدم فـــوق مــتــن هُـــــداةِ

أسمى اللغات

للشَّاعر جاك صبري شمَّاس ((1).

هــامَ الفــؤادُ بروضــكِ الريَّــــــان أســمى اللغــاتِ ربيبـــــة القـــــرآن

أنــا لــنْ أُخاطــبَ بالرطانــة يعربــــاً أوْ أستعيـــــر مترجمـــــاً لبيـــــاني

أودعــتُ فيــك حشاشــتي ومشــاعري ولأنــتِ أُمـــــي والـــــدي وكيـــــاني

(1) (*) شاعر سوري معاصر، عضو اتحاد الكتّاب العرب، ومن أكثر الشعراء المسيحيين كتابةً في «الإسلاميات»، له كثير من المدائح النبوية، كما كتب قصائد عن «الحج» و«زمزم» و«رمضان» و«القرآن الكريم».

لغـة حباهـا اللـه حرفـاً خالـــــداً فتضوعــتْ عبقــاً علــــى الأكـــــوان

وتــلألأتْ بالضــاد تشــمخ عــــــزة وتســيل شــهداً في فــــم الأزمــــــان

فاحـذرْ -أخـي العـربي- مـن غـدر المدى واغــرس بــذور الضــادِ في الوجـــــدان

مــا كان حرفــكَ مــن فرنســا يقتــدى أوْ كان شِــعْركَ مــن بنــي «ريغــــان»

ولــئنْ نطقــتَ أيــا شــقيقي فلتقــــلْ: خــير اللغــــاتِ فصاحــــة القـــرآن

من مصادر البحث

- إبراهيم بدوي الجيلاني، **فن الترجمة وعلوم العربية.**
- إبراهيم السامرائي، **في شرف العربية**، كتاب "الأمة" الثاني والأربعون، قطر.
- أحمد حسين شرف الدين، **اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام.**
- السيد أحمد فرج، **تعريب التعليم الجامعي ضرورة**، رابطة الجامعات الإسلامية.
- أنور الجندي، **الفصحى لغة القرآن**، دار الاعتصام، القاهرة.
- أنور الجندي، **المؤامرة على الفصحى**، دار الاعتصام، القاهرة.
- تحية عبد العزيز، **اللغة العربية أصل اللغات.**
- حسين مجيب المصري، **أثر المعجم العربي في لغات الشعوب الإسلامية.**
- جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مكتبة مصر، القاهرة.
- رفائيل نخلة اليسوعي "الأب"، **غرائب اللغة العربية.**
- زيجريد هونكه، **شمس الله تسطع على الغرب**، دار الشروق، القاهرة.
- عبد الصبور شاهين، **العربية لغة العلوم والتقنية**، دار الاعتصام، القاهرة.
- عبده بدوي، **أهمية تعلُّم اللغة العربية**، جامعة الكويت.
- عدنان النحوي، دار النحوي، **العربية بين مكر الأعداء وجفاء الأبناء.**
- سليمان أبو غوش، **عشرة آلاف كلمة إنجليزية من أصل عربي.**
- ماريو بِلْ، **تاريخ اللغات**، ترجمة سامي خليل، دار المعرفة، دمشق.
- محمد عبد الشافي القوصي، **العربية لغة الوحي والوحدة**، الرياض.
- محمد عبد الشافي القوصي، **محمَّد مُشتهَى الأمم**، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- محمود الألوسي أبو الفضل، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.**